لغة العلوم

للدكتور بشير العظمة

حاولت عبثاً أن أجد مصادر لتاريخ استخدام اللغات الوطنية في البحث والنقل العلمي فلم أوفق ، ويبدو أن موضوع استعمال أداة التفاهم الوطنية في المجال العلمي بديهية لاتبلغ درجة الشك ؛ ويؤكد الحكماء أن العقل لايعدد الحجج والمبررات الا دفاعاً وتعبيرا عن المزيد من الشكوك !!

في البلاد العربية سبع عشرة جامعة كاملة أو نواة لجامعة ويعتمد التدريس العلمي فيها على اللغات الاجنبية كأساس « الفرنسية أو الانكليزية » وتعتمد سورية « دمشق وحلب » لوحدها اللغة العربية أساساً في التعليم الجامعي .

تصدى المعهد الطبي العربي ، وقبل نصف قرن تقريبا فاعتمد اللغة العربية للتدريس الطبي ، وعكف الرواد أساتذته المؤسسون يعملون بدأب وحماس ، يترجمون وينشرون ويعلمون بلغة عربية وأوجدوا مكتبة طبية محترمة . وبعد نصف قرن تقريباً نقرأ تقريراً للجنة من الخبراء الاجانب « لمايس ١٩٦٤ » وفيه توصية صريحة وباجماع آرائهم على ضرورة تعليم الطب في حلب باللغة الانكليزية ؟!!

ويجري البحث في السعودية والاردن حول انشاء كليات للعلوم التطبيقية ويقررون مبدئيا التدريس باللغة الانكليزية أيضاً .

والسؤال الذي يطرح نفسه ومامصير تعليم الطب والعلوم الاخرى بالعربية اذا كانت حلب ستدرس غداً بالانكليزية وخلافا لدمشق ؟ اتقرير الخبراء نشر منذ عام ولم يرتفع صوت في نقده. أو ليس السكوت اقراراً بصحة ماجاء فيه ؟ اوهل فشلت دمشق في عملها الرائد منذ نصف قرن؟!

ويرى اساتذة الكلية في دمشق ان الموضوع قد بت فيه نهائيا وأن القافلة تسير ! افلا يحق لنا ان نتساءل اين مستقرها؟ او ليس في ذلك نهاية اللغة العربية علميا وفي دمشق الرائدة بالذات؟!

وسؤال آخر ايضا . لو كان مشروع كلية حلب موضوع بحث قبل ربع قرن أكانت الانكليزية لغته المقترحة ؟! وبعد ربع قرن أتكون الالمانية أم الروسية !

ان موضوع لغة العلوم في أذهان العرب السوريين قبل العراقيين والمصريين والجزائريين الخ ... موضوع لم يبت فيه والدليل قائم في تقرير انشاء كلية في حلب لغتها انكليزية ؟!

وليس صحيحا كذلك ان جميع اساتذة القاهرة وبغداد هم اعداء للغتهم ابدا . ودليل ذلك عمل هادىء يصدر عن المجمع اللغوي العربي في مصر وكتب وأمال في العلوم التطبيقية وفيها الكثير من الاسماء العربية ايضا .

ان استمرار كل بلد عربي في طريقه ، واستنباط كل بلد طريقة خاصة به للتعريب ، والفوضى التالية لكل ذلك تعطي الحجة لاعداء اللغة العربية ، وتقدم لهم الدليل على فشل التجربة فالكلمة الواحدة تختلف ترجمتها بين بلد وآخر بل وفي البلد الواحد والجامعة الواحدة بين كلية واخرى ، بل بين استاذ وآخر وفي شعبة واحدة !؟

والخلاصة فان اعتبار موضوع لغة العلوم امراً مسلما به في دمشق او في غيرها من العواصم العربية أو اعتباره موضوعا محليا لاعلاقة للآخرين به ، خطأ كبير . يواجه العرب وفي جميع اقطارهم تحديات تعمل في اتجاهات عديدة تحاول تيارات منها أن تعزل بعض الاقطار العربية أو

تشكك بعض الطبقات بانتسابها الى حضارة وشعب عربي ، وتريد لها ان تدين بالولاء الفكري على الاقل الى وهج حضارة لامة وقرية .

سينتهي النصر في معركة التحرير السياسية للمغرب العربي الى ضياع الجزائر وتونس والمغرب اذا لم نعمل على شد أواصر صلاتنا عن طريق جامعاتنا ت كلم معهم بلغتنا القومية وفي العلوم لافي الشعر والادب والغناء فقط .

في المغرب والجزائر وتونس حركة طيبة من أجل تعريب العلوم فلابد لنا في المشرق من أن نتفق وإياهم قبل ان ينتزعهم منا الاستعمار ، الذي ارتحل عسكريا وسياسيا ، وهو يحاول إعادة الربط والتبعية عن طريق الثقافة والعلم .

لابد لنا من اقامة صرح عربي علمي متماسك قادر على مجابهة التحدي والغزو الثقافي لليقظة العربية .

في اسرائيل مليون ونصف من قوميات عديدة ولغاتهم عبرية ؟! والعرب في أرضهم من المحيط الى الخليج يتكلم الجامعيون الذين تعهدتهم معاهد أجنبية أو وطنية جميع لغات العالم الا لغتهم فهم يترجمون اليها أفكارهم وكثيرا مايفشلون .

دعونا نحاول بجد ان نتفاهم بعيدا عن لوالب السياسة على موضوع اللغة العلمية ، وعسانا نتفق عليه !! دعونا ننهي مواقف العزلة والترفع وإملاء الارادة .

اللغة الوطنية أداة للتعبير العلمي والأدبي وعند جميع الأمم :

ان أمما أصغر من الأمة العربية عددا ، وأقل منها أثرا في تاريخ الحضارة الانسانية ، تدرس العلوم بلغاتها الوطنية : بلغاريا ، تركيا ، اليونان ، أوزبكستان وغيرها وغيرها أيضاً .. فكيف ونحن نتغنى بوحدة المصير ووحدة الهدف ووحدة الأرض العربية تنكر على اللغة ، وهي الرابطة الأقوى بيننا ، قدرتها على ربط الجامعيين وتوحيد أداة التعبير بينهم ؟!

في عصر العلم لابد من العلميين ولن يغني عنهم الأدباء والشعراء ولو طرب لقصيدهم الوطن الكبير . فان معركة البناء والتعاون وتبادل المعرفة تفرض وجود أداة موحدة للتفاهم بين المهندسين والجيولوجيين والرياضيين والأطباء العرب وغيرهم وفي حدود وطنهم القومي أيضاً .

ان جميع أمم الأرض تدرس العلوم المنقولة مترجمة الى لغاتها الوطنية . باستثناء شعوب

ليس لها مقوماتها الكاملة لأنها لاتتكلم لغة واحدة « كالهند » أوهي قبائل تتكلم لغات غير مكتوبة أو لايمكن أن توصف عليا بأنها لغة « Idioms » كعدد من الدول الافريقية » . وفي الحالين تبقى اللغة الأجنبية أداة التفاهم المشتركة بين الجميع لأنها الوسيلة الوحيدة لتفاهمهم .

ليس الدافع لترجمة العلوم الحس الوطني وحده ، بل ان هناك ضرورات موضوعية وغير عاطفية توجب ذلك وأوجزها بما يلي :

١ — ديموقراطية العلم :

كان العلم قديما حكرا لأبناء الطبقة الحاكمة من الكهان والأمراء ، وكانت حياة السواد من الشعب في الظلام وراء اللقمة والسلامة . وكانت اللغة اللاتينية في أوروبا أداة التفاهم بين أصحاب الامتياز في الكنيسة والجامعة وبعدها ، وكذلك كانت عنوان التميز الطبقي . وكانت اللغة الأجنبية لغة الكلام في القصور والسفارات ، أما اللغة الوطنية فللحياة اليومية للخدم والسائقين والفلاحين !!!

ان الظاهرة الهامة والعظيمة الأثر في تطور تاريخ العلوم من الناحية الاجتماعية ، هي في ديمقراطية المعرفة ومشاركة الشعب في جميع طبقاته في التعلم والتعليم . ولم يكن بالامكان ان يتم ذلك لولا استخدام اللغة الوطنية أداة للتفاهم بين الجميع

فديمقراطية العلم نتيجة حتمية لاستخـــدام اللغة الوطنية ،

واصرار الجامعيين على استخدام لغة خاصة بهم لايفهمها غيرهم هو تعبير نفسي عن الشعور بالتميز واشعار الآخرين به ، وكذلك يعني الترفع عن المجتمعات حيث يعيشون .

وقد استهدف الاستعمار من استخدام اللغة الأجنبية في التدريس الجامعي وفي كليات العلوم التطبيقية بشكل خاص اقامة حواجز تقضي على مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم العالي .

وتاريخ الاستعمار البريطاني حافل بالامثلة عن تصميم صانعي سياسته على ربط مصالح ابناء طبقة الحكام والاقتصاديين بمصالحه . فالطلاب القـــادرون على الدراسة الابتدائيـــة والثانوية في مدارس الانكليز قادرون لوحدهم أن يتابعوا في الكليات العلمية حيث اللغة انكليزية أيضا . وكذلك يمهد لهـــم الطريق لوحدهم للتفوق في البعثات والوظائف في الادارة والتعليم والسياسة والاقتصاد .

وكذلك فعل الفرنسيون في البلاد التي اعتبروها امتدادا للوطن الأم .

وعليه فان استخدام اللغة الوطنية في الجامعة سيؤكد الأسس الصحيحة لديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص للجميع .

٢ – نشر المعرفة وتبسيط العلوم وتحضير اعداد كافية من الفنيين المتوسطين:

على المجتمعات المتخلفة أن تحدد بشكل متدرج وواقعي أهداف خطة التطوير العامة وفي حدود الامكانيات المادية والفكرية ، وان تتجنب مزالق أحلام اليقظة في القفز مرة واحدة الى مصاف المتطورين والمبدعين .

ففي ترتيب الأولويات نحن بحاجة لاعداد كبيرة من الفنيين المتوسطين القادرين على الربط في الانجاز والتنفيذ بين الاختصائيين وبين جماهير عمالنا الزراعيين والصناعيين الأميين تقريباً . وتبقى حاجتنا للاختصاص في حدود عددية ضيقة نسبياً وفي فروع علمية تطبيقية منقولة .

وتتحدد مسؤولية هؤلاء الاختصائيين حصراً بالعمل في الوسط الجامعي ، في نقل العلوم والتعليم ، والجامعة منطلق معركة التطوير فهي مصنع انتاج الجيل العلمي الصاعد .

والى جانب ضرورة اتقان الأخصائي لغة أو لغات أجنبية فان عليه أيضاً وفي نفس المستوى أن يتقن الكتابة والكلام العلمي بلغته الوطنية ليبقى قادراً على تخريج الأفواج الكافية عددياً من العلميين والفنيين ذوي الكفاءات المتوسطة والعالية أيضاً .

وعلى الجامعيين وفي البلاد المتخلفة بشكل خاص أن يدرسوا العلوم لا لطلابهم فقط في المقاعد الجامعية بل وللعامة من الناس الذين لم يسعفهم الحظ بمتابعة الدرس ، في النشرات والمحاضرات – والجامعات الشعبية وهي خطة التبسيط العلمي . وسيطول انتظار الجامعيين حتى يفهمهم ويتعاون معهم مستمعون يؤلفون الكثرة الساحقة من مواطنيهم الأميين .

ان التزام قواعد حفظ الصحة لايمكن أن يتم بالتخويف من لعنة المرض ، ولا يمكن لأية حملة كفاح لأي مرض أن تنجح الا اذا شارك بها وتحمس لها هؤلاء الذين نعمل لخلاصهم من المرض والتخلف ، وكذلك يقال عن برامج الارشاد والتطوير في الزراعة والصناعة وفي كل المجالات .

ان هؤلاء الذين ندعي العمل من أجلهم لابد لنا من أن ننزل الى مستوياتهم الفكرية لترتفع معهم ونكسب ثقتهم بأن نوجه لهم كلاماً يفهمه منطقهم وتدرك معانيه مسامعهم .

وسيبقى العلم للجامعيين تسلية ومتعة شخصية اذا لم يستهدف خدمة المواطنين .

انا تكاد تشهد نهاية للزمن الذي كانت بلاغة الخطباء فيه تتلاعب بعواطف الجماهير وتوجهها كما تريد. ان جيلنا الجديد مختلف جدا عن آبائه ولا بد للوصول الى قناعاته العقلانية، من مخاطبته بلغة العلم والأرقام وأداة حوارنا معهم لغتنا المشتركة الوطنية. وكل لغة أجنبية تستخدم بديلا عنها ستجعل من الجامعيين الوطنيين صورة جديدة للخبير الأجنبي، تقوم حواجز عفوية بين مايقول أو ينصح وبين مستمعيه.

وفي البلاد العربية جميعا مشكلة اللغة الفصحى والعامية، فاذا أضفنا الى ذلك لغة أجنبية يتكلم بها الجامعيون الطليعيون، كان الحوار والتفاهم غير ممكن بين أبناء الشعب الواحد، أو هو يتم في ثلاثة مستويات. فاقرار العربية لغة العلوم يمهد لازالة الحواجز بين المتعلمين والجماهير.

بينما تزداد الأبعاد وتتباعد بين طبقات بعضها فوق بعض عندما يتعذر على الجامعيين التفكير أو الكلام العلمي الا بلغة أجنبية أو هجينة.

والخلاصة مامن أمة على الأرض تشعر بوجودها الوطني الا وتدرس العلوم جميعا بلغتها الوطنية وليس في العالم جامعات وطنية تدرس بلغات أجنبية الا في أفريقيا وبعض بلاد جنوبي آسية حيث لايزال الاستعمار يمارس ويتابع الربط والاستثمار والتبعية وفي كل المجالات.

٣ — اتقان لغة أو لغات أجنبية بعد اللغة الوطنية لابديلا عنها:

أن الظروف العالمية الحاضرة والكفاح من أجل البقاء الوطني وفي مستوى لائق حضاري وانساني، وبعيداً عن التبعية والذوبان أمام قوى عالية جبارة متطورة، وفي عالم تزول الأبعاد فيه ويحتدم الصراع بين المتطورين يحاولون الحفاظ على امتيازاتهم، والمتخلفين يحاولون الخلاص من رواسب الظلام والظلم، في هذا المعترك العالمي اللاهب، لابد للدول النامية من أن تنتهي من عهد الخرافة والقدرية والاستسلام وتعتمد الاسلوب العلمي العقلاني بدل العاطفي، ولن يتم ذلك الا اذا كانت أداة التفكير العلمية اللغة الوطنية.

واستبدال اللغة الوطنية بلغة اجنبية هو ازدواج في الجنسية، فالانسان الذي يفكر بلغة اجنبية ويترجم أفكاره الى لغته الوطنية انسان مصاب بتبدد النفسية Schyzophrenic يتجه ولاؤه الفكري الى لغة الجامعة أو البلد والى المجتمع الذي عاش فيه سني شبابه. فاذا عاد الى وطنه اصطدم بالواقع ويخرجه من متاعبه الهروب أو العزلة.

وقد أشاع التعليم الجامعي في بلاد أجنبية، وعلى جميع بلاد المتخلفين، أعدادا كبيرة من

خيرة الشباب . ولن تتمكن بلادنا أن تزاحم في رخائها وثرائها بلاد المتطورين للتبعيد الضائعين .

أرجو أن لا أتهم بالاصابة بعقدة العداء والرفض لكل ماهو أجنبي Xenophobie بل اني بالعكس من ذلك واثق من أن الظروف الموضوعية القائمة في العالم أجمع لاتسمح اطلاقا بالعزلة وبأي شكل كان .

وطريقنا للانفتاح على العالم أجمع اتقان لغات أجنبية ولكن بعد لغتنا الوطنية لابديلا عنها ، وان نبقى قادرين على التفكير بها والترجمة اليها . فان البلاد المتخلفة تحتاج لتعليم جامعي ملتصق بمجتمعاتها واع للمشاكل الوطنية يتفاعل معها في حدود الامكانيات والواقع ، يترجم تجارب العالم ويقتبس منها الحلول .

٤ ـ تعدد لغات الجامعيين تبعاً لتعدد مصادر العلم والاختصاص يباعد بينهم أو على الأقل يقيم بينهم حجبا تتصل باختلاف الفكر تبعاً لاختلاف اللغة .

ان وحدة اللغة والفكر عند الجامعيين على اختلاف اختصاصاتهم ضرورة تفرضها طبيعة العمل الجماعي في العلوم . وتعدد مصادر العلم لدى الجامعيين في بلاد المتخلفين وتعدد أساليبهم في التفكير والعمل ، تعدد البلاد التي درسوا بها ، واللغات التي يتكلمونها ، كل ذلك يباعد بينهم ويبقي انتاجهم مجهوداً فرديا . وبالعكس فان صهر هذه المعارف على اختلاف مصادرها في قالب اللغة الوطنية سيجعل انتاجهم عملا جماعياً وسيخفف ذلك من أعباء الابعاد واحتمالات الضياع .

وفي بعض البلاد العربية حيث تقوم معاهد ذات جنسيات مختلفة تبدو القطيعة كاملة تقريباً بين شباب البلد الواحد ، وكأن هناك قوميات مختلفة جميعها أجنبية على الأرض الوطنية .

والخلاصة فان الأساس في التعليم اللغة الوطنية ، والانفتاح على العالم يفرض اتقان لغة أجنبية او اكثر ويترجم الانتاج العلمي في مختلف اللغات فينصهر ويصبح جزءا من مصادر المعرفة تجمع بين الجامعيين .

فاذا انكرنا على اللغة الوطنية قدرتهـا على استيعاب حاجات العلوم فان البديل عنها ولا شك لغة أجنبية واحدة طبعاً . ونحن نرى كيف أن مصادر المعرفة في تحرك تاريخي دائم ومراكز نقل الاختصاص غير واحدة !

فهل نعمد الى تبديل لغة العلوم في التدريس كل ربع قرن مثلا ؟!! او نعتمد في كل اختصاص علمي لغـة تختلف عن العلوم الأخرى !!! الحل المنطقي ان تصهر العلوم جميعاً بلغتنا الوطنية ولن نبدل الا في مصادر الترجمة اليها ويبقى ذلك ميسوراً .

اللغة العربية في العلوم

من العبث أن أحاول ايراد الحجج والبحث عن الدلائل التي تؤكد قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم فقد كانت العربية ولوحـدها وخلال ظلام قرون طويلة القبس الذي اعتمدته النهضة في أوروبا . فالبرهان قائم تاريخياً على قدرة هذه اللغة على الاستيعاب العلمي . فاذا تركنا التاريخ وأناشيد الفخار بأجدادنا ولغتنا ، لنعود بتواضـع الى واقعنا العربي حالياً ، فانا نشهد يقظة وعي قومي يعتمد اللغة عموداً فقريا له ، ويشمل مئة مليون من البشر حملوا الحضارة الى اوروبا كنزاة ، وأودعوا علومهم وانجازات حضارتهم بطون مجلدات كانت بين غنائم الردة عليهم او كانت نصيب المتسللين الى بيوتهم وهم نيام ، واستقرت في خزائن لندن وباريز وبرلين ولينتغراد.

تقع البلاد العربية على تخوم حضارة العصر الحاضر جغرافياً وكذلك تقع تاريخياً . وتقع يقظة القومية العربية في زمن تاريخي هو عصر التجمع والتفاهم والتقارب والتجاوز عن بعض المصالح المحلية من أجل القدرة على الصمود والبقاء ، ولحمة الوحدة العربية اللغة العربية وهي رابطة امتن من الارض ومن التاريخ ايضاً . وان وحدة العرب بوحدة أداة تفاهمهـم وحدة عنصر أساسي في طريق تماثلهم وتعاونهم .

ان اختلاف تربيتهم الجامعية واختلاف اتجاه تفكيرهم تبعاً لذلك يجعل من مؤتمرات وندوات المثقفين العرب برجا لبابل . وكذلك اختلاف مصادر المعرفة يجعل أرضنا العربية مسرحا لتنازع النفوذ بين ثقافات أجنبية : مؤتمرات المثقفين بالفرنسية واخرى بالانكليزية وغداً ربما للألمان والروس ؟!!

وكذلك فان اقرار اللغـة العربية في التدريس الجامعي وسيلة أساسية لربط الجامعيين بأوطانهم ومجتمعاتهم وتطبيق فعلي لديمقراطية العلم في جميع مستوياته .

ان الوسائل تابعة للغايات ، واهداف التربية في كل بيئة اجتماعية تابعة لمثلها العليا .

نحن في مرحلة تأكيد وجودنا القومي وفي مرحلة تجميع قوانا البشرية الفكرية والمادية

للدفاع عن وجودنا . والقول بأن اللغة العربية تصلح للشعر والأدب فقط اتهام مرفوض فان اللغة لسان أمة ترتفع وتهبط معها في اندفاعها وسباتها .

سباتنا عبر أجيال طويلة من الاستعمار والفرقة واعتيادنا سماع الشعر والأدب نطرب له ، فنغط في النوم العميق أكثر فأكثر ، لا يجوز أن يؤدي بنا الى انكار واقع تاريخي مجيد ؛ لقد كنت لغتنا بكبوتنا ثم نصحو فلا نتذكر منها الا أنها لغة الشعراء والمغنين تعزف للكسالى الناعمين !!

ورغم هذا الواقع التاريخي ورغم ما نشهد من تفجر المنطقة العربية وثورتها على واقع التخلف وايمانها القومي بوحدة المصير ووحدة الارض ، رغم كل ذلك فان قياداتنا العلمية الجامعية وفي جميع أقطارنا العربية لا تزال متخلفة عن مجاراة اليقظة العربية . فالايمان باللغة القومية متفاوت يتراوح بين الانكار والبقاء على الولاء للفكر الاجنبي خلف الحدود العربية ، او هو ايمان تعوزه الحرارة او يفتقر الى الشجاعة ليتخطى الحدود ويبادئ الحوار مع الآخرين .

١ ـ اللغة العلمية في سورية :

حاول الاتراك بعناد عزل اللغة العربية وحصرها بين جدران المساجد والكتاتيب ، وفرضوا اللغة التركية على الشباب العربي المتعلم . وحاول الفرنسيون والانكليز ذلك في أوج يقظة القومية العربية فنجحوا في بعض الاقطار العربية وفشلوا في سورية . وتحدى معهد الحقوق ومعهد الطب وقبل أن توجد الجامعة ، اتجاهات المستعمرين ، فقام أساتذة المعهدين بجهود جبارة ينحتون تعابير وأسماء وفي مختلف الفروع العلمية ، وألفوا في جميع فروع الطب والحقوق وأخرجوا خلال أعوام مكتبة عربية تفاخر بها دمشق .

ولست في مجال تعداد أسماء الذين دأبوا يعملون بصمت ينحتون ويصوغون الكلمات العربية العلمية فان آثارهم تدل على أنهم كثيرون . وبقيت تجربة دمشق اللغوية مجهولة او مرفوضة من الآخرين .

حتى كانت الوحدة بين سورية ومصر ، وفي غمرة الحماس والظروف السياسية المواتية استمع الزملاء في القاهرة طربين لمحاضرات طبية ودروس سريرية تلقى باللغة العربية ، فصفقوا بأيديهم واستنكر بعضهم المحاولة في ضمائرهم واعتبرها نكسة الى الوراء .

الاساتذة الجامعيون في العالم العربي ابناء طبقة الارستقراطيين ، ومعظمهم من خريجي جامعات اجنبية ويدينون بالولاء الفكري لها ، وحتى دون غيرها من الجامعات الاجنبية . وقد

اوكل الى هؤلاء تعريب العلوم ولنا ان نتساءل كيف يمكن لهؤلاء ان ينسلخوا عن هذا الواقع ليعملوا تحا لغة العلوم او يشاركوا في جهد ليخلقوا هذه اللغة ؟ !

وقد كانت الظروف الموضوعية القائمة في دمشق مختلفة جدا عما كان عليه الامر في العواصم العربية الاخرى واليكم صورة عن الاسباب التي جعلت دمشق تندفع في تعريب العلوم وتصر على المضي في تجربتها التي تعتبرها عملا قوميا موفقا .

بدأ التدريس باللغة العربية في المعهد الطبي العربي عام ١٩١٩ ايام الحكم العربي ، ولم يكن ممكنا أن يقلب فرنسيا بعد الاحتلال عام ١٩٢٠ ، ففي بيروت معهد فرنسي يتسع للسوريين الراغبين والقادرين على الدراسة فيه . وفرض اللغة الفرنسية على معهد دمشق غير ممكن فانتظار تحضير اساتذة وطلاب يتقنون الفرنسية ، يتعارض مع واقع البلاد الحالية تقريبا ؛ في حينه ، الا من عدد محدود من خريجي استانبول او من الاطباء اليونان .

واندفع المستشارون الفرنسيون يدافعون عن اللغة العربية في التعليم الجامعي ، وكان ذلك يدفق ورغبتهم في اقامة مؤسسات علمية عالية تتحدى السياسة البريطانية في الجوار ، وكان معهد الحقوق ومعهد الطب مكملا لسلسلة مؤسسات عربية اخرى كالمجمع العلمي العربي ومعهد الدراسات العربية الفرنسية والبحث عن الآثار . كلها حلقات متكاملة اراد لها المستعمر أن تضفي على الاستعمار من الوجهة التربوية التعليمية صفة حامي العروبة والاسلام . كما ويتسجم هذا الاتجاه مع انطلاق الفكر الفرنسي الحر تاريخيا في فرنسا ، ويساير اهداف الانتداب في توثيق الربط الروحي بين المثقفين في البلدين .

ورغم هذه الشكوك وانصافا للتاريخ فقد تجلت روح الديمقراطية الاجتماعية والتاريخية الفرنسية وبشكل واضح في سياسة التعليم في سورية . فقد كان التعليم ايام الانتداب الفرنسي ديمقراطيا شعبيا ولم يستهدف خدمة طبقة دون غيرها .

ففي الوقت الذي كانت أبواب التعليم الجامعي وفي المعاهد العسكرية خاصة وقفا على ابناء طبقة المتعاونين من الحكام والارستقراطيين في كل من مصر والعراق أيام الانتداب البريطاني ، كانت معاهد العلم في سورية المدنية والعسكرية أيضا مفتوحة لابناء الطبقات المتوسطة وما دونها أيضا .

وتم تخريج أفواج من الجامعيين الذين سدوا وبسرعة حاجة سورية وحاجة عدد من البلاد العربية المجاورة أيضا ، قبل أن توجد فيها جامعات « العراق والاردن ولبنان أيضا » . وكان

جيل الجامعيين الذين تخرجوا من سورية طلائع وعي عربي شامل ، وكانت هذه الجامعة السورية تعبيرا عن حقيقة رسالة دمشق كنارة للوعي والكفاح العربي ، وكذلك تعبيرا عن الايمان القومي بدلا عن العصبية الطائفية . واني أتجرأ فأقول بأن الفضل في تخطي مرحلة التعصب والانقسام الطائفي في سوريا وخاصة بعد الاستقلال ، ووضوح وعمق فكرة القومية العربية فيها ، كل ذلك مدين وبشكل أكيد لهذا الصرح الجامعي الذي ربط بين أبناء الوطن العربي برباط لغتهم الواحدة .

٢ — اللغة العلمية في جامعات العالم العربي :

لست أريد اتهام أي بلد عربي بالتنكر أو بالتهجم على اللغة العربية وفي ذاكرتي صور رائعة للجهد الجبار الذي تم في لبنان والقاهرة وبغداد ايام الدولة العثمانية بينما لم تجد اللغة العربيـــة في سورية ملجأ لها الا المساجد والكتاتيب ، وطردتها اللغة التركية حتى من المدارس الابتدائية .

وكذلك فاني أعتذر بعدم وجود المصادر بين يدي لتقدير حقيقة الجهود المبذولة للتعريب في جامعات الاقطار العربية ، ومع ذلك فلست أشك بصحتها وصدقها وان ما أعرفه في هذا المجال يسمح لي بتقرير مايلي :

لولا انتكاسة الوحدة بين سورية ومصر لكانت اللغة العربية لغة جامعات القاهرة وبغداد فقد اتخذ القرار في الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٠ بتعريب العلوم جميعا وعلى مراحل قصيرة نسبيا . ورغم جو الخلافات السياسية بعد ذلك فان المجمع اللغوي العربي في القاهرة واساتذة فروع الطب والزراعة والهندسة استمروا يعملون بصمت هادىء على تعريب علومهم .

ورغم يقيني بوجود قوى جبارة تعمل بصمت وتصميم على ابعاد اللغة العربية عن المجال العلمي دفاعا عن مصالحها الشخصية وايثارا للدعة والكسل وتجاوبا أيضـــا مع شيخوخة الفكر المتعصب المحدود الذي لا يقبل النقاش فيما اعتاد عليه ، هذه المجموعة من عناصر الردة والجمود تعرقل بل وتجمد انطلاقة الشباب الجامعي الذي يدرك ابعاد المشكلة قوميا واجتماعيـا ، وعليه فان الضرورة تفرض تدخل القيادات التربوية التعليمية في أعلى مستوياتها للخلاص من المتعنتين المتمسكين بقواعدهم .

وتلتقي مواقف التزمت والتعصب للغة العربية مع مايريده المتطرفون في عدائهم لها ، فيستمر التباعد والعزلة والانكماش ، وكل بلد يختط لنفسه طريقا في موضوع اللغة العلمية في الجـامعات وهو موضوع يتصل بوحدة الجامعيين العرب .

واعني بذلك ان مسؤولية دمشق لاتقل عن مسؤولية بغداد والقاهرة تتخذ كل منها موقفاً وتستمر فيه دون الشعور بضرورة التفاهم والاتفاق مع الآخرين .

٣ ـ اتهامات مغرضة :

لم يوجه الاتهام علنا لتجربة دمشق ، ولا التعريب العلمي . ومع ذلك فبالامكان تلخيص همسات المعارضين بما يلي :

أولاً : ـ اللغة العربية سبب رئيسي لتخلف الجامعة السورية في فروعها العلمية وطلاب الجامعة وخريجوها غير قادرين على المطالعة والمراجعة الا في كتبهم المدرسية وهي مقررات وحيدة مفروضة على الطلاب !

ـ ليست اللغة العربية مسؤولة عن ذلك ، اذا صح الاتهام ، فانها ليست اللغة الوطنية الوحيدة تعتمد النقل والترجمة فجميع أمم الأرض تدرس العلوم بلغاتها الوطنية « عدا افريقيا والهند حيث لاوجود للغة الوطنية » ، وانفراد الجامعة السورية لوحدها دون الجامعات العربية بالتدريس باللغة العربية يحملها اعباء لاشك ثقيلة . وضعف الطلاب باللغة الأجنبية نتيجة لضعف مستوى تحضير الطلاب الثانويين باللغات الأجنبية .

وبصراحة كيف نريد لطلاب العلوم في الجامعة أن يتابعوا الدراسة والمطالعة بلغة أجنبية وزادهم منها في المرحلة الثانوية تافه ؟!!

ان برامج التعليم الثانوي في البلاد المتطورة بشكل خاص تفرض اتقان لغة أو اثنتين أجنبيتين ، والدول المتخلفة تحتاج للغات المتطورين كوسيلة أساسية للنقل والمتابعة .

وما حيلة الجامعة في وسواس Obsession أصاب واضعي برامج التعليم الثانوي عام ١٩٤٥ فخضعوا للتيارات السلبية الوطنية تحرق الكتب الفرنسية عنوانا للتحرر والانعتاق ؟!

عسى أن يكون قد تم شفاؤنا من مركبات النقص فيعيد المسؤولون النظر في برامج تعليم اللغات في المرحلة الثانوية ، فانه محال أن يعزل أي شعب نفسه عن تيار الحضارة ولو صمم شيوخه وقادته ورغبوا بمزيد من النوم والتخلف !!

ثانياً — ان المعارف والتقنية الطبية في تطور وتبدل دائمين وسريعين ، فاعتماد الطلاب على مصدر عربي واحد يحرم الخريجين أيام الدراسة وبعد التخرج من امكانية المراجعة والبحث في مصادر عديدة ، وتقف معلومات معظمهم عند حدود ماتعلموا قبل عشرات السنين ، وهي معلومات يغلب أن تكون بالية قديمة .

— والجواب على ذلك بان تجديد وتطوير المعارف الطبية عند الممارسين مشكلة عالمية ، يعالجها بعضهم باستدعائهم دوريا لمتابعة دروس وتطبيقات خاصة في جامعاتهم ، وكذلك بالعديد من النشرات والمجلات .

والاتفاق مع الأخوة العرب سيداوي مشكلة تطور المعارف بتنوع وتعدد المؤلفات والنشرات الدورية .

ثالثاً — ان خريجي كلية الطب لابد وان يقضوا سنة أو أكثر لاتقان اللغة الاجنبية قبل دراسة الاختصاص الذي يريدون ، وفي هذا جهد ووقت ضائعان .

ليس حال خريجي الجامعات العربية التي تدرس فيها العلوم الطبية بلغة أجنبية خيراً من خريجي جامعاتنا ، ولا بد لهم أيضاً من قضاء فترة يتقنون بها هذه اللغة قبل الانتساب لدراسة الاختصاص رغم انهم درسوا علومهم الطبية بلغة أجنبية .

ومع كل ذلك فانه ليس منطقياً ولا جائزاً أن نهمل لغتنا القومية من أجل حاجة فئة محدودة ممن يرغبون بالاختصاص ، وفي فروع قد تتبدل مراكز الثقل فيها بين عام وآخر ، وبين بلد وآخر ، فلا تتفق واللغة الأجنبية التي ندرس بها .

٤ ـ نقد موضوعي :

أمر معقول وعادي أن تقع أخطاء عندما يتصدى نفر قليل لمشروع ضخم هو تعريب العلوم ، ولكن الخطيئة الكبرى ان نضخم ذلك لنتنكر على مئة مليون عربي واجبهم وقدرتهم على ايجاد أداة موحدة للتفاهم بينهم ، وهي لغتهم القومية .

يمكن حصر الملاحظات على ماتم في دمشق بما يلي :

أولا — تمت عملية الترجمة وانتقاء الكلمات تبعاً لأمزجة فردية غلبت عليها المزايدة والمبالغة . ومع الحماس والاندفاع اشتط البعض واستعملت كلمات عسيرة التركيب والتصريف نابية الجرس بعيدة جداً عن كلمتها الأصلية المترجمة . ولدى جميع العاملين في الترجمة ونحت الكلمات أن العرب في حضارتهم التاريخية كتبوا عدداً من الكلمات الأجنبية بأحرف عربية ودون حرج ، فاستعملت مثلا كلمات الديابيطس والاصطاطيكا ... الخ . والكلمات العلمية اللاتينية المنشأ هي موحدة غالباً وفي معظم اللغات الاجنبية ولا يمكن ترجمتها ، واستخدام أي قاموس بأية لغة أجنبية كاف غالباً لمعرفة معنى أكثر الكلمات العلمية البحتة .

وقد كان لهذا التطرف والمبالغة في استبعاد أية كلمة اجنبية آثار ضارة شديدة ، باعدت بين دمشق وبين جميع أساتذة كليات العالم العربي في العراق ومصر ، وجعلت لغتنا الطبية خاصة بنا ، واتخذ بعضهم منها موقفاً عدائياً ، أو كانت هذه الكلمات موضوع تندر واستهجان ، كالحشكريشة ، والمفشكلة ، والحيامينات ... الخ .

ثانياً — كان من نتيجة فردية الترجمة ان الكلمة نفسها تترجم في شعب واختصاصات مختلفة بكلمات متباعدة جداً وكان الطلاب يلاقون عنتاً شديداً بين أستاذ وآخر وبين سنة وأخرى . فقد كان التحوير والتبديل في الترجمة لا ينتهي

بل يتكرر بين عام وآخر ، حتى أن خريجي أعوام الثلاثين لايفهمون مايكتب في أعوام الأربعين أو الخمسين ، وهكذا اعتمدت كلمات عديدة لمسمى واحد . تماماً في الثلاثين « الخلد » في شعبة و « الهرب » في شعبة ثانية ثم أصبحت « الصفاق والبريطون » وأخيراً البريطوان ... الخ والأمثلة عديدة في هذا المجال .

ثالثاً ـ كانت المحاولات لتعريف العالم العربي والتفاهم والاتفاق معه على التعاون في مشروع موحد ، ولو على مراحل ، كانت هذه المحاولات مترددة خجولة فقد كان بحث موضوع اللغة الطبية على هامش المؤتمرات العربية الطافحة بكل بحث ومن بينها المصطلحات العربية ، ولم يطرح الموضوع على مستوى المسؤولين عن التعليم الجامعي ، وبعيداً عن المصالح الفردية .

رابعاً ـ لم تجر محاولات جدية حتى ولا في مستوى القطر السوري ، أو على الأقل كانت المحاولات غير مثمرة من أجل اقامة سلطة لغوية علمية عربية تعمل متفرغة لوضع لغة العلوم لتسبق أو تواكب على الأقل حركة الترجمة ، وتراقب المطبوعات العلمية ، وتطور قاموساً عربياً يكون مرجعاً للجامعيين العرب . وكذلك لم تجر محاولات لضم العلميين من الفروع الأخرى للتعاون معهم ويتحمل المجمع العلمي العربي بدمشق القسط الأوفى من المسؤولية في هذا المجال .

٥ ـ موضوع التعريب العلمي قضية عربية :

ما استهدفت من عرضي لقضية لغة العلوم اقامة البرهان على صلاح اللغة العربية ولا على قدرة الأمة العربية على القيام بذلك . ولكني أرى في الاسلوب المتبع لتعريب العلوم في دمشق وفي القاهرة وبغداد وسلوك كل من هذه العواصم طريقها الخاص بها ، واتخاذ كل منها أو كل فرد من العاملين في موضوع اللغة الطبية قواعد وضوابط مختلفة أيضاً ، كل ذلك يزيد في الفوضى ويعطي الفرصة لأعداء اللغة العربية .

والقيادات العلمية غير معذورة في خلافها وتخلفها عن ادراك ضرورة التفاهم والاتفاق وفي موضوع يتصل بأسس تطوير البحث العلمي في البلاد العربية وكذلك بقاء الصلات وثيقة بين الجامعيين ومشاكل مجتمعاتهم ...

واذا حاولنا تلخيص نتائج انفراد كل بلد عربي في خطة سيره فانا ننتهي الى ما يلي :

أولاً : مانشاهده اليوم من فوضى وعزلة واصرار وهي الأجواء اللازمة لتشكيك باللغة العربية حتى يبلغ الاستخفاف بانجازات دمشق خلال نصف قرن ان يقرر خبراء اجانب ضرورة التدريس في حلب باللغة الانكليزية ؟!!

لا بد لنا في سورية من ان نعترف بحقيقة اكيدة وهي انه يستحيل على اية دولة عربية لوحدها ان تنفرد بمسؤولية اللغة العلمية الخاصة بمئة مليون من العرب !!!

ثانياً : اقرار مبدأ تعريب العلوم على المستوى العربي والاتفاق على الخطة في ذلك سينهي اعتراضات جميع الفرقاء . فان سبع عشرة جامعة ومئة مليون من السكان قادرون على فرض لغتهم في المجال الدولي وفي تبادل وتنويع الكتب والنشرات وفي تطوير قاموس في جميع الفروع العلمية .

ثالثاً : اللغة العلمية منطلق اساسي وصحيح لترسيخ الايمان القومي وترسيخ ديمقراطية التعليم وتأكيد وحدة الجامعيين ووحدة القيادات وأخيرا وحدة الفكر ووحدة الواقع والمصير .

وأخيراً بدأت سورية تجربة رائدة في تعريب العلوم ويفرض عليها واجب الأمانة في أداء رسالة العروبة ان تستمر بها وتدعو الأخوة العرب في كل اقطارهم لمصلحة الجميع الى عمل منسق بناء .

ان الاستمرار في موقف اللامبالاة واعتبار موضوع لغة العلوم اختصاصاً قطريا محلياً يتصرف به المختصون فردياً وكما يشاؤون سيباعد بيننا اكثر فأكثر وستقوم جامعات في عمان والسعودية والجزائر والمغرب تعتمد لغات أجنبية ومختلفة . واللغة العربية العلمية في القاهرة ستكرسها الأيام مختلفة عن لغات عربية في سورية وبغداد .

وستبقى الظاهرة الرئيسية لروابطنا القومية في تعاطف ادبي او موسيقي او غنائي حتى توجد متفاهمين رابطة اقوى واعمق بوحدة لغتنا العلمية ، لغة تعبر عن مفاهيم ذات اسس عقلانية وفي جميع الفروع العلمية من أجل مصلحة العروبة ومصلحة الانسانية على السواء .

(*) نشكر الأستاذ الدكتور بشير العظمة لاثارته موضوع اللغة العلمية في الجامعات العربية ، واصراحته في عرض المعضلة ، ولحماسه لقيمة ثقافية وتوصية كبيرة من قيمنا العربية المعاصرة .

و (المعرفة) اذ يسرها تقديم هذا الموضوع الخطير ، تدعو الى مائدته المثقفين والجامعيين وعلماء اللغة ، وترجو أن يلقى من تبادل الآراء ووجهات النظر ، ماهو جدير به .

التيارات الجديدة في الفكر الافريقي

اندماج وتكامل بين الاشتراكية والزنوجية

للدكتور جون ڤياني

الترجمة عن الانكليزية

لحنين حاصباني

في أواخر القرن التاسع عشر ، عندما رأى بعض الأميركيين المنحدرين من أصل أفريقي أنهم يعيشون وسط ثقافات ومجتمعات غريبة عنهم ، تأباهم وتنبذهم ، ردوا على ذلك بأن أخذوا يعودون بأنظارهم إلى أفريقيا ويجدون فيها مناط الأمل الوحيد في حياة جديدة متكاملة ؛ فكان يراود نفوسهم حلم محبب اليها عزيز عليها ، وهو أن يأتي يوم يتحرر فيه زنوج أميركا على يدي شعب أفريقيا الحرة . وما زالوا يداعبون هذا الحلم ، ويتعللون بهذه الفكرة ، حتى أطلقوا حركة (أفريقيا الكبرى) كوسيلة تحقيق التضامن بين جميع الشعوب الأفريقية الأصل ،

ولم تكن تلك الحركة فلسفة في نظرهم، بل كانت راية تلتف حولها جميع الشعوب المتحدرة من أصل أفريقي في كل من أفريقيا وأمريكا والهند الغربية ، وكانت ، فوق ذلك ، صيحة الحرب ، بل صيحة التحدي المحمومة يقذفها الزنوج المضطهدون في وجوه مضطهديهم البيض .

وقد أدى ذلك الى أن الزنوج الأمير كيين المختلفين تحدراً واصولاً ألفوا أنفسهم متجمعين متحدين في وجه مجتمع كان قد أبى أن يتقبلهم ويدمجهم فيه . فتناسوا عروقهم المختلفة ، ونزاعاتهم القبلية ، وتغاضوا عن اختلاف لهجاتهم ولغاتهم ، وتفاوت حضاراتهم ، وبدا لهم أن الوضع الطبيعي بالنسبة اليهم هو أن يعتبروا كل السود ، كل الأفريقيين ، أبناء قارة عظيمة واحدة هي افريقيا مهما كثر انقسامها أقطاراً ومناطق ، ومهما جزأتها الحدود التي خططها حكم الأجنبي.

أفريقيـــا الكبرى الموحدة

فلما انعقد مؤتمر (أفريقيا الكبرى) في باريس عام ١٩١٩ ، توجه المشتركون فيه الى الدول التي خرجت ظافرة من الحرب العالمية الأولى ، يطلبون منها وضع تشريع يهب الأفريقيين حماية دولية ، ويرسي المبادىء التي يجدر اتباعها في حكم الشعوب الأفريقية أو المتحدرة من أصل أفريقي . وكان أكثر أعضاء المؤتمر حيوية وحركة وسعياً هو الشاعر الزنجي و. ب. دوبوا . ورغم أن المطالب التي قدمت بزعامته وبوحي منه تبدو لنا الآن معتدلة جداً بالنسبة الى مستوى الحياة الحديثة ، بل بالنسبة الى مطالب زميله ومواطنه (ماركوس غارفي) ، فان هذه المطالب ماتزال تدل على اتجاه تقدمي ، واندفاع الى الأمام نحو تبلور قوي وثابت للأفكار الحديثة .

ثم عقد مؤتمر آخر (لافريقيا الكبرى) وذلك في مانشستر عام ١٩٤٥ . وقد اشترك فيه بصورة رسمية مندوبون عن أفريقيا ، منهم جومو كنياتا وكوامي نكروما وأكتولا (وهو من نيجيريا) . وقد تعلم هؤلاء القادة الشبان الشيء الكثير من تمرسهم السياسي في (هايد بارك) . فاذا أضفنا الى هذا التمرس والمران مواهبهم الخطابية الكبيرة ، وأفكارهم الثورية الداعية الى انهاء حكم الاستعمار فوراً ، أدركنا كيف نجحوا في الهيمنة على المؤتمر وتحويله نحو التركيز على فكرة (أفريقيـــا الكبرى) أكثر من التركيز على قضايا الزنوج بصورة اجمالية .. وعندما صاغوا مطالبهم ومقرراتهم كانوا متأثرين بصورة خاصة بالهند وباكستـــان اللتين كانتا تسيران بسرعة نحو الاستقلال ، ومتأثرين أيضاً بالكفاح البطولي الذي خاضه الشعب في سورية ولبنان للحصول على الاستقلال .

وقد سرت الأفكار التي تقوم عليها حركة (أفريقيا الكبرى) بسرعة مدهشة ، ونشطت نشاطاً فائقاً في جميع اقطار افريقيا . وتحولت في بعضها ، كجنوب أفريقيا والصومال وكينيا وايجريا ، الى مقاومة فعلية بالقوة الجسمية، لان تحقيق التقدم بالوسائل السلمية في هذه البلدان كان أمراً مستحيلاً طالما أن السلطات الاستعمارية لم تفهم - أو تظاهرت بأنها لم تفهم - حاجات شعوب افريقيا ومطامحها ... لكن القوة ، كما قال لنكولن ، قد تتغلب وتنتصر على كل شيء، لكن انتصاراتها لاتعمر طويلاً » . وعلى كل حال ، فان انتصارات أفريقيا ، في كل مكان بالذات فكرة (أفريقيا الكبرى) لم تكن بالاهمية التي كانت متوقعة لها . ثم ان قيام (الاستقلال) في بعض الدول الافريقية كان سبباً في أن تفقد فكرة (أفريقيا الكبرى) القسم الكبير من سحرها وحيويتها . واذا كانت قد نجحت في تحرير شعوب أفريقيا من حكم المستعمرين ، فهي لم تنجح في توحيد هذه الشعوب . ويرجع هذا الفشل أو هذا الضعف الى انها لم تستطع حتى الآن ، لا أن تبتدع ولا أن تتبنى (ايديولوجية) تصلح لان تربط هذه الشعوب ، بعضها ببعض . وفي يومنا هذا ماتزال فكرة (أفريقيا الكبرى) فكرة غير محددة ، موزعة ، ممزقة بين الزنوج كشعب وبين أفريقيا كقارة .

مذهب (نتو)

على أن فكرة (افريقيا الكبرى) ظهرت في أوغندا وقد اكتسبت قوة جديدة . بعد أن كسيت رداء جديداً ، اذ أنها ظهرت هناك باسم جديد هو (مذهب نتو) ولفظة نتو هذه مشتقة من كلمة في لغة (البانتو) ذات دلالة عامة على معنى (الانسان) او (الانسانية). أما المبادىء التي يقوم عليها هذا المذهب فيمكن ايجازها بالعبارات التي كتبتها جماعة من المثقفين في اوغندا :

ليس المهم في نظرنا كيف يصفنا المستعمرون وكيف يصنفوننا . وانما المهم هو موقفنا المشترك ازاء الحياة والثقافة والميراث القومي . وعندما اخترنا اسم (نتو) فانما أردنا أن يمثل هذا اللفظ جماع الفلسفة التي تسري الآن في أفريقيا والتي تتجسد فيها كل الافكار التي تعكس اسلوب الحياة في هذه القارة .. اننا نريد أن ننبذ الاسلوب الاوروبي في تصنيف الأفريقيين الى زنوج وحاميين ونيليين ، وبانتو ، وغير ذلك ، فهذه التقسيمات امور تافهة قليلة المعنى لأنها لاترتكز على نظرة عميقة للفلسفة الأفريقية أو على تحليل دقيق لها .

ولا يظنن أحد بأننا ندعو الى بعث الماضي كما كان تماماً . وانما نحب أن ندمج في حياتنا الحديثة مافي الماضي من قيم وخير ، والهدف الذي نصبو اليه ليس الرجل الافريقي ، ولا هو الأوروبي الاسود ... ان الذي نريده هو : الأفريقي الحديث .

النظرية (الزنوجية)

بينا كان الزنوج الأفريقيون الناطقون

بالانكليزية مشغولين بفكرة (افريقيا الكبرى). كان الناطقون منهم باللغة الفرنسية يتعاونون مع بعض الزعماء من سكان الهند الغربية الفرنسية ويبحثون عن وسائل أخرى تضمن للأفريقي حياة أفضل وكرامة أكثر. لذلك ، وتحقيقاً لأهداف فكرة (أفريقيا الكبرى) ، أعادوا النظر في هذه الفكرة بكاملها ، ووضعوا لها هدفاً جديداً ، وجعلوها أكثر تماسكاً من الجهة المنطقية. فكان من كل ذلك مذهب جديد سمي (بالزنوجية) : وأصبح قوة جديدة في بنيان الأمة الأفريقية العظيمة التي يصبون الى انشائها.

وقد استوحى أصحاب (الزنوجية) روائع (إيمه سيزير Aimèe Cessire) الشاعر والسياسي اللامع من أهل المارتينيك ، كما استوحوا آثار الكاهن الممتاز الأب (بيير تلهار شاردن).

أما سيزير فكان ينادي بحاجة الأفريقيين الى ان يستردوا حقهم في الميراث (الانساني) وقد اعرب عن أمله في أن تستردبلاده شخصيتها وتسترجع قيمتها في المستقبل البعيد ، بفضل أفريقيا. لكنه يضيف قائلا : « ولكن لابد لأفريقيا من أن تسترد شخصيتها اولا وقبل كل شيء ، وتخرج من ظل اوروبا المخيم عليها وتبرهن للدنيا بأسرها أنها هي أيضاً جزء لايتجزأ من الانسانية في انجازاتها وفي مساعيها ومصيرها ».

وأما تلهارد فقد ألهبت كتبه خيال دعاة (الزنوجية) اذ وجدوا فيها راحة لنفوسهم ، ورأوا فيها كرامتهم ترد اليهم. وان آراءه في قيام حضارة عالمية تطفو فوق الحضارات المختلفة وتكون محصلة لهـا ، ودعوته الأفريقيين والأسيويين وسواهم الى المساعدة في بنيان هذه الحضارة الكونية الشاملة ،.. كل هذا ، كان ذا تأثير عميق وشديد على التفكير الأفريقي. قال تلهارد : قبل أن تقوم الثورات الأخيرة التي أيقظت الدنيا من سباتها ، لم تكن عيشة الشعوب الا عيشة سطحية. وكانت دنيا من الطاقات ماتزال نائمة في كل شعب. وأنا أتصور ان هذه القوى الكامنة الراقدة ، في كل وحدة انسانية طبيعية ، في اوروبا وفي آسيا وفي كل مكان ، هي اليوم بالذات ، مستفزة متوثبة ، تسعى الى ان تخرج الى النور. وليس هدفها أن تتعارض وتتقاتل ويفترس بعضها بعضاً ، بل أن تتواصل وتتكاتف ويخصب بعضها بعضاً ، وان قيام « عالم شامل » يتطلب حتماً شعوباً واعية تمام الوعي. فالواجب اذاً هو ايقاظ الطاقات النائمة ، ومحاربة الاراء الخاطئة الحالية ومكافحة الروتينية ، والقضاء على عقد النقص وعلى العقلية القدرية المستسلمة ، وبالاختصار ، فان أفريقيا حرية بأن توقظ وجدانها ليستوعب دعوة (الزنوجية) .... ولكن ماهي هذه (الزنوجية) ؟

من الصعب تحديد معنى الزنوجية ؛ ولعل أحسن تعريف بها ، هو قول الرئيس ليوبولد

سنغور زعيم أصحاب هذه النظرية : انما جماع القيم الحضارية لعالم الزنوج . في قضية حضارية وليست قضية عرقية ، وهي تلزم لوضع ثم حاليا ثم السيطرة عليه وتحويله حتى يصبح مندمجاً في الكون كله ، منسجماً معه تماماً . وهي محصلة عوامل معينة ، اخلاقية وجغرافية ، فقد جعلت جذورها متمكنة في هذه العوامل بأن شددت التركيز على قضية لون البشرة . لكنها سمت من الناحية التاريخية الى ان تسمو فوق هذه العوامل كما تسمو الروح فوق المادة التي تنبثق منها » .

وهكذا نرى أن سنغور لم يكتف بان أعطى مفهوم (الزنوجية) سمة وعمقاً بل استطاع ان يعبر عنها تعبيراً واضحاً ومفهوماً .

الفلسفة الافريقية :

الوجودية والانسانية

ولكي يستطيع المرء أن يفهم فلسفة (الزنوجية) والآراء المتعلقة بتكاملها ودعمها مع الاشتراكية لاقامة المجتمع الجديد الذي تريد افريقيا اقامته ، ينبغي عليه ان يلم ببعض التيارات الفكرية في افريقيا وبنية المجتمع التقليدي فيها .

ولنقل اولا ان الفلسفة الافريقية التقليدية هي مثل الفلسفة الاشتراكية أي انها وجودية وانسانية ، وانما ، بالاضافة الى ذلك ، تشتمل قيماً روحية متأصلة ، لان العالم في نظر الافريقي عالم حي ، مادته وتبعثه هما (القوى الحية) ، أو (قوى الأرواح) . (هذا والمقصود بالافريقي عند الزنوجيين هو الزنجي الافريقي دون سواه) .

والمجتمع الافريقي مجتمع تعاوني جماعي ، ولعل ان وصفه بالمجتمع (الكومونى) أقرب الى الحقيقة وهو تشارك واندماج أكثر منه تجمع أفراد وتقاربهم . وهو يحفل بالجماعة أكثر مما يحفل بالفرد ، وبالتعاون والتضامن أكثر من نشاطات الافراد وحاجاتهم ، وبتكامل الاشخاص بعضهم ببعض أكثر من استقلال الافراد بعضهم لبعض . فالمجتمع الافريقي هو الجماعة لا للافراد .

ولا نقصد من ذلك أنه يغفل الافراد ويهملهم وانما نقصد أنه يبني كيانه التضامن على نشاط الجماعة ككل . والعضو في المجتمع الاوروبي هو الفرد ، وهو فرد يسعى الى التميز عن سواه ، وتأكيد اصالته المتميزة عن اصالة غيره . أما العضو في المجتمع الافريقي فهو يطالب أيضاً باستقلاله وبتأكيد ذاته ككائن موجود وحي ، لكنه يشعر ، ويؤمن ، بانه لايستطيع تطوير طاقاته ، وترسيخ ذاته ، الا ضمن مجتمع يعيش فيه متحداً مع سائر الناس ، بل مع جميع الكائنات في الكون جميعه : الله ، والاشجار ، والناس ، والحيوانات .

الأساس الثقافي لكيان الأمة

ان الافريقي ليس مجرداً من منطقة يعيش فيها أو من لون يصطبغ به أو من تاريخ أو موطن أو حضارة. فهو انسان. وهو جار لكل الافريقيين الآخرين ؛ بل جار لكل شعوب العالم، وهو محدد تحديداً دقيقاً في المكان والزمان. وهو، الى ذلك، انسان ذاق الذل عصوراً وادهاراً، وذله في غربه وجوعه أقل ايلاماً من ذله في لونه وكرامته. لذلك كان حتماً على الافريقيين ان ينسلخوا من ذلهم ومن كونهم ملكاً لغيرهم ؛ وان يتحرروا وينطلقوا الى بناء مجتمع جديد. فلا بد من التحرر اولاً. والتحرر اقتصادي واجتماعي وثقافي ؛ لكن التحرر الثقافي هو الذي يمهد السبيل للآخرين.

فلا يمكن لشخصية شعب ما أن تزدهر ان لم تنم فيه زهور الحرية. وليس للحرية السياسية كيان ان لم توطد دعائمها ببعض الحريات الخاصة فلا حرية مطلقاً حيث تخنق شخصيـــة المرء وأصالته. ولا استقلال ابداً اذا كان المرء يعيش في التبعية. وذلك هو مايبرر كفاح الافريقيين ضد مستعمريهم. وان القائلين بالزنوجية انما يبغون ان يضمنوا اساساً ثقافياً متحرراً لتقوم عليه امتهم المتبدة، وذلك بتحديد الميزات الاساسية لحضارة الافريقية التي ستمالي النهضة والابداعات متقلة بما جامعها ومازجها من الحضارة العربيـــة والاوروبية، وبخاصة الفرنسية منها.

الطرائق والأهداف

كان كثيرون من دعاة الزنوجية اعضاء في الحزب الاشتراكي الفرنسي. ولم يختاروا الانضمام الى هذا الحزب بالذات على اساس العقيدة وحدها، بل انضموا اليه بسبب حاجتهم للدعم من قبل اكبر الاحزاب السياسية التي تعطف على الافريقيين. فكان، لذلك، اكثر استعداداً من سواه لتفهم مشاكل افريقية وحاجاتها. إلا إن الدعم السياسي لايكون خالياً تماماً من الغرض، وسرعان ماتنبه الساسة الافريقيون الى انهم يلعب بهم كأحجار الشطرنج على رقعة اللعبة البرلمانية الفرنسية. فتلاشت آمالهم السابقة في أن يكون الحزب الاشتراكي الفرنسي بطل قضيتهم وعوناً لهم لنوال الاستقلال، وعرفوا ان هذا الحزب وجميع الاحزاب والاجنحة، حتى اليسارية منها هي فرنسية اولاً، لأنها لتنقد كفيرها، ولو بصورة غير مباشرة من الاستعمار والاستغلال الفرنسيين ؛ ومن السذاجة المتناهية ان يتوقع الانسان من احزاب فرنسية ان تضحي مصالح وطنها في سبيل مصالح مستعمراته وراء البحار.

والخيبة الكبرى التي منى بها الزعماء الافريقيون فأدى ذلك بهم الى انسحابهم من الحزب الاشتراكي الفرنسي، وهي فشل هذا الحزب في فهم القضايا الحقيقية التي تواجه شعوب افريقيا ؛ فحاول ان يطبق على افريقيا خططاً وآراء انما رسمت من اجل اوروبا بالذات ... وأحنق ذلك الزعماء الافريقيين الذين رأوا ان لا مندوحة لهم من

الانفصال عن الحزب ، ومن ان يباشروا بأنفسهم حقائق بلادهم ، لانهم دون سواهم قادرون على وضع حلول بناءة لمشاكلهم ، اذ انهم يفهمون اكثر من سواهم اوضاع وطنهم .

ثم ان الواقع الأفريقي مشابه تماماً لواقع كثير من المناطق المتطورة الأخرى ، وهي مناطق الفلاحين أو البدو الرحل ، أو مناطق الاقطاع .. لكنها كلها ظلت تعيش تقليدياً بدون طبقات . واذا كان هناك فئات من المجتمع تتقاتل على النفوذ ، فليست هذه الفئات (طبقات) بالمعنى الماركسي ، انه ليس في المجتمع الأفريقي أنانية ، ولا يعبد فيه المال والثراء ، لأنه مجتمع ديني في جوهره .

واذا فالمجتمع الأفريقي يختلف عن كل مجتمع سواه ، وليست الأوضاع فيه مماثلة للأوضاع في غيره ، ولو كان ثمة بعض التشابه أحياناً ، وطالما الأمر كذلك فبديهي ألا تكون الأهداف ولا الطرائق واحدة في كل مكان . ففي فرنسا مثلاً ، وفي غيرها من أقطار اوروبا ، تكمن القضية الاجتماعية في القضاء على عدم المساواة الناشيء عن وجود طبقات مختلفة وفي افريقيا تكمن القضية الاجتماعية في القضاء على عدم المساواة ايضاً ، لكنه ، هنا ، ناشيء عن الاستعمار والسيطرة السياسية الأجنبية . لذلك لايمكن ان تكون الطرائق واحدة في فرنسه أو اوربا وفي افريقيا ولما قام الاستقلال في عام ١٩٦٠ ، اتاح لزعماء الدول الناطقة بالفرنسية أن يعالجوا مشاكلهم الخاصة بأساليبهم وطرائقهم الخاصة ، لا بتلك المتبعة في فرنسة .

ولم يشأ (الزنوجيون) استيراد تنظيمات وعقائد غريبة عن واقع الارض الافريقية ، بل وجهوا جهودهم نحو وضع عقيدة ، أو على الاقل وضع اسلوب سياسي خاص لتحليل واقعهم وتطويره . ولما تحققت لهم الحرية السياسية . صرفوا همهم الى اختيار أحسن الاساليب الاوروبية وأكثرها ملائمة لاوضاعهم وأعظمها نجاعة في تحليل واقعهم وتطوير حالهم . فأخذوا يستعيرون من اوروبا وغيرها أفضل قيمها ، وأحسن نظمها وأقوم أساليبها ، على أن تكون موافقة لبلادهم ملائمة لاخصاب حضارتهم التقليدية ، وعلى ان يستبقوا كل مايمكن استبقاؤه من القيم والنظم والاساليب الافريقية .

ومن كل هذا ، من مجموع ما اثمرته افريقيا وما قدمته لها اوروبا ، يأمل هؤلاء الزعماء ان يبدعوا مزيجاً متماسكاً حيوياً ، مناسباً لافريقيا وللقرن العشرين ، بل مناسباً للبشرية كلها .

الطرائق وفكرة الموضوعية

والزنوجيون ، في سيرهم الحثيث نحو بناء مجتمع جديد ، يحرصون على المحافظة على مايسمونه : الطريقة الزنجية الافريقية في المعرفة ويحاولون ، مع ذلك ، ان يدخلوا فيها ويمزجوا معها المنطق الكلاسيكي ، والجدل الماركسي ، والاساليب والطرائق الجديدة التي عرفها القرن العشرون .

ونجد خير عرض لكل هذا في كتاب لـ (بيكون) اسمه (المشهد العام للأفكار المعاصرة) .

ففي هذا الكتاب الممتع يقارن (بيكون) بين الطريقة الغربية الكلاسيكية ، وهي طريقة « الموضوعية » المعروفة باسم (الواقعية البصرية) وبين الطريقة الحديثة الفنية والعلمية والفلسفية ، والتي يقول عنها (الزنوجيون) انها هي بالذات طريقة الفلسفة الافريقية التقليدية .

وقد قال بيكون : « حتى القرن العشرين هذا ، ظل الاوروبي يفصل نفسه عن الشيء لكي يستطيع معرفته ، انه يبعده عنه ويجعله على مسافة منه . والتقليد الفلسفي الاوروبي لايزال يتطلب وجود هذا التباعد بين الذات والموضوع لتحقيق المعرفة . والفكر الاوروبي لايزال يستبعد امكان حصول المعرفة اذا لم ينسحب من حيث تختلط الذات والموضوع ، فهو لايريد (للذات) أن تعانق (الموضوع) وتتصل به . بل يؤثر للذات أن تنأى عنه لتتأمل فيه فكريا .

ذلكم هو مايميز الطريقةالتقليدية الاوروبية . أما الطريقة الجديدة التي نشأت عن الثورات العلمية الجديدة (كالنسبية ، والميكانيك الموجية ، والكواتية ، ونظرية عدم الاتصال ، وعدم التحديدوالتعيين)وعن الثورات الفلسفيةالجديدة (كالوجودية ،والظواهرية ،ونظريةللهار)فيقول (بيكون)بصددها مايلي: ونحن نشهداليوم اعادة نظر شاملة لفكرة (الموضوعية) برمتها. فالباحث في هذه الايام لاينفصل عن بحثه بل يتداخل فيه بحيث انه لايوضحه ويجلوه الا اذا ستره بشخصه وغشاه بذاته . وان نور المعرفة لم يعد الآن ومضة ثابتة ناتجة من نظرة الذات الى الموضوع، دون ان تؤثر فيه أو يؤثر هو فيها ... ان نور المعرفة هو الآن ومضة خافقـة تنبعث من تعانقها ، فهو وهج تماسكها واندماجهما . والفلسفة الحديثة ترمي الى ان تكون معاناة وتجربة ، بل الى تحقيق وحدة تامة بين الحقيقة وموضوع التجربة . أما في العلوم الانسانية فالشرح والادراك شيئان متناقضان متعارضان. لأن ادراك المعنى في ظاهرة انسانية لايكون الا بمعاناته في داخل نفس المدرك » .

ورغبة في شرح ملاحظات (بيكون) بالفاظ ومصطلحات من الفلسفة الافريقيـة ، يقول (الزنوجيون) ان معرفة الشيء لاتتم برؤيته وتحليله وتشريحه ووزنه حتى لو كان المرء يملك ادق الاجهزة . ولابد لمن يريدان يعرف الشيء معرفة كاملة أن يزيد على كل ذلك ، أن يلمسه ويتحراه ، وان يلج اليه ويعرفه من داخله ، اذا صح هذا التعبير ، وان يمسك به ، ويقلبه ، ويستعمله . ولمعرفة ظاهرة انسانية أو حدث انساني ، اجتماعياً كان ام نفسياً ، لايجدي بعد الآن تحريه بالاحصائياتوالبيانات . وانما يجب ان نعيشه فيذواتنا ، ان نعانيه في نفوسنا. كما يفعل الرجل الابيض الذي يسعى الى ادراك وضـع الزنوج في اميركا ، فيعمد الى تسويد بشرته بصباغ كيماوي ويعمل ماسح احذية (مثلا) .

وهذه الطريقة الجديدة في المعرفة بواسطة المقارنةوالمعاناة والحدس، هذهالطريقة الحديثة ،

ينظر اليها على انها الاسلوب الزنجي والافريقي بالذات .

. . .

هذا . وبعد ان عرضنا المميزات الاساسية للنظرية الزنوجية ، يمكننا ان نباشر دراسة نوع الاشتراكية التي يريد أنصار هذه النظرية ان يتبنوها ويدمجوها في عقيدتهم من اجل بناء المجتمع الجديد .

. . .

الاشتراكية في المجتمع الجديد

ولما كان (الزنوجيون) حريصين على القيم التقليدية ، كالعقلية الجماعية والعقائد الدينية ، لم يكن لهم بد من ابتداع وتطوير اشتراكية جديدة لتكون منفتحة وانسانية وديموقراطية ، وقابلة لاختيار وتطبيق افضل ما يمكن ان يقدم اليها ، والاشتراكية التي يريدونها ، هي اشتراكية تجمع مالم يؤلف ان يجتمع ، فهي تريد ان تشمل اولا الآراء الفرنسية الصوفية الوهمية (الاوتوبية) بما فيها من تعاليم وافكار اشتراكية ، و(الاخلاقية) التابعة منها (كأفكار سان سيمون وفورييه وبرودون ولوبلان وكثيرين غيرهم) ، وان تشمل ثانياً الماركسية بجدلها ومفهومها الاقتصادي والانساني ، وتشمل ثالثـــا آراء المفكرين المعاصرين الذين اسهموا في تطوير الفكر الاشتراكي .

ومعنى هذا القول ان الماركسية في نظر (الزنوجيين) ينبغي لها ان تعاني عملية غربلة واصطفاء وتطوير ، فلا يستبقى منها إلا نظرية اقتصادية بحتة وإلا معلومات تكنيكية ، على ألا يتعارض شيء من ذلك مع تعاليم الدين المسيحي والدين الاسلامي .

وهكذا . فان (الزنوجيين) قد اختاروا ضرباً من الاشتراكية الديموقراطية ، أدخلوها في صميم عقيدتهم . وهي تنسجم مع التيار الاخلاقي القديم الخاص بالاشتراكيين الفرنسيين وتتلاءم مع تعاليم المسيحية والاسلام ... انها اشتراكية افريقية .

. . .

وبعدما فرغوا من كل هذا راحوا يتكلمون عن ضرورة اعادة بناء (اتحاد افريقيا الغربية الفرنسية) ، لتحقيق مجتمعهم الجديد ، فقد تخلوا عن اهدافهم السابقة الطموحة الرامية الى بناء (اتحاد دول افريقيا) . وقنعوا حالياً باعادة ذلك الاتحاد القديم على اسس جديدة ، علماً بأن اكثر القائلين بذلك إنما قدموا من (مالي) والسنغال . وعلى كل حال فالظاهر ان انفراط اتحاد مالي لم يكن خطوة كبيرة الى الوراء بل كان ذا أثر بعد في التوسع الذي ادى الى قيام اتحاد أوسع اذ انه يضم ١٢ دولة افريقية (وعددها اليوم ١٣) تربط بينهـــا الثقافة والاقتصاد ، ويربط بينها ايضا الجوار والقرب عدا دولتين منها .

ويعمل الآن هؤلاء الزعماء في تشييد ودعم هذا الاتحاد بين بعض دول افريقيا ومدغشقر ، وبخلاف ماجرى عند تشكيل اتحاد (مالي)

السابق اذ اتصف بالعجلة والتسرع ، فان العملية الحالية تتصف بالحيطة والاناة والروية ، فلن تتم في اسابيع او أشهر ، وقد تستغرق سنوات كاملة لوضع دستور مثالي ، والتأليف بين الاراء المتباعدة والقضاء على الخلافات . ولا بد لها من عمليات التحليل والتركيب الدقيقين ، والمناقشات الطويلة ، والمداولات المستمرة ، لعقد سلسلة من المعاهدات والاتفاقات .

الخلاصة

والخلاصة أن المرء قد يميـل الى استبعاد النظرية الزنوجية على أنها نظرية صوفية عاطفية وقد ينعت زعمـاءها بأنهم رجال أوهام (اوتوبيون) ، وقد يعزى اليهم ، بل يؤخذ عليهم تحاليلهم التجريدية ، وصورهم الخيالية ، وتشابيهم ومجازاتهم ، وطوباتهم المتناقضة أحياناً ، وكلها تبدو غير واقعية ، فتطرح حالياً على أنها مجرد خيالات وأوهام .

وهذه الأقوال لاتخلو من الحقيقة ، لأن في (الزنوجية) مزيجاً غريبا من الصوفيـة والعاطفية والخيال والتصور .

بيد أن هذه الصفات هي الميزات الأساسية للزنوجية من حيث أنها فلسفة فقط . أما في غير ذلك ، فليس من شك في أن الطرائق التي تتبعها الزنوجية في التحري والتكامل والاندماج هي أكثر تماسكاً وأرفع قيمة من كل فلسفة أخرى ظهرت في القارة الافريقية .

والزنوجية هي بلا ريب اسهام كبير قوي الدلالة ، تشترك به افريقيا في مجموع الفلسفة الحديثة وبخاصة الفلسفة الاشتراكية . وان قيمها الروحية وتقاليدها في المساواة ، ونفسيتها الاجتماعية ، قد أضافت أبعاداً جديدة الى الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، في هذا القرن .

وفي الحقيقة، فان تشييد هذه الحضارة الجديدة في القارة الأفريقية سيضيف لوناً جديداً زاهياً الى الوان قوس قزح ، حسب تعبير أحد الشعراء الأفريقيين . وسيبرهن للعالم كله ، أن أفريقيا وهي مهد الجنس البشري ، تؤدي نصيبها كاملاً في بناء حضارة عالمية كونية .



السوق العربية المشتركة

للدكتور هشام متولي

- المفهوم التاريخي للسوق العربية المشتركة .
- مفهوم الاندماج الاقتصادي واشكاله ودرجاته .
- ظاهرة التكتلات الاقتصادية عقب الحرب الثانية .
- مفهوم الوحدة الاقتصادية العربية والسوق العربية المشتركة على ضوء مفهوم الاندماج وظاهرة التكتلات .

نظرة تاريخية :

لن نحاول هنا ان نستقرىء الماضي بمقاييس الحاضر . ولكننا اذا كنا سنذكر التاريخ ، فلاستكمال صورة عن هذه الرقعة الجغرافية التي نحيا تربتها ، والتي اصطلح على تسميتها بالشرق الأوسط ، من جهة ، ولأن الغاية التي نسعى اليها ، الا وهي خلق سوق اقتصادية عربية واحدة ، كانت متحققة على الصعيد الجغرافي لهذه المنطقة ، من جهة ثانية .

ذكر عن الكلبي (١) انه قال : كانت قريش تعودت رحلتين : احداهما في الشتاء الى اليمن ، والأخرى في الصيف الى الشام . وفي ذلك تقول الآية القرآنية « لايلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف » ويذكر الكلبي ايضاً ان تجارة العرب لم تكن لتعدو مكة ، حتى ركب هاشم بن مناف الى الشام وقامت صلات تجارية مع الشام ، وخرج من بعده عبدالمطلب الى اليمن وامتدت التجارة الى اليمن ، وخرج من بعده عبد شمس الى ملك الحبشة وامتدت اليها تجارة العرب ، وخرج من بعده نوفل الى العراق ، وامتدت تجارة العرب الى العراق .

ان تعداد الشواهد التاريخية لا يضيف لجوهر ما نود قوله شيئاً : فقد كانت هناك سوق عربية واحدة لا تعرف الحدود السياسية والاقتصادية ، بمعنى انه لم تكن هناك جمارك ، وكانت حرية انتقال السلع والاموال والاشخاص مضمونة . وبكلمة واحدة ، كانت هناك « مواطنة اقتصادية » على صعيد الوطن العربي . وكان النشاط الاقتصادي على درجة من الاهمية في هذه السوق ، لدرجة قال معها المستشرق روبرت لوبز : « ومهما يكن الأمر فان العلاقات مع الشرق جعلت من الجو الراكد بأوربا جواً غنياً واصبحت المحرك الاقتصادي الوحيد الذي يستطيع ان يهز الغرب ويقلبه رأساً على عقب » (٢) .

نذكر ذلك دون ان نجهل او نتجاهل ان ما هو معروف اليوم لم يكن

---

(١) انظر Muhammad Hamidullah : Les rapports économico - Diplomatiques de la Mecque pré-Islamique. Mélanges Louis Massignon. Tome 11, P. 293 - 311, Damas 1957.

(٢) انظر « التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب » بحوث في التاريخ الاقتصادي ترجمة توفيق اسكندر ، ص ١٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦١ .

معلوما بالامس اذا فان ما نذكره ليس فرضاً للحاضر على الماضي ، وانما تثبيتاً لحقيقة كانت قائمة ، واننا نسعى اليوم لاستعادتها بالطرق العلمية المنظمة الحديثة وبذلك يتغذى المستقبل من روح الماضي .

ظلت هذه السوق الواحدة على صعيد المنطقة العربية بكاملها سائدة حتى تغيرت معالمها من جراء نتائج الحرب العالمية الأولى . وحل مع هذه النتائج التمزق محل التوحد ، وكان الاحتلال ورسمت الحدود على اساس مصالح الفئات الغازية وهكذا ظهرت لاول مرة المراكز الجمركية فيما بين الاقطار العربية ، وتقيد انتقال السلع والاموال والأشخاص ، فيما بين هذه الأقطار أيضاً .

عرفت فترة مابين الحربين توقا حارا من قبل الاقطار العربية الممزقة الى العودة الى ماكانت عليه الامور في الماضي ، الى مانسميه بلغة اليوم الوحدة الشاملة . وكان اللون السياسي هو الطابع الغالب في الواقع على هذا التوق . ولعل السبب في عدم الالتفات الى الامور الاقتصادية في ذلك الحين كان يعود بجزء منه الى ان الاعفاء الجمركي الكامل للسلع الوطنية كان قائما بين الوحدة الاقتصادية السورية — اللبنانية من جهة ، وكل من شرق الاردن وفلسطين من جهة ثانية .(١) والحق ان هذا التعليل ليس كافيا ، وانما بدأ الاهتمام بالشؤون الاقتصادية كأثر من آثار الحرب العالمية الثانية على هذه المنطقة ، والمضاعفات التي نشأت عن هذه الآثار . فقد بدأ الامر تقريبا بالقطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان ، وظهر منذ ذلك الوقت اختلاف وجهات النظر حول النظام الاقتصادي الذي يفضل حكم

---

(١) الدكتور برهان الدجاني : بعض اوجه العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية القاهرة ١٩٦٢ .

كل قطر تبنيه ، وإذا اضفنا الى ذلك زيادة الحاجات الاقتصادية بين البلدان العربية حيث اخذ المواطنون يشعرون بثقل قيود لم يكونوا ليشعروا بها في الماضي ، يمكننا ان نقول ان « وعيا » اقتصاديا اخذ يتشكل بعد الحرب الثانية ، وان هذا الوعي الاقتصادي اخذ يرتبط بالوعي السياسي ، بحيث اصبحت المطالبة بالوحدة تتضمن الناحية الاقتصادية الى جانب السياسية . ولن نتعرض هنا لتعداد الاتفاقات الاقتصادية وذكر تواريخها ، لان البحث المتعلق « بالسوق العربية المشتركة والجامعة العربية » الوارد في جدول ابحاث هذا المؤتمر سيتناول الموضوع بالتفصيل .

اما من الناحية الاقتصادية البحتة ، فان مظاهر ارتباط الفكرة الاقتصادية بالسياسة والمطالبة بالوحدة على هذا الاساس ، قد تجلت فيما يلي :

١ — **النمو الاقتصادي القطري وزيادة التبادل التجاري بين الاقطار العربية .**

٢ — **ازدياد الاتفاقات الاقتصادية فيما بين الدول العربية داخل الجامعة العربية وخارجها .**

٣ — **التحرر السياسي والتخلف الاقتصادي والاجتماعي .**

٤ — **اختلاف نماذج التنمية الاقتصادية بين هذه الاقطار من حيث قيامها على اساس المشروع الفردي تارة والتخطيط المركزي تارة اخرى .**

ادى التفاعل السياسي — الاقتصادي الذي تم في منطقة الشرق العربي الى ان تتخذ اللجنة السياسية التابعة للجامعة العربية خلال فترة اجتماعها في دمشق

في ٢٢/٥/١٩٥٦ قرارا بتأليف لجنة من الخبراء العرب تتولى اعداد مشروع كامل للوحدة الاقتصادية والخطوات الواجب اتباعها من اجل تحقيقها . وبعد اجتماعات عدة انتهى الامر بان وافقت اثنتا عشرة دولة عربية على مشروع اتفاقية الوحدة الاقتصادية بين دول الجامعة العربية بتاريخ ٢/٦/١٩٥٧ ، اي بعد التوقيع على معاهدة روما التي تم بموجبها انشاء السوق الاوروبية المشتركة بحوالي الشهرين (وقعت معاهدة روما في ٢٥/٣/١٩٥٧) . واذا كان من غير المشكوك فيه ان الاحداث السياسية ، وخاصة ازمة السويس ، كان لها اكبر الاثر في تسهيل التوقيع على معاهدة روما من قبل فرنسا كما يقول الاستاذ اندريه مارشال [١] ، فلماذا لانذهب ايضا المذهب ذاته ، مادام يعكس الواقع ، ونقول ان الاحداث السياسية التي تعرضت لها المنطقة على وجه العموم ، وازمة السويس على وجه الخصوص ، جعلت الدول العربية تسرع في التوقيع على هذه الاتفاقية !

لم يرد ذكر للسوق العربية المشتركة في هذه الاتفاقية [٢] . ولكن مجلس الوحدة الاقتصادية الذي تشكل من البلدان التي اودعت وثيقة تصديق الاتفاقية لدى الامانة العامة لجامعة الدول العربية والتي اعتبرت هذه الاتفاقية نافذة في حقها فقط [٣] ،

---

(١) انظر : André Marchal : l'Europe Solidaire . Paris , 1964 . P. 328

(٢) انظر نص الاتفاقية . من مطبوعات جامعة الدول العربية . القاهرة ١٩٦٢ .

(٣) نصت المادة السادسة عشرة من الفصل الثالث ، احكام ختامية ، على مايلي : « يصدق على هذه الاتفاقية من الدول الموقعة عليها طبقاً لنظمها الدستورية في اقرب وقت ممكن وتودع وثائق التصديق لدى الامانة العامة لجامعة الدول العربية التي تعد محضراً بايداع وثيقة تصديق كل دولة وتبلغه للدول المتعاقدة الاخرى » . ونصت المادة العشرون على انه : « تصبح هذه الاتفاقية نافذة المفعول بعد ثلاثة اشهر من ايداع وثائق تصديق ثلاثة من الدول الموقعة عليها وتسري في شأن كل من الدول الاخرى بعد شهر من تاريخ ايداع وثيقة تصديقها او انضمامها » وكانت الدول التي اودعت وثائق التصديق لدى الامانة العامة لجامعة الدول العربية هي : الاردن ، العراق ، سورية ، الكويت ، والجمهورية المتحدة .

اجتمع لأول مرة في ٣ / ٦ / ١٩٦٣ ، وقرر وضع خطة بحث ، وتشكيل لجان وتحديد توقيت زمني لاتباع منهج عملي في تنفيذ اتفاقية الوحدة الاقتصادية (١) والقيام بواسطة اللجان المختصة بدراسة المواضيع التالية :

١ — السوق العربية المشتركة .

٢ — حرية انتقال الاشخاص والعمل بين الدول الاعضاء .

٣ — ممارسة النشاط الاقتصادي في الدول الاعضاء .

٤ — التنسيق والتكامل الصناعي والاقتصادي .

٥ — تنسيق السياسة النقدية والمالية .

فالسوق العربية المشتركة تمثل اذن الفقرة الأولى من قرار مجلس الوحدة

---

(١) نصت الفقرة الاولى من المادة الرابعة عشرة على مايلي : « يتم تنفيذ هذه الاتفاقية على مراحل بما امكن من السرعة » . وجاء ثانيا من الملحق الخاص بالخطوات اللازمة لتحقيق الوحدة الاقتصادية العربية ، وهو المتعلق بوضع الفقرة السابقة موضع التنفيذ مايلي : « يتولى هذا المجلس (مجلس الوحدة الاقتصادية) خلال مرحلة تمهيدية لاتجاوز خمس سنوات دراسة الخطوات اللازمة لتنسيق السياسة الاقتصادية والمالية والاجتماعية وتحقيق الاهداف التالية :

١ — حرية انتقال الاشخاص والعمل والاستخدام والاقامة والتملك والايصاء والارث .

٢ — اطلاق حرية نقل بضائع الترانزيت اطلاقاً تاماً بدون قيد او شرط او تمييز بواسطة النقل من ناحية نوعها او جنسيتها .

٣ — تسهيل تبادل البضائع والمنتجات العربية .

٤ — حرية ممارسة النشاط الاقتصادي مع مراعاة عدم الاضرار بمصالح بعض بلدان الاطراف المتعاقدة في هذه المرحلة .

٥ — حرية استعمال المرافىء والمطارات المدنية بما يضمن تنشيطها وازدهارها .

ويجوز للمجلس ان يوصي حكومات الاطراف المتعاقدة عند الاقتضاء بمد هذه المرحلة لاتجاوز خمس سنوات اخرى .

الاقتصادية في اجتماعه الأول . والواقع أن المجلس المذكور قرر منذ اجتماعه الأول « حرق المراحل » . ذلك ان اتفاقية الوحدة اعطته فترة خمس سنوات للقيام بالدراسات اللازمة لتنسيق السياسة الاقتصادية والمالية والاجتماعية ، وما يتعلق باطلاق حرية انتقال السلع والأموال والأشخاص ، وأضاف ملحق الاتفاقية انه يجوز للمجلس أن يوصي الحكومات الأطراف في اتفاقية الوحدة تمديد هذه الفترة خمس سنوات أخرى . ولكن المجلس قرر « حرق المراحل » كما ذكرنا . وحدد فترة شهر واحد ، تموز من عام ١٩٦٤ ، لوضع مشروع اتفاقية للسوق العربية المشتركة ، على أن يتم عرضها خلال شهر آب على مجلس الوحدة واقرارها والبدء بتنفيذها اعتبارا من أول عام ١٩٦٥ . وهذا ماتم بالفعل .

ذلك هو باختصار التطور التاريخي لمفهوم السوق العربية المشتركة .وقبل أن ننتقل الى بحث مفهوم هذه السوق من حيث ارتباطه بالأوضاع القائمة في العالم العربي ، ومدى توافقه أو عدم اتفاقه معها ، نرى من الضروري التعرض بقدر مايمكن من الايجاز الى المفهوم الاقتصادي للسوق المشتركة ، ومبررات قيامها ، على اعتبار ان هذا الوطن العربي يشكل في هذا المجال جزءاً من التطورات التي يتعرض لها العالم بأسره .

ان مراجعة نصوص اتفاقية الوحدة الاقتصادية بين دول الجامعة العربية تفيدنا أن النية هي اقامة وحدة اقتصادية كاملة بين الدول الموقعة على الاتفاقية . وما قرار انشاء السوق العربية المشتركة الا عبارة عن مرحلة تمهيدية لبلوغ هذه الوحدة التي لابد وأن تؤدي ، اذا تابعنا منطق سير الأحداث ، الى الاندمـــــاج الاقتصادي الكامل .

مفهوم الاندماج الاقتصادي في الفكر الاقتصادي

آ – في ظل النظام الرأسمالي

ولا بد هنا من القاء نظرة خاطفة على مفهوم الاندماج الاقتصادي وأشكاله ودرجاته .

ان مراجعة كتب الاقتصاد السياسي الدرسية تجعلنا نفهم من كلمة Integration العملية التقنية للاتمام أو التمركز الصناعي الشاقولي . ولكن هذه الكلمة استعملت بمعنى آخر في مجال التعاون الاقتصادي الدولي بمختلف درجاته . وهكذا فان بعض الاقتصاديين تحدث عن «التفكك» او التصدع Désintégration المتزايد للاقتصاد العالمي خلال فترة مابين الحربين* ان مناقشة هذه الفكرة تفترض ان نظاما يتسم بطابع الاندماج كان قائماً قبل ذلك . ومع ذلك ظل مضمون هذه الكلمة غامضاً في الأدب الاقتصادي العالمي ، كتب الاستاذ فرانسوا بيرو يقول : « في ضمن تسلسل الكلمات الغامضة وغير الجذابة التي نستعملها في مناقشاتنا الاقتصادية ، يحتل تعبير الاندماج مركزاً معتبراً » (١) والواقع أن المعنى الأدبي للكلمة يوحي بما يلي : تجميع أو اتحاد طرفين أو أكثر لتشكيل عنصر أو شيء واحد . ولكن مثل هذا التعريف لايمكن أن يرضي الباحث الاقتصادي ، كما يقول الاستاذ اندريه مارشال . لذلك لابد من النظر الى الموضوع من وجهتي نظر : هل يتم الاندماج عن طريق الناحية السكونية المعتمدة على عفوية قانون السوق ، أم يتم عن طريق الناحية التطورية المعتمدة على تنظيم السوق والتحكم في

---

* (المرنة) تقترح ترجمة intégration بكلمة (تكامل) وترجمة désintégration بكلمة (تنابذ) .

(١) François perroux : L' Europe sans rivages Paris, 1954. P. 419

قانون العرض والطلب ، وتتدرج الناحية التطورية هذه ، أو التحكمية بقانون السوق ، من مرحلة تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية عن طريق تنظيمها أو ، كما يقول أندريه فيليب André Philippe « يمكن للسوق أن تمتد وتتسع ليس عن طريق جعلها حرة ، بل عن طريق تنظيمها (١) » الى مرحلة التخطيط المركزي الكامل من النموذج الاشتراكي السوفييتي .

١ — مدرسة الاقتصاد الحر :

يمكن اعتبار ماكتبه ريمون أرون Raymond Aron من أنه « يمكن اعتبار بلدين اقتصاديين قد حققا أعلى درجات الاندماج الاقتصادي عندما يكون التعامل بين فردين مقيم كل منهما في هذا البلد أو ذاك مشابهاً كثيراً للتعامل بين فردين مقيمين في البلد ذاته (٢) » .

[فالاندماج بالنسبة لأنصار الاقتصاد الحر هو عبارة عن السير أو التشكل العفوي بين الاقتصاديات القائمة ، وعلى أساس قانون السوق . فالعملية اذن هي عودة لفكرة التبادل — الحر Zone Libre - échange التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر الى ماقبل الحرب الأولى .]

فالتكامل الاقتصادي الأوربي بنظر W. Röpke مثلا هو محاولة علاج لحالة التصدع ، أو التفكك التي تمرض لها هذا الاقتصاد خلال فترة مابعد ١٩١٤ ، هذه الحالة التي أدت الى القضاء على التكامل الذي كان قائما بين الاقتصاديات الوطنية (٣) .

(١) هذا الرأي لأندريه فيليب مذكور في كتاب مارشال الذي سبق ذكره وكتاب بالاسا الذي سنأتي على ذكره .

(٢) مذكور في كتاب مارشال السابق الذكر . ص ١٨٥ .

(٣) ورد هذا الرأي عن مصدر باللغة الألمانية في كتاب مارشال المذكور وكتاب بالاسا الذي سنشير اليه .

أما الاقتصاديان M. Allais و A. Heilperin فيتمثلان السير نحو الاندماج الاقتصادي بتحرير التجارة والدفع ، وان كانا يوافقان على ادخال بعض التعديلات على النموذج الاقتصادي التقليدي من حيث قدرة التنسيق المالي بين البلدان الراغبة في اقامة وحدة اقتصادية ، ومن حيث قدرة القطاع العام على القيام بمشاريع تمييزية في مناطق معينة... الخ [1] . وجملة القول يمكن لاقتصاديات متعددة ان تبلغ مرحلة الاندماج :

١ — عندما تنزع اسعار السلع والخدمات المماثلة لأن تكون متساوية في مختلف انحاء المناطق التي سيشملها التوحيد الاقتصادي :

٢ — عندما يختص كل اقتصاد من هذه الاقتصاديات ، تبعاً لتأثير حرية التبادل ، وفقاً لقانون التقسيم العالمي للعمل ، وفقاً لقانون التكاليف النسبية .

٢ — مدرسة الاقتصاد الموجه

ولكن مفهوم الاقتصاد ، مفهوم « سير الآلية الاقتصادية » ، قد تغير في وقتنا الحاضر الذي عرف التجربة الصناعية ، كما يقول فرانسوا بيرو الذي يضيف بان الخطة التي تنتظم ضمن اطارها الأهداف والوسائل بالأرقام قد حلت محل القوانين الطبيعية والآلية المفوية [2] . فالنموذج التقليدي السكوني المذكور ، يعرف الاندماج الاقتصادي بالتبادل الحر الذي يقود الى التخصص الاقليمي بين

---

(١) انظر : Maurice Allais : l'Europe Unie, Route de Prospérité . Paris : 1960. P. 100 - 107

A. Heilperin : Free Trade and Social Welfare. International Labour Review, March 1957 . P. 173 - 92

(٢) F. Perroux : l'Economie des Jeunes Nations T. I. Paris. 1962 P.12

الأمم ، اي الى وضع سكوني يتسم بمجموعة من العلاقات الاجتماعية الثابتة ـ ويمكن لهذا النموذج في التكامل الاقتصادي ان يبلغ وضعاً من التوازن مادام سكونيا . ولكنه سرعان مايتعرض للخلل بفعل العوامل الخارجية . ان هذه الفرضية لايمكن ان تقود الى تداخل الاقتصاديات في بعضها واندماجها ، بل الى مجرد تنضيد Superposition هذه الاقتصاديات على هياكل اقتصادية متكاملة . كتب موريس بييه يقول « ان التنضيد لا يعني الاندماج » .

لذلك فان الأخذ بالتعريف الحركي ، التطوري (ديناميك) للاندماج هو الذي يتناسب اكثر مع الأوضاع الاقتصادية العالمية الحاضرة . والمفهوم او التعريف التطوري للاندماج هو « سير يؤدي الى درجة اكبر من الوحدة » كما قال R. Marjolin او انه « يتضمن التدابير الرامية الى ازالة التمييز بين الوحدات الاقتصادية التابعة لمختلف الدول الوطنية »(1) ، كما يقول Bela Balassa وهكذا يمكن القول مع J. Weiller أنه من الخطأ الكبير الاعتقاد ان تقرير احداث اتحاد اقليمي يعيد من جديد تهيئة اوضاع وظروف لاقتصاد حر يقضي بضربة واحدة على السياسات الاقتصادية التوجيهية (2) ويكفي هذا القول الذهاب الى ان نظرية الاندماج بحسب النموذج التقليدي المذكور اعلاه هي نظرية تمثل الماضي ولايمكن تطبيقها على الحياة الاقتصادية في يومنا الحاضر . والاندماج بحسب التعريف التطوري المذكور هو عبارة عن اندماج اقليمي الذي يتسع بقدر امتداد المدى الذي يضمه . وهذا يعني ان الاندماج يقتضي التوصل الى وحدة التوجيه واتخاذ القرارات .

(1) Bela Balassa : The Theory of Economic Integration 1961, P. 1

(2) J. Weiller : Les objectifs économiques d'une coopération durable Economie Appliquée, Oct-Dec . 1953 , P. 579

كتب M. Bye يقول ان الاندماج ليس عبارة عن تجميع . انه ، فوق مجال ارضي محدد ، زيادة الحسابات في الخطط العائدة الى مجموعة من مراكز التقرير المدعوة لتشكيل نظام اقتصادي واحد (١) . اي انه ليس هناك من اندماج كامل دون التوحيد في اتخاذ المقررات . وعلى هذا الأساس يمكن الذهاب مع A. Marchal الى القول بأنه لم يحدث ان تم اندماج اقتصادي عمليا بصورة عفوية . ان قوى السوق وقوانينه غير قادرة عمليا على تشكيل مثل هذا الاندماج . ان الاندماج كان دوماً نتيجة لسياسة مرسومة ، واعية ، وارادية . ان الاندماج الاقتصادي يقتضي بكل بداهة تطبيق سياسات اقتصادية قومية متناسقة بصورة منهجية (٢) .

وهكذا فاننا اذا استبعدنا الاندماج الاقتصادي بمفهومه التقليدي القائم على مجرد حرية المبادلة والدفع ، وذلك لأنه في الواقع اندماج وهمي ، يرتبط بمفهوم الأسواق اكثر من ارتباطه بالاقتصاديات موضع الدمج ذاتها ، فاننا نتوصل مع السير في التعريف التطوري للاندماج الى الاندماج الاقتصادي الكامل القائم من جهة على اساس التوحيد في اتخاذ المقررات ، وهذا هو جانبه السياسي ، ومن جهة ثانية على اساس الاندماج الاقتصادي المرتبط باقتصاديات موضع الدمج اكثر من ارتباطه بمفهوم الآلية العفوية للسوق .

ولعله من الجدير الاشارة الى ان مفهوم الاندماج هذا يعني في الوقت ذاته الاندماج الاقتصادي والاجتماعي . والا فانه اذا كانت الصلات الاقتصادية وحدها

(١) M. Byé : Localisation de l'investissement. Revue Economique, Mai 1950 .
Jean Weiller - Revue Economique, mai 1950 .
(٢) انظر Weiller الصفحة السابقة .

هي موضع البحث في المرحلة الاندماجية ، فالأجدر القول عندئذ ان هناك ترابطاً بين الفعاليات الاقتصادية ، وليس تفاعلا مع الحياة الاجتماعية . ذلك انه من حيث الأهداف لايمكن ابدا فصل الاقتصاد عن الانسان ، كما يقول فرانسوا بيرو . ثم ان هذا المعنى للاندماج ينسجم مع ماتقدم من حيث ضرورة التوجيه في الحياة الاقتصادية من اجل تحقيق الاندماج . فالى جانب الفئات التي تعمل ضمن اطار القطاع الخاص في مجال النشاط الاقتصادي ، والتي تستهدف الربح بالدرجة الأولى، هناك الدولة التي تحاول تحقيق العدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص ، عن طريق سياسات متعددة منها سياسة اعادة توزيع الدخول ، والضمان الاجتماعي ، وتطوير المناطق المتخلفة .. الخ . وهذا وجه من اهم وجوه اختلاف الرأسمالية الحديثة الموجهة عن الرأسمالية التقليدية المرتكزة على عفوية توازن قوى السوق .

وعلى هذا الأساس لابد من استعراض بعض المميزات الرئيسية للاندماج الاقليمي الفعلي والحقيقي ، الذي هو ظاهرة معقدة مجالها اعادة تنظيم وتركيب الحياة الاجتماعية بمعناها الواسع للأقاليم او الأقطار .

أوردنا أعلاه تعريفاً للاندماج بمعناه التطوري ، انه سير متفاعل متطور يؤدي لدرجة اكبر من الوحـــدة ، فلا بد من اجل التوصل الى ذلك اذن من سلسلة من التوفيقات والتنسيقات واعادة الصياغات والتحديدات لمختلف القوى والمفاهيم الاقتصادية في المجال الاجتماعي الواسع لأطراف الاندماج . ولا يمكن تحقيق ذلك الا باتباع سياسات تنسيقية واعية ومدروسة في المجالات النقدية والمالية والاجتماعية .. الخ . من قبل مختلف الحكومات الممثلة للأقاليم أو الأقطار . وفي هذا المجال لايمكن التردد في ذكر ما كتبه فرانسوا بيروعندما قال : ان الاندماج

الحقيقي لا يمكن ان ينتج عن قوى السوق فقط ، والاقتصاديات المندمجة نسبياً بشكل حسن تكون أكثر أو أقل بعداً عن النموذج النظري للسوق الكاملة .

وهل كان من الممكن تحقيق مثل هذا الاندماج لو لم تكن السوق الفعلية، لا المتخيلة، تسير من قبل خطط دولة وطنية أو مجموعة من الدول الوطنية بحيث تكون القوى التي تسيرها غريبة عن الحسابات الاقتصادية للأفراد أو الوحدات الصغيرة (١) .

ان مفهوم الاندماج يتجاوز ، وبدرجات كبيرة ، حدود الظواهر الاقتصادية الخالصة ليبلغ مرحلة التفاعل الاجتماعي من قبل الأفراد والجماعات المؤلفة لأطراف الاندماج .

درجات الاندماج الاقتصادي وأشكاله :

هذا عن مفهوم الاندماج الاقتصادي بشكل عام وعلى أساس المشروع الفردي . فما هي درجاته ؟ قسمها الاقتصادي B. Balassa الى الدرجات المتتابعة التالية ، واننا لنوردها على سبيل الذكر وليس من الضروري التقيد بها : (٢)

١ ـ منطقة التجارة الحرة حيث تعمد البلدان الأعضاء الى تخفيف الرسوم الجمركية والقيود الكمية بالتدريج حتى تزول بشكل تام وتتم حرية انتقال الأموال والأشخاص . ويحتفظ كذلك بموجبها كل بلد بتعرفاته الجمركية تجاه البلدان غير الأعضاء .

٢ ـ الاتحاد الجمركي : ويتميز بالغاء جميع أصناف التمييزات

---

(١) انظر ص ٢٣٣ من كتاب F. Perroux : L' Europe sans Rivages

(٢) انظر مصدراً سبق ذكره ص٢ ـ ٣ B. Balassa : The Theory of Economics Integration. 1961.

والحواجز فيما يتعلق بحركة البضائع داخل نطاق الاتحاد ، وتوحيد التعرفات الجمركية للدول الأعضاء تجاه العالم الخارجي . ولا يتضمن ذلك بالضرورة حرية انتقال الأموال والأشخاص .

٣ - السوق المشتركة التي تشكل درجة أعلى من السير نحو الوحدة الاقتصادية لأن الالغاء لا يشمل التعرفات الجمركية والقيود فقط ، أي المبادلات التجارية ، ولكن أيضاً القيود المفروضة على حرية تنقل عوامل الانتاج : رؤوس الأموال والأشخاص .

٤ - الوحدة الاقتصادية التي تهدف الى جانب زوال القيود على انتقال السلع وعوامل الانتاج - الى تنسيق السياسات الاقتصادية القومية بين الدول الأطراف بغية ازالة التمييز الناشىء عن اختلاف هذه السياسات .

٥ - الاندماج الاقتصادي الكامل الذي يفترض توحيد السياسات النقدية والمالية والاجتماعية ، وتلك الخاصة بمحاربة الأزمات الدورية ، كما انه يستوجب انشاء سلطة عليا على صعيد اطراف الاندماج تكون متمتعة بسلطة اتخاذ القرارات الملزمة للدول الأطراف .

لعله من الجدير الاشارة الى ان هذا التصنيف لتسلسل اشكال ودرجات الاندماج قاد المؤلف الى اعتبار التكامل الاجتماعي والسياسي شرطاً للاندماج الاقتصادي في الدرجات الأخيرة ، ولكنه لم يفترض هذا الشرط في حالة منطقة التجارة الحرة والاتحاد الجمركي .

تحدثنا حتى الآن عن مفهوم الاندماج الاقتصادي - وما السوق المشتركة

إلا درجة من درجاته - في الفكر الاقتصادي : لدى أنصار الاندماج عن طريق حرية التجارة والدفع ، أي وفقاً للنموذج التقليدي ، ثم لدى انصار الاندماج عن طريق حرية التجارة والدفع أيضاً ، ولكن وفقاً لنموذج الرأسمالية المتطورة المعاصرة ، اي حيث اخذت تحتل الدولة المركز الأهم في توجيه الحياة الاقتصادية، بل والتحكم في الأسعار في حال الضرورة ، وتنظيم السوق تنظيماً عقلانيا، لدرجة بلغت مرحلة تبني الخطة الاقتصادية كما هو الحال في فرنسا ، وهولندا ، وبريطانيا .

على ان المشروع الفردي يظل الأساس الذي يقوم عليه هذان المفهومان، فحتى في حال وجود الخطة ، فانها لا تتعدى حدود تنسيق الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية بهدف تحقيق تنمية اسرع . وليست السوق الأوروبية المشتركة الا تجسيداً لمفهوم الاندماج تبعاً لسياسة تعتمد دور الدولة في توجيه وتنسيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية بوجه عام .

ب — في ظل النظام الاشتراكي

ولعله من الجدير الاشارة هنا الى نموذج جديد في مفهوم الاندماج الاقتصادي ، والذي اعتقد انه اقرب الى مفهوم كلمة التكامل Complémentarité منه الى مفهوم الاندماج Intégration او حتى التدرج في مراحله. وهذا النموذج الجديد يعتمد التخطيط المركزي ضمن اطار العلاقات الاشتراكية الأساس في السير نحو التكامل . وبكلمة ادق ، انه لون من الوان التعاون الاقتصادي الذي يزداد متانة بازدياد حركة التصنيع والتنمية في الاقتصاد الاشتراكي . لن اسهب في الحديث عما يسمونه « مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل » او بالكوموكون بين الاتحاد السوفييتي وبقية بلدان اوربا الشرقية . ذلك لان بعض الاقتصاديين

مثل Bella Baladisa لا يعتبرونه لوناً من الوان السوق المشتركة (١). حقاً من الممكن تحقيق الاندماج من خلال تجارة الدولة ومن خلال تنسيق الخطط الاقتصادية القومية دون ازالة الحواجز الجمركية. وفي هذا استبعاد لمفهوم السوق، والاخذ بالتوجيهات الادارية. اذ ان التعاون بين البلدان الاشتراكية ضمن اطار ما يسمى « بالكوموكون » يقوم على تنسيق الخطط لامد طويل من جهة، وعلى اتفاقات التجارة الثنائية من جهة ثانية. ان مفهوم الاندماج الاقتصادي للكوموكون يرتكز على نقطتين اساسيتين: فهناك اولا هدف الانتاجية، كالتوزيع العقلاني للقوى المنتجة في النظام الاشتراكي في البلدان الاشتراكية، والاستخدام المنتج للعمل وموارد الثروة، والحد الاقصى من انتاجية الانتاج الاجتماعي، واعلى درجة من النمو الاقتصادي. وثانيا هناك مجموعة من الاهداف يمكن حصرها بكلمة استخدام، وذلك كالقول بالاقتصاد المتوازن لكل بلد، التصنيع والازالة التدريجية لعوامل الاختلافات التاريخية في درجات التنمية الاقتصادية للبلدان الاشتراكية (٢). ولكن هذا كله لا يخرج عن حدود التعاون، ولم يبلغ حدود السوق المشتركة بالمفهوم الذي اوردناه للاندماج الاقتصادي. كتب Oskar Lange يصف هذا التعاون بقوله (٣): « ان قضية

(١) انظر بالاساس ـ مصدر سبق ذكره ص ـ ٨ Michael Kaser : Comecon, London 1965.

(٢) انظر ص ١٥٩ من كتاب Oskar Lange : Problèmes d'Economie Socialistes.

(٣) انظر ص ١٠ من Academia Palacca Di Scienze E Lettere, Varsovie, 1964.

او الترجمة العربية لمحاضرات هذا الكتاب التي ستظهر قريباً بقلم كاتب هذا البحث.

التعاون بين البلدان الاشتراكية تتمثل في تنسيق خطط التنمية فيها . فمنذ اربع سنوات كان تنسيق الخطط القومية الانمائية بين مختلف البلدان الاشتراكية يجري بطريقة غير مباشرة : بالاتفاقات التجارية ذات الأمد الطويل . وكانت توقع اتفاقات لخمس سنوات تستخدم كأساس للتخطيط .. ولكن هذه الطريقة في التنسيق غير المباشر لم تعد كافية اليوم .

انها لا تتلاءم مع درجة النمو الذي بلغته اقتصاديات البلدان الاشتراكية (ويقصد المؤلف التقدم الصناعي كما بحث ذلك في مكان آخر) . لذلك اصبح من الضروري اليوم الانتقال الى مرحلة من التنسيق المباشر بين الخطط : اي تنسيق السياسات التثميرية بالدرجة الأولى . ايجب ان تنتج بولونيا السيارات اذا كانت تنتجها تشيكوسلوفاكيا ؟ .. وهكذا توصلت البلدان الاشتراكية مؤخرا ضمن اطار (الكوموكون) ، الى تنسيق سياساتها الانمائية بحيث صيغت خطط انمائية تمتد زمنا عشرين عاما ؛ كما انه تم تنسيق هذه الخطط على اساس من الاتفاقات المتقابلة باشراف هيئات مختلطة بالنسبة لمختلف عناصر التنمية الاقتصادية، ولبعض القضايا العامة الأخرى وذلك بهدف السير خطوات واسعة في مجال تقسيم العمل بين البلدان الاشتراكية الأعضاء في (الكوموكون) . وتتجه البلدان الاشتراكية نحو اقامة مشاريع مشتركة . ولكن هذه المرحلة مازالت في بدايتها. ومن اهداف التعاون احداث مصرف لتمويل المشاريع المشتركة بين البلدان الاشتراكية ، ولتمويل حركة تنشيط التجارة فيما بينها ؛ كذلك احداث صندوق مشترك للعملات الأجنبية ..

وجملة القول بهذا الصدد ، ان الديمقراطيات الشعبية والاتحاد السوفييتي قد تجاوزت سياسات التنمية القائمة على الصناعة الثقيلة والخاصة بكل بلد ، الى

القيام باعمال مشتركة (انابيب النفط والغاز ، مصافي تكرير النفط مثلا ...) والتعاون المشترك لاستغلال الثروات الطبيعية ومصادر الطاقة الحرارية .

يلاحظ اننا اوردنا حتى الآن نموذجين يذهبان من حدود التعاون الاقتصادي حتى درجات الاندماج الاقتصادي . الاول يتبع النظام الرأسمالي ، سواء اكان على اساس حرية التبادل والدفع ، اوكان على اساس التدخل وتوجيه السياسة الاقتصادية الرامية الى الاندماج . والنموذج الثاني يتبع النظام الاشتراكي او التخطيط المركزي الشامل وحيث يبدأ التعاون بغاية التوصل للاندماج عن طريق تنسيق الخطة الاقتصادية والاجتماعية التي تضعها كل دولة مع خطط بقية الدول .

وقبل الانتقال لدراسة وضع السوق العربية المشتركة على ضوء هذين النموذجين سنعمد الى ذكر الخطوط الاساسية لتبرير ضرورة قيام تعاون اقتصادي يبلغ مرحلة السوق المشتركة او الاندماج التام ، وخاصة بالنسبة للمناطق المتخلفة اقتصاديا كالشرق الاوسط .

الاتجاه نحو التجمع والتكتل الاقليمي بعد الحرب الثانية

لعل من اهم مايلفت نظر المتتبع للاحداث العالمية بعد الحرب الثانية هو النزوع نحو سياسة التكتلات والتجمعات ، بل والوحدات الاقتصادية الاقليمية. وتختلف اشكال ودرجات هذه التجمعات ، باختلاف الزمن والمكان . ولكن يجمعها كلها اساس واحد هو : عامل تطور الصناعة بتطور العلوم التطبيقية والطرق التقنية ، كون الصناعة الحديثة بحاجة لاسواق اوسع ، نزوع مختلف البلدان لان تكون لها صناعاتها . وهكذا بدأ الاقتصاديون يتحدثون عما يسمى باقتصاديات السعة

Economies of scale, Economies de dimension، واخذوا يلاحظون ان البلدان الصغيرة اقتصاديا، لاتملك الموارد الطبيعية والمالية والتقنية الكافية التي يمكن لها تجهيزها لا لتدخل عصر الصناعة المعقدة فقط، بـل للثبات في هذا المضمار أيضا. كتب الاستاذ فرانسوا بيرو يقول: «ان التصنيع لايعني التصنيع لكل بلد بمفرده (١).

عرفت فترة مابعد الحرب الثانية موجة نحو التنظيمات الآيلة الى الاتحادات الاقتصادية الاقليمية، أو التعاون الاقتصادي الاقليمي. فقد عرفت اوربا الاتحاد الجركي ثم الاتحاد الاقتصادي لبلاد بنلوكس، ثم مجموعة بلدان الفحم والحديد التي تم انشاؤها بين البلاد المؤلفة لبلاد البنلوكس (بلجيكا، هولندا، لوكسمبرغ) وفرنسا والمانيا الاتحادية وايطاليا، هذه المجموعة التي تحولت فيما بعد الى البلدان الأعضاء في السوق الأوروبية المشتركة التي وقعت اتفاقيتها في روما عام ١٩٥٧ ودخلت مرحلة التنفيذ منذ أول عام ١٩٥٨، ثم هناك منظمة التجارة الحرة التي انشئت عام ١٩٦٠ بين سبع دول هي النمسا والداغارك وبريطانيا والنروج والبرتغال والسويد وسويسرا والتي انضمت لها فنلندا عام ١٩٦١ كعضو مشارك.

وعرفت بقية بلدان العالم أوضاعاً مشابهة: فهناك السوق المشتركة لبلدان امريكا اللاتينية بمختلف أشكالها، وهناك النزوع نحو التجمع الاقليمي في جزر الهند الغربية، وبين بلاد جنوبي شرقي آسيا، وبين بعض البلدان الافريقية بأساليب مختلفة، وبين الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية. فاتفاقية الوحدة

(١) F. Perroux : l'Economie des Jeunes Nations, Paris, 1962, P. 35

الاقتصادية بين بلدان الجامعة العربية التي عقدت عام ١٩٥٧ ، ثم اتفاقية السوق العربية المشتركة بين بعض البلدان العربية ، تشكلان اذن جزءاً من السياسة الاقتصادية العالمية النازعة نحو لتكتل الاقتصادي الاقليمي لفترة مابعد الحرب الثانية . وبذلك يجب اعتبار مفهوم السوق العربية المشتركة على أنه يتجاوز حدود المنطقة التي أنشىء فيها .

وبالاضافة لعامل التصنيع في الاتجاه نحو التجمع الاقتصادي الاقليمي ، هناك عوامل أخرى تكاد تكون واحدة بالنسبة لجميع هذه التكتلات ، وان كانت تختلف بدرجة ثقلها تبعاً لأوضاع البلدان ودرجات نموها . فما هي أهم هذه العوامل ؟

عرفت فترة مابين الحربين تصدعا في العلاقات الاقتصادية العالمية . فقد أصيب التركيب الدولي للتجارة والمدفوعات بخلل عقب التخلي عن قاعدة الذهب، وتعرض الاقتصاد العالمي لأزمة ١٩٢٩ الشهيرة . وانكمش حجم التجارة بين البلدان ، وتعقدت أمور تسوية المدفوعات . وبنية توصل كل بلد للمحافظة على توازن اقتصادي في الداخل وعلى النطاق العالمي ، والمحافظة على ثبات قيمة العملة الوطنية وتجنب أخطار التضخم النقدي ، لجأت الدول وخاصة الدول الأوربية ، الى فرض القيود على التجارة الخارجية ، وخصوصا من ناحية فرض الرقابة على العملات الأجنبية ، وواجهت التجارة الدولية سلسلة من الاتفاقات الثنائية التي حلت محل التجارة المتعددة الأطراف . وبذلك تعددت الوحدات الجمركية ، وتعددت اتفاقيات الدفع وتعقدت ، على صعيد المعمورة . وأدى ذلك الى عرقلة نشاط التبادل التجاري الدولي ، والى مواجهة أزمة السيولة النقدية (١) . لذلك

(١) انظر Emile James : Problèmes monétaires d' aujourd'hui Paris. 1964

نظر الى الوحدة الاقتصادية الأوربية على أنها الحل الممكن لاعادة ربط ما انفك من صلات اقتصادية .

وعامل آخر هو زيادة التعاون بين الحكومات لمواجهة الأزمات الاقتصادية والتحكم بقدر الامكان في الاسواق والتدخل لتجنب الآثار الضارة للتموجات الاقتصادية وقد اقتضى ذلك كله تعاوناً وثيقاً بين الدول من حيث تنسيق سياساتها الاقتصادية .

وسلطت الأضواء بعد الحرب الثانية على مشكلة الدخل القومي وتوزيعه ، والاهتمام بعدم ترك التنمية الاقتصادية للآلية العفوية ، بل عن طريق تدخل الدولة بتوجيه الاقتصاد او تبني اسلوب التخطيط بهدف تحقيق اسرع معدل ممكن لزيادة الدخل القومي .

تلك هي اهم الدوافع للسير نحو التكتل الاقتصادي الاقليمي بالنسبة للبلدان المتطورة او الصناعية . وتشترك معها البلدان المتخلفة والمستقلة حديثا في بعض هذه العوامل ، وتختص بعوامل خاصة بها بهذا الصدد .

ولعل اهم ماتشترك به الدول المتطورة والمتخلفة على حد سواء هو عامل التصنيع وعامل الاسراع في التنمية الاقتصادية ، وذلك مع اختلاف درجات النمو . والعاملان المذكوران يتطلبان ، لكي يتحققا على وجه اكثر كمالا ، اتساعا في السوق الاستهلاكية ، وذلك دوماً مع تضمن ذلك الفارق في درجات النمو والتقدم التقني وغير ذلك . ولسنا هنا في معرض الحديث عن المفاضلة بين الزراعة والصناعة ، وعن تصنيف الصناعات الى استهلاكية وتحويلية وثقيلة ، كذلك لسنا في معرض الحديث عن النمو المتوازن وعدمه ، ولكن الأمر الذي لا نقاش حوله هو ان هذه

الامور جميعا تتطلب سوقاً استهلاكية كبيرة ، سوقاً تتجاوز في حجمها وقدرتها الاستيعابية مجال البلد الواحد ، وخاصة اذا كان متخلفاً ودخل الفرد فيه ضئيل بحيث تضعف قوته الشرائية بالتالي ، الى مجموعة من البلدان وخصوصاً تلك التي ترتبط مع بعضها جغرافيا ، بحيث يمكن تحقيق الانتاج على نطاق كبير لسوق ذات سعة استهلاكية كبيرة ، وكلما زاد الانتاج نقصت التكاليف . والسياسات الانمائية والتخطيطية ترتبط جذرياً بهذا المفهوم ، كائنا ماكان النظام الاقتصادي القائم . وقد جاء في الخطة الاقتصادية السورية الثانيـــة مثلا : ان الخطة تهدف الى تحقيق التكامل الاقتصادي بين الأقطار العربية تمهيداً لتحقيق الوحدة الاقتصادية الكاملة . وهذا الكلام يعني ان تصميم المشاريع في الخطة الاقتصادية السورية لم يقتصر على القطر السوري فقط ، بل أخذ بعين الاعتبار ضرورة السير في طريق التكتل الاقتصادي العربي وتنسيق التعاون في المجال الانمائي بهذا الصدد .

ان معظم البلدان المتخلفة اقتصادياً اليوم حصلت على استقلالها حديثا. اولا ضرورة التعرض للعقبات التي تقف في وجـه النمو السليم في الدول الناشئة ، سواء أكان ذلك على الصعيد العالمي أم من داخل البلد . وبالاضافة للعاملين المذكورين اعلاه ، بما في ذلك عامل السوق ، هناك عوامل اخرى لايمكن للبلدان الناشئة التغلب عليها الا بتعاونها وتضامنها تضامناً حقيقيا يبدأ بسلوك طريق الوحدة الاقتصادية ، بالمفهوم الواسع لهذه الكلمة (١) .

لن نتعرض لهذه العوامل الاضافية بالتفصيل هنا ، لان ما يهمنـــا هو

---

(١) لن نتعرض هنا لغير العوامل الاقتصادية مهما كانت درجة تشابكها وثيقة مع العوامل غير الاقتصادية .

نتائجها. فقضية التنمية الاقتصادية ، وقضية برامج التصنيع ، هي في الواقع نوع من العبء على وضع المدفوعات ، والتوازن الخارجي للبلدان المتخلفة . اذ ان هذه البلدان مضطرة لاستيراد السلع والتجهيزات الرأسمالية من اجل السير في برامجها ، ولا تملك مقابل ذلك الا المواد الأولية والسلع الزراعية التي تصدرها للبلدان المتقدمة . ونعرف جميعا ان التجارة الدولية تتجه لمصلحة الدول الصناعية اكثر مما تتجه لمصلحة الدول المتخلفة ، الأمر الذي ادى الى تدهور معدلات التبادل للبلدان المتخلفة في علاقاتها التجارية مع الدول المتقدمة (١) . والذي يهمنا من الموضوع هنا هو ان التكتل على الصعيد الاقليمي ، صعيد الشرق الأوسط مثلا ، يزيد من قدرة البلدان المتخلفة في علاقاتها الاقتصادية والسياسية مع البلدان المتقدمة ، من قدرتها على المساومة سواء من حيث تسويقها لصادراتها ، لنتصور تنسيقا للسياسة القطنية او النفطية لبلدان الشرق الأوسط ، او اية مادة اخرى ؛ او من حيث سياساتها الاستيرادية ، باستعمال اسلوب الضغط الجماعي مثلا لتخفيض اثمان السلع ، او الحصول على تسهيلات ائتمانية او قروض .. الخ .

---

(١) R. Prebisch : Vers une nouvelle polittque commerciale en vue du developpement économique. Dunod. Paris 1964 et N. U.

انظر ايضا : ـ مشاكل التجارة الدولية للبلاد المنتجة للمنتجات الاولية للدكتور محمد زكي الشافعي ، مجلة مصر المعاصرة . عدد ٣١٨ ، عام ١٩٦٤

ـ التعويض المالي الدولي للدول النامية للدكتور محمد الاطرش .

ـ تقرير الدكتور جورج طعمة وزير الاقتصاد السوري ورئيس وفد سورية لمؤتمر التجارة والتنمية الذي انعقد في جنيف .

اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية والسوق العربية المشتركة :

ان قراءة نصوص اتفاقية الوحدة الاقتصادية بين دول الجامعة العربية التي وقعت في القاهرة عام ١٩٥٧ توصي بأن الهدف هو بلوغ اعلى مرحلة من مراحل الوحدة الاقتصادية او الاندماج الاقتصادي كما ورد ترتيب هـــذه المراحل او الدرجات اعلاه . ورغم ان اتفاقية السوق العربية المشتركة ما هي الا وضع اتفاقية الوحدة موضع التنفيذ ، الا انها اتفاقية ناقصة ، بل « خجولة » ان صح التعبير . فهي لا تكاد تتجاوز المرحلة الأولى من الترتيب الذي اوردناه اعلاه ، اي تشكيل منطقة للتبادل الحر . فبينما يذهب مفهوم اتفاقية الوحدة الى حدود اعادة تركيب البنيان الاقتصادي والاجتماعي للأقطار العربية ، بحيث تتوصل الى ما يمكن تسميته بالاتحاد او الاندماج الاقتصادي والاجتماعي بين البلدان العربية المتوزعة على صعيد الأقطار ، وهو في ذلك مفهوم ينسجم من حيث السياسة الاقتصادية مع المدرسة الاقتصادية التدخلية التي قامت على اساس توجيهاتهـــا السوق الأوربية المشتركة ، وهو كذلك تجاوز مفهوم التعـاون الاقتصادي بين بلدان المعسكر الاشتراكي ، نرى ان « خجل » مفهوم اتفـــاقية السوق العربية المشتركة يقف عند حدود افكار المدرسة التي تنادي بالعودة الى نظام حرية المبادلة والمدفوعات الذي اشرنا اليه اعلاه ، مع بعض الفروقات والتحفظات وعلى هذا الأساس ، وتبعا لترتيب درجات الاندماج الاقتصادي الواردة اعلاه ، اوتبعا للمقارنة مع اتفاقية السوق الأوروبية المشتركة ، فانه من التجاوز تسمية السوق العربية المشتركة بسوق مشتركة ، ذلك لانها تقتصر على تنظيم تبادل المنتجات بين الدول الأعضاء ، وبتحفظ ، ضمن اطار من التخفيضات الجمركية

التي تنتهي الى الاعفاء الكامل بعد فترة معينة (١) فاذا كنا نطلق على السوق الأوروبية المشتركة صفة السوق ، يصعب علينا اطلاق هذه التسمية ، بمعناها الكامل ، على السوق العربية المشتركة .

والواقع ان اتفاقية السوق العربية المشتركة قد بنيت على اساس اتفاقية تسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت المعقودة بين دول الجامعة العربية عام ١٩٥٣ . والذي فعلته اتفاقية السوق العربية المشتركة هو تحديد مدة زمنية تزول معها التخفيضات الجمركية تبعا لنسب سنوية معينة بالاعتماد على الجداول أ ، ب ، ج ، الملحقة باتفاقية تسهيل التبادل المذكورة ، واضافة السلع غير الواردة في هذه الجداول . (راجع نص الاتفاقية) .

فبعد عشر سنوات تقريباً من تطور الاقتصاد المالي ، وتبدل الأوضاع الاقتصادية وغير الاقتصادية في العالم العربي ، تعود اتفاقية السوق العربية

---

(١) لن نتعرض هنا لشرح بنود اتفاقية السوق العربية المشتركة ، لأن مايهمنا هو مفهومها الاقتصادي العام . ويمكن للراغب مراجعة شرح الاتفاقية في :

ـ الاقتصاد السوري والتعاون الاقتصادي العربي ، على هامش اتفاقية السوق العربية المشتركة . وهي دراسة نقدية للدكتور سعيد نابلسي . مجلة « الاقتصادي العربي » بدمشق ، عدد خاص رقم ٣ ، ١٦ ايلول ١٩٦٤ ، والعددان ٨٣ ، ٨٤ من العام المذكور .

ـ على هامش قيام السوق العربية المشتركة للاستاذ يحيى عرودكي ، مجلة « الاقتصادي العربي » بدمشق . الأعداد ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ من عام ١٩٦٥ .

Henri Bourguinat : Le marché commun arabe .
Le commerce du Levant № 53, 54, 55, Beyrouth, 1965
Hicham Moutewalli : Le marché commun arabe face à ses difficultés.
l'Economie et les Finances de la Syrie et des Pays Arabes.

ـ على هامش السوق العربية المشتركة والعقبات التي صادفتها . الدكتور هشام متولي . مجلة « الاقتصادي العربي » ، دمشق ، عدد خاص رقم (٥) ، ايلول ١٩٦٥ .

المشتركة لتستوحي اتفاقية وضعت عام ١٩٥٣ . ثم ان اتفاقية السوق العربية المشتركة لاتخرج في روحها ، بل وحتى في نواحيها « التكنيكية » من حيث نسب التخفيضات الجمركية عن مشروع السوق العربية المشتركة التي اقترحها مؤتمر غرف التجارة والصناعة والزراعة العربية الذي انعقد بين ٢٠ — ٢٦ تشرين ثاني في عام ١٩٦٢ في تونس . فقد رأى المؤتمر ان « نقطة البدء في السير يجب ان تكون من اتفاقية التجارة والترانزيت العربية » لذلك فان المؤتمر يطالب بتطوير هذه الاتفاقية لتصبح دستور التعامل التجاري بين الدول العربية وذلك على اساس من الصياغة الجديدة التي لاتخرج بروحها عن النصوص الأصلية. فالخطوة العلمية اذن برأي المؤتمر لخلق سوق عربية مشتركة يجب أن تبدأ بحقل التجارة بين البلاد العربية وتنتقل منه الى غيره . لن نتعرض هنا لابداء ملاحظات على اتفاقية تسهيل التجارة والترانزيت ومشروع السوق العربية المشتركة المقدم من قبل غرف التجارة والصناعة والزراعة العربية . ولكن الاقتراح الذي كانت قد تقدمت به الجمهورية العربية المتحدة الى المجلس المؤقت للوحدة الاقتصادية العربية بهدف انشاء سوق عربية مشتركة عام ١٩٦١ كان أكثر جرأة رغم اعتماده هو الآخر على اتفاقية التجارة والترانزيت المذكورة . كذلك فان اقتراح العراق حول « التكامل الاقتصادي والتعاون الفني بين الدول العربية » الذي تقدم به للمجلس الاقتصادي العربي الذي انعقد في دمشق عام ١٩٦١ لايخرج في روحه عن اتفاقية تسهيل التجارة والترانزيت المذكورة . (١)

(١) تحليل بعض اوجه العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية للدكتور برهان الدجاني القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص : ١٦٠ .

وهكذا نرى أن جميع المشاريع التي قدمت لانشاء سوق عربية مشتركة كانت تستوحي اتفاقية تسهيل التجارة والترانزيت التي عقدت عام ١٩٥٣ . كذلك فان واضعي اتفاقية السوق العربية المشتركة قد استوحوا الاتفاقية المذكورة . والشيء الذي لا مجال للشك فيه هو أن اتفاقية تسهيل التجارة هذه عملية وممكنة التطبيق ، خصوصا في المراحل الأولى لبدء التعاون الاقتصادي . ولكن هذه الاتفاقية التي انشئت على أساسها اتفاقية السوق العربية المشتركة ، ولم تتجاوزها حتى بعد عشر سنوات من وضعها ، ليست أكثر من اتفاقية تجارية عقدت ووقت خلال فترة زمنية كانت تعتبر عملا كافيا في حينه ، ولم تكن الأفكار والنظم الاقتصادية قد تطورت في العالم وفي بلدان الشرق الأوسط كما هي عليه اليوم . لذلك نرى أن اتفاقية السوق العربية المشتركة اتفاقية ناقصة باعتمادها المفهوم التجاري فقط في التعاون الاقتصادي كما هو الحال في اتفاقية تسهيل التجارة والترانزيت . وهي ناقصة أيضاً لعدم مسايرتها تطور الفكر الاقتصادي العالمي الرامي الى التدخل الصريح للدولة في تنظيم الأسواق ، كما هو الحال مع السوق الأوروبية المشتركة . وبقدر ما هي ناقصة من ناحية هذا المفهوم ، فهي ناقصة ايضا جغرافيا ضمن الاطار الاقليمي هذا فضلا عن النقص الظاهر فيها من حيث تأجيلها لأهم الدراسات لوقت يحدد فيما بعد واحالتها الى لجان مختصة (مثل انتقال الاشخاص وممارستهم حرية العمل ، والتنسيق الصناعي ..) .

هل ما ذكرناه مجرد نقد ؟ لا ، لأننا نعرف اسبابه . ولعل السوق العربية المشتركة تمتاز عن بقية الأسواق المشتركة العالمية بان الطابع السياسي في تحضيرها كان يغلب على الطابع الاقتصادي ، شأنها في ذلك شأن مفهوم الوحدة ككل

كما سبق واشرنا لذلك في بداية هذا الحديث. ولكننا اشرنا ايضاً الى ان المفهوم الاقتصادي للوحدة العربية أخذ يسير جنبا الى جنب مع المفهوم السياسي، ولكنه لم يثبت اركانه بصورة نهائية بعد. ولعل انشاء السوق العربية المشتركة كان من أهم العوامل التي لفتت النظر الى الناحية الاقتصادية لانها وضعت موضع التطبيق عقب اقرارها بأشهر تقريبا، ولأنها حددت فترة زمنية تزول معهـــا الحواجز الجمركية بين البلدان الخمسة المؤلفة للسوق العربية المشتركة. وهنا شعر الجميع، سواء الدول الأعضاء في السوق او غير الاعضاء ان الاتفاقية : خجولة وناقصة.

وتساءلت الألسن : اليس من الممكن ان تكون هذه الاتفاقية اوسع مدى على الصعيد الجغرافي ؟ ان سوقاً عربية مشتركة لا بد لها من ان تضم لبنان وبلدان الخليج العربي ايضاً . ذلك ان المجال الحيوي للبنان ليس الرقعة الجغرافية الضيقة التي هي لبنان، وليس اتفاقيا مع السوق الأوروبية المشتركة، بل هـذا العالم العربي الذي يمكن له ان يضم سوقاً عربية واسعة يتوفر فيها حوالي ٥٠ مليون مستهلك. كذلك الأمر بالنسبة لبقية البلدان العربية. ان برنامج تصنيع سوري يرسم على صعيد القطر السوري، هو برنامج ضعيف الامكانيات كثير النفقات، ولكنه يصبح برنامجا ضخما عندما يكون المدى الذي يتهيأ لأن ينتج له واسعا. واذا كان القطر المصري يضم ثلاثين مليون نسمة، وهو بذلك اكبر من بقية أقطـار السوق الحالية مجتمعة، فان ضآلة الدخل الفردي في هذا القطر تجعله ينظم انتاجه للمنطقة بكاملها . وطبعا ان كلامنا لا يستبعـد البلدان العربية لافريقيا الشمالية، ولكننا نحاول اعطاء امثلة عملية لمـا قدمناه من تحليل نظري اعلاه. ان منطقة الشرق بكاملها تملك لوحدها اكثر من نصف الاحتياطي النفطي في العالم. فلو ان سياسة تنسيقية لشؤون النفط توضع موضع التنفيذ، سواء من حيث العمل

على تكرير هذا النفط ، او الجزء الاكبر منه ، محليا ، او من حيث طلب زيادة العائدات (تقدير تكاليف برميل النفط بـ ١٦ سنتا في الخليج العربي ، بينما تبلغ دولارين في التكساس) ، فانها تعود بالفائدة معا على البلدان المنتجة للنفط والبلدان غير المنتجة له . ذلك ان سياسة نفطية ترسم على صعيد المنطقة ككل تعطي قوة في المساواة والضغط لا تتمكن من ممارستها السعودية لوحدها او الكويت لوحده . والامر نفسه تقريبا بالنسبة لبقية السلع والمنتجات الرئيسية .

على هذا الاساس ، واعتماداً على التحليل الذي قدمناه اعلاه عن عوامل التكتل الاقتصادي ، يمكن القول ان مفهوم السوق العربية المشتركة على الوجه الذي ورد في اتفاقية هذه السوق مفهوم ناقص . وهذا يعني انه من الأجدر اعادة النظر باتفاقية السوق العربية المشتركة ، وبالتالي باتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ذاتها . لكي يكون المفهوم الجغرافي ، والاقتصادي ، اكثر تكاملا وشمولا .

ذلك ان حركة التصنيع يجب ان تشمل المنطقة بكاملها ، لا ان تقتصر على بلدان معينة منها ، ان حركة التصنيع تستوجب مثلا انشاء وتطوير شبكة من المواصلات تمتد على طول المنطقة وعرضها . ان الواقع الجغرافي والاقتصادي للبلاد العربية يجعل نصوص اتفاقية السوق العربية المشتركة بالضرورة ، وبحكم واقع الامور ، اتفاقية ناقصة ، لا بد من اعادة النظر فيها لاستكمالها وتوسيع مداهما الجغرافي والاقتصادي . (١)

بقيت قضية هامة لا يمكننا تجاهلها ، وان كنا نعتقد بامكانية ايجاد حلول ملائمة لها لدى اعادة النظر باتفاقيتي الوحدة الاقتصادية والسوق العربية المشتركة .

---

(١) اتفق في الرأي ، من بعض النواحي ، بهذا الخصوص مع الدكتور سعيد النجار ، انظر : الوحدة الاقتصادية بين البلدان النامية ، مصر المعاصرة ، عدد ٣١٨ ، عام ١٩٦٤ .

لقد اعطينا فيما تقدم تحليلا نظرياً لنموذجين من التعاون الاقتصادي .

فهناك نموذج السوق الاوربية المشتركة التي ستتحول مع الزمن الى وحدة اقتصادية ، بل ووحدة سياسية ، باعتماد نموذجها ليس فقط على اقتصاد السوق ، وانما ايضا وقبل كل شيء على سياسة تدخلية بلغت درجات بعيدة في التخطيط الاقتصادي والاجتماعي كما هو الحال في فرنسا ، وبلغت ايضا درجات بعيدة في ميدان التشريعات الاجتماعية . وتهدف اتفاقية السوق الاوربية المشتركة في جملة ماتهدف اليه الى تنسيق مختلف السياسات الاجتماعية والاقتصادية والمالية والنقدية فيما بينها .

وهناك نموذج التعاون الاقتصادي على طريقة الاتحاد السوفييتي ودول اوروبا الشرقية (الكوموكون)، هذا التعاون القائم على اساس من المشاريع المشتركة حاليا على الاقل فكرة ازالة الحواجز الجمركية وتحقيق الوحدة الاقتصادية فيما بين هذه الدول .

ولكن النموذج الاول قائم بين دول تتبع كلها نظاما اقتصاديا واحداً هو الرأسمالية بمفهومها الحديث المتطور . كذلك الامر بالنسبة للنموذج الثاني حيث تتبع الدول الاعضاء فيه نظاما اقتصاديا واحدا هو الاشتراكية . فما العمل اذن عندما تكون بعض البلدان المنضمة للسوق العربية المشتركة تتبع اسلوب التخطيط المركزي كالقطر المصري والقطر السوري ، وبلدان اخرى منظمة لهذه السوق ايضا تتبع نظام المشروع الفردي كالاردن او لبنان مثلا في حال توسيع الاتفاقية؟ وكيف السبيل الى اقامة سوق عربية مشتركة ؟ او بالاحرى استكمال النواحي الناقصة في الاتفاقية بهذا الخصوص .

لن تقدم اقتراحات عملية الآن بهذا الخصوص . وانما الذي نشتقده هو ضرورة اعادة النظر في اتفاقيتي الوحدة الاقتصادية والسوق العربية المشتركة ،

بحيث يمكن تلافي مايمكن تلافيه من ثغرات على ضوء تطور الفكر الاقتصادي العالمي ، والتجارب الاقتصادية الهادفة للتكتل الاقتصادي في العالم وعلى الصعيد العربي ، مع اخذ واقع الاقتصاد العربي خلال الفترة التي نحياها حاليا ، من جهة ، ومستقبل الاقتصاد العربي ، من جهة ثانية ، بعين الاعتبار .

ومن يدري ، لعلنا نتمكن من ان نقدم للاقتصاد العالمي نموذجا فيه بعض الجدة ، نموذجا يمكنه التوفيق بين اختلاف الانظمة الاقتصادية والاجتماعية بخصوص السوق المشتركة والوحدة الاقتصادية ، بين البلدان ذات التجارة الحرة ، والبلدان التي تكون تجارتها بيد الدولة .

فنحن بحاجة اذن ، الى تطوير مفهوم الوحدة الاقتصادية العربية وبالتالي السوق العربية المشتركة ، تطويراً يجعل من العامل الاقتصادي اهم محرك في اعادة بناء الاقتصاد العربي الذي كان يتمثل في سوق اقتصادية واحدة لما قبل نصف قرن تقريبا .

ذلك انه لامجال لفصل السيادة السياسية عن السيادة الاقتصادية . ولا يمكن لقطر صغير ان يكون مستقلا سياسيا استقلالا حقيقيا اذا كان اقتصاده ينحصر بحدوده الضيقة . بل على العكس ، ان الاستقلال السياسي المتين هو ذاك الذي يعتمد في وقتنا الحاضر بالدرجة الأولى على مايسمونه باقتصاديات السعة او الحجم الكبير . ولنا في الولايات المتحدة الأمريكية ، والجمهوريات الاتحادية السوفييتية ، والسوق الأوروبية المشتركة ، اكبر دليل على مانقول .

لابد من اعادة النظر في مضمون اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ، ومحتوى اتفاقية السوق العربية المشتركة بهدف توسيعها لتشملا اكبر عدد ممكن

من الأقطار العربية ، وبهدف جعلها الأداة الحقيقية الفعالة لدعم الاستقلال السياسي ، والتطور الاقتصادي ، للمنطقة العربية بكاملها .

كتب الزعيم الأفريقي « ماما دوضيا » عن بلدان الشرق الأوسط هذه الكلمات : « ان القومية العربية طردت الغربيين من الشرق . واضطرت لفتح الباب امام مزاحم هو الاتحاد السوفياتي . وانها لتأمل ، بفضل حيادها الايجابي تحقيق افضل الثمار بالاعتماد على سياستها الجديدة . وليس من شك في ان القومية العربية تتعرض لمخاطر كبيرة في تبنيها هذه السياسة . ولعل الحكمة تقتضي جعل هذه السياسة تضم مجموعة بلدان الشرق الاوسط ، على اساس من التوفيق والتنسيق في المجالات الاقتصادية والتقنية ، ان لم اقل السياسية . اما اذا لم تؤخذ هذه الحكمة بعين الاعتبار ، فلن يكون هنالك اقتصاد مستقل لمنطقة الشرق الأوسط ، كائنة ما كانت الطرق والأساليب التي ستتبع ومهما كانت وفيرة وهامة موارد الثروة ، نفطية كانت أم لا ، كائنة ما كانت الخبرة المتوفرة ، كائنة ما كانت « استراتيجيات » التنمية المتبعة » .(١)

(١) Mamadou Dia : Nations Africaines et Solidarité Mondiale P. U. F. 1963, P. 65.

عرض تاريخه ـ خصائصه ـ التعاون العربي

للدكتور كمال غالي

رغبت « المعرفة » الى الاستاذ الدكتور كمال غالي ، استاذ القانون الدستوري والنظم السياسية في جامعة دمشق ، ان يكتب بحثاً عن الاقتصاديات العربية ومستقبلها ، اثر عودته (من المؤتمر الدولي الرابع لعلم السياسة المنعقد في بيروت بين ٢٩ تشرين الثاني و ٢ كانون الاول ١٩٦٥ ، فكتب لنا الدكتور غالي ، بحثا في الموضوع ، وصلنا متأخرا ، عند اختتام باب العلوم الاجتماعية ، في هذا الجزء من المعرفة ـ ٤٧ ـ .

ويتناول بحث الدكتور كمال ، فصلين رئيسين : اولهما عرض خصائص الاقتصاد العربي في مرحلته الراهنة ، وشيء من تاريخ تطوره خلال السنوات الاخيرة .

وثانيهما : فشل محاولات التعاون الاقتصادي العربي ، واسبابه .

ويسر (المعرفة) ان تقدم بحث الدكتور غالي لقرائها في عددها القادم .

كارل بروكلمان

اضطر تحرير المعرفة الى تأجيل نشر مقال عن حياة كارل بروكلمان المستشرق الالماني الذي ـ ورد ذكره في فهرس هذا الباب (العلوم الاجتماعية) ـ أمام ضغط المواد المرجمة للنشر. وينشر المقال في العدد القادم .

الكتاب والموضوعات

الآداب

ولادة جبران

بقلم نقولا قربان



لنعد قليلا الى الوراء ، الى ٦ كانون الأول ١٨٨٣ * ، لنشاهد في بشراي ولادة جبران من والده خليل جبران ، ووالدته كاملة بنت الخوري اسطفان عبد القادر رحمة ، وذلك في بيت متواضع حجري الجدران ، سقفه من التراب وخشب الحور ، مستطيل الشكل كالبيوت القديمة . ولكم فُتِح باب ذاك البيت ثم اغلق في يوم مولد جبران ، وهو كلما فُتِح شرّع شدقه على الزمهرير والضباب ... ولعل اول شيء قرع سمع جبران في ذلك النهار من الشهر البارد ، صرير العاصفة المجنونة وقهقهة ابيه السكران ، ولعل اول شيء اجتذب حدقتيه الواسعتين ألسنة نار الحطب وهي تلغط في الموقد ترحيبا بالمولود الجديد .

* لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاة جبران ، والاستعداد في لبنان لاحياء ذكراه الخالدة .

ثم شرع الطفل ينمو رويدا رويدا ، حتى اصبح غلاما تدرج قدماه في دروب بشراي البلدة الجبلية الريفية .

وما عساها تكون بشراي ؟؟؟

انها همزة وصل بين واد سحيق ، وهضبات عاليات ، والسماء . فعلى هضبات بشراي تنقطع المسافة بين السماء والأرض ، ويصبح الأفق بعض لون مطروح على التراب . وتكاد لا تخطو في حضن الطبيعة بضعا من خطاك ، حتى تصادف هنا كهفا يقطنه الظل ، وهنا هاوية تجتذب اعماقها البصيرة . اما الصخور والأشجار فان اجسادها تتعانق في كل مكان بقلق صامت ابدي ، او تنفرد في عزلة من نفسها على قمة مشرئبة الجبين الى الشمس او الظلمة او الضباب...وتستحم اقدام العابرين في بشراي بالظل اكثر مما تستحم بالنور الذي يتسرب بين اوراق دالية تعرشت فوق سنديانتين وحورة ، أو بين شجرتي بطم تشابكت سواعدهما في ازوع عناق . ولا تكاد البلدة تخلع عن نحرها غمامة التفت بها كالعباء منذ الصباح ، ثم سرحت الشمس على كتفها بعض ساعات ، حتى تأتيها غمامة قبل العصر فتنهمر على جسدها المقشعر ، وتسيل في شعابها وكأنها بالف ساق والف ذراع . ولكم يشعر المرء فيها ببعض الوحدة فتراه واقفا امام نفسه وجها لوجه ، ولكنه يأنس لمجاورة الطبيعة فيشعر ان بينه وبينها قرابة تسمر اخمصه في جذور التراب !!! ولكم يشعر الواقف فيها بانه يقرع بقبضتيه أبواب المجهول ، فحتى الشبابيك لها ارواح تتطلع الى الغيب وكأن افواهها المشدوهة المخضبة علامات استفهام رسمها البشراويون ، ابناء الظلمة وابناء النور ، على جبين القدر . وماالقدر في بشراي سوى واد ازلق هنا ، وقمة صلبت هناك ، وصخرة اتكأت على صخرة ،

وديك وقف على السطح ينثر من منقاره شلال ضحك احمر ، وكواحل اغنام تسير في لوالب الدروب ، وسواق بين مهدها ولحدها ضربة حجر ، ثم قطع ارض تأكل من عرق فلان وفلان ...

في هذا الجو من الطبيعة ترعرع جبران الحدث ، فلا عجب اذا انطبعت على صفحة نفسه المتوهجة التأثيرات الأولى لما رآه في بيئته ، ولما سمعه ووعاه . ويشعر من قراءة ادب جبران بجملة ان هذه الطبيعة حفرت في غريزته مجاري عميقة ما امحت من كيانه طوال حياته . فالفتى الذي كان ينحدر الى وادي قاديشا ملتجئا الى المغاور والكهوف ، هو ذاته ذاك الرجل الذي ماانفك ينحدر الى اودية الروح بحثا عن سكينة الانســـان ، والفتى الذي كان يعود الى تسلق المنحدر والرابية هو نفسه ذلك الشاعر الملهم الذي مابرح طيلة حياته يتسلق رابية الحس مشرئباً بجبينه الى العوالم التي تنزل منهـا على شفتيه قطرات النبوة . بل اكثر من ذلك فقد ظلت مظاهر الطبيعة معينا لاينضب لمادة ادبه،ينسخ عنها الفاظه وتعاريج تعابيره والوان اوصافه . فهو مثلا عندما يصف الموسيقى يصف وقفاته امامالطبيعة واثرها في نفسه فيقول :

(لا يدري الانسان مايقوله العصفور فوق اطراف الأغصان ،ولاالجدول على الحصباء ، ولا الأمواج اذ تأتي الشاطيء ببطء وهدوء ، ولا يفقه مايحكيه المطر اذ يتساقط منهملا على الأوراق ، او عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلور نافذته ، ولا يفهم مايقوله النسيم لزهور الحقل ، ولكنه يشعر ان قلبه يفقه ويفهم مفـاد جميع هذه الأصوات ، فيهتز لمااثارة بعوامل الطرب ، ويتهد طوراً بفواعل الأسى والكآبة . اصوات تناجيه بلغة خفية ، وضمتها الحكمة قبل كيانه ، فتحدثت نفسه

والطبيعة مرات كثيرة وهو واقف معقود اللسان حائراً،وربما ناب عن لفظه الدمع، والدمع افصح ...) .

فجبران يفصح هنا عن الحوار الذي كان يدور دائماً بينه وبين الطبيعة . فالطبيعة لم تكن بالنسبة اليه مظهراً او مجموعة من المظاهر العادية ، انها محراب حي يقف الشاعر في داخله مكشوف الرأس ، جائع القلب . أما الحوار الذي يجري بينه وبينها فهو حديث القلب للقلب . فجبران يفهم الطبيعة بقلبه وحسه، ولايحاول ان يفلسف معانيها فلسفة عقلية ، وانه ليبلغ في اتصـــاله بها درجات التصوف والذهول ، اذ ينعقد لســـانه امامها فتنتابه استشراقة لايستطيع معها التعبير بغير الدمع .

وها هوذا في « يسوع ابن الانسان » يتحدث عن امتزاجه بالطبيعة التي عاشت في قلبه ، فيقول بلسان عساف الملقب بخطيب صور :

(كلنا عند التحقيق زارع . وجميعنا نعشق الكرمة . وفي مراعي ذاكرتنا يوجد راع وقطيع وخروف ضال وهناك ايضاً محراث ومعصرة وبيدر ...) .

ثم يضيف :

(ان مثل هذه الكلمات تحمل السـامعين الى ذواتهم السـاذجة والى ايامهم القديمة الهادئة) .

فجبران في حياته لم ينس طبيعة بشراي كما صورت في نفسه،وهو صبي . ولقد كان في حياته فراديس كثيرة مفقودة : حبه الأول لحلي ضاهر ، وفقدان العطف الأبوي ، والمركز الاجتماعي في بيئة غلت عنقها سلاسل الاقطاعيـة .

ولكن فردوسه المفقود الأول كان طبيعة بلدته التي انفصل عنها كما ينفصل طفل عن ثدي أمه .

ولقد كانت أياماً محزنة بالنسبة للأم ، عندما راحت تبيع مؤثثات البيت البسيط ، لتوفر قسطا من (ناولون) السفر الى امريكا ، ولعلها استدانت القسط الثاني من بعض اقاربها الذين يعطفون عليها . وقد كانت تلك المبيعات مؤلفة على الأرجح من صندوق قديم منقوش صنع من خشب الجوز المتين، ومن بعض شراشف مطرزة ، وبعض الآنية النحاسية . ومن المحتمل ايضا ان تكون والدة جبران محتفظة ببعض قطع الصيغة الذهبية وذلك من زوجها الأول الذي كانت قد اقترنت به قبل اقترانها بخليل جبران ، زوجها الأول الذي رافقته الى البرازيل حيث توفي هناك . فوجدت كاملة الفرصة مناسبة لتبيع مصاغها لتؤمن اجرة السفر بطريق البحر لها ولأولادها الأربعة : بطرس ابنها من زوجها الاول ، وجبران وشقيقتيه مريانا وسلطانة .

وكان عمر جبران عندما سافر مع والدته وشقيقه وشقيقتيه احدى عشرة سنة . وكان موقفه من السفر ومغادرة البيئة موقف الطفل الصامت الذي يجمد فكره بالأشياء التي تسيره ، دون ان يفقه لها معنى كبيرا . الا انه ربما شعر بدوار في رأسه عند انفصاله عن الأرض التي يحس كل طفل انه جزء منها . ولربما سأل نفسه الى اين هو راحل مع والدته ، ولماذا يغادر بيته وملاعب طفولته ، حيث كان يود ان ينشأ مع اترابه ، وان يداوم الذهاب وايام الى المدرسة لكي يتعلم . ولعله تساءل ايضا لماذا يتركون اباه وحده في الوطن ، انه ولاشك يخاف من أبيه ، الذي يزمجر عليه كلما دارت الخمرة في رأسه ، بل يهدده بالضرب لأقل

حركة يأتيها. ولكنه يفقه معاني الأمور التي تقوده وتفرض نفسها عليه فرضاً .

لقد احس جبران منذ طفولته بفقدان العطف الأبوي بالنسبة لأبيه . كما انه لم يلتمس الشخصية في هذا الكائن شأن كل طفل تستهويه رجولة والده،لأن الوالد كما ذكرنا ، كان شبه عاطل عن العمل همه الوحيد ان يعزمن كاسات العرق التي توصله الى درجة السكر والثرثرة والتحرش بامرأته وأولاده بطريقة ترعبهم . لذلك فقد مال جبران الى أمه ، واخذ يشعر ان عطفها انما هو جناح وثير يرف في أفق نفسه . وهذا ماشحذ في نفسه الحساسية الأنثوية المرهفة ، وفجر فيها سواقي موسيقية رقيقة ، ذات امواج حريرية . ولقد أخذ جبران فيما بعد يفولذ ارادته ، ويصهر عواطفه في بوتقة الرجولة . ولعله عنف ذلك بعد قراءته نيتشه ، ولكن تأثير نيتشه ظل سطحيا بالنسبة لنفسية جبران ، ذلك أن تأثير أمه عليه كان قد نمى في نفسه جذورا عميقة ، بالاضافة الى مشاربه الشرقية وتأثيرات التوراة والانجيل ونهج البلاغة عليه .

وها نحن نراه وهو في حدود الحادية عشرة ، ينفر احياناً من ابيه ، ويتجرأ على الاجابة عليه بما يثير غضبه بعد ان يكون قد افرغ في جوفه بعض مدفآت العرق ، فغدا نزقا لا يقارب ولا يطاق . ومرة طلب الأب من الابن ان يذهب الى بائع العرق ، مصطحباً معه القنينة ليملأها له البائع مرة ثالثة في ذلك النهار ، دينا جاريا على الحساب . ولكن الفتى جبران مانع وتردد ، ولعله انس غمزا او همساً خفياً من قبل والدته فتأفف اباه وخرج من البيت متجهاً الى بيت الجيران لكي يتجنب الحاح والده السكير . ولكن الوالد شعر بجفاف جوفه ويباس حلقه فمال الى القنينة يعصرها مرة رابعة وخامسة . وسرعان ما تذكر تقاعس جبران عن اداء الوظيفة التي كلفه القيام بها فزمجر صارخاً :

ـ جبران ... جبران !

فلم يلق سوى جواب الأم التي قالت ان ابنها ذهب يلعب عند الجيران فوثب الوالد عندئذ ، ووقف قدام الباب واخذ ينادي ابنه بأعلى صوته .

فسمع جبران صوت ابيه ، وعاد متثاقل الخطى . فغمغم الوالد في وجهه قائلا :

ــ اما قلت لك ان تأخذ القنينة الى البائع ؟؟؟

فحدق جبران في وجه ابيه بعينين واسعتين دون ان يجيب بكلمة واحدة.

ــ لماذا تنظر الي بهذا الشكل ايها الصرصور ؟

ــ لست صرصوراً ، ولا اريد ان اجلب لك شيئاً !

ــ لتواقح ايضاً فتجيب في وجهي ؟

وعاجل الوالد الغلام ، فامسكه بيدين كلابتين ، ثم أخذ يضربه ويلكمه والولد يصرخ صراخا شديداً . فما كان من الوالد الحـــانق الهائج الا ان جر ابنه الى السلم وربطه فيه يريد ان يذبحـــه . ولكن صراخ جبران الصبي ، وصراخ والدته التي هرولت كالمجنونة ، عجلا بتراكض الجيران ، ومن بينهم صبية تدعى حلا طاهر ، وخادمة كهلة ، فامسكوا بالوالد وادخلوه الى البيت ، ثم فكوا وثاق الصبي واخذوه الى بيت مجاور ، وهو صامت والدموع جارية من عينيه.

عبد الحميد الديب

شاعر البؤس والهجاء

لأحمد الجندي

شاعر غريب الوجه واليد واللسان كما قال المتنبي ، لايمت الى أحد من الناس بسبب ولا يتقرب من قريب ، مشى وحده خمسة وأربعين عاما لم يرض عن انسان ولا رضي عنه انسان ، متشائم ، كاره ، فقير بائس ، لو جاء الغنى لأنكره ، ولو علق بالمال لأبعده عنه بقوة البغض وحنق الضغينة . لقد أصبح غريباً عن العالم بين يوم وليلة ، واصبحت غرابته تلك مثارا للرحمة أول أمره ثم بالغ بها القدر فأصبحت مصدراً للنكتة الجارحة والضحكة الصارخة وحتى أصبح صاحبنا الشاعر محاطاً بأصحاب النكتة والسخر اللاذع ، وكان أضيق الناس صدراً بهؤلاء ، وأبعدهم عن مقاصدهم وأهدافهم :

كان عبد الحميد الديب معروقاً ضعيفاً مهلهل الثياب موخوط اللمة مهتز المشية غير معني بمظهره ، بعيداً عن كل أناقة أو زينة ، وربما كان منظره في بعض الاحيان داعياً للتقزز لطول شقائه في تجواله الدائم ولشدة اضطرابه في حياته اليومية فما كان أحد يعرف له مقراً أو مستقراً ، ليس له مقهى يجلس فيه الى أصدقائه ولم يكن له مطعم يعرف بارتياده ، كانت غرفته متنقلة بين مكان وآخر كبيوت الغجر فاذا اهتديت الى غرفته وجدت فيها أعجب شيء تلقاه ، لا فراش ولا دثار ولا مقعد ولا منضدة الا جزازات من الاوراق كتب عليها أبياتاً من الشعر بخط عجيب مرتجف مضطرب ، ثم كومة من الجرائد القديمة قد بسطت على الارض ، بعضها فوق بعض مما يشعرك ان الشاعر يتخذها فراشا له .

كان يتردد على الناس من أدباء وكبراء. أما الأدباء فلأنه يحبهم ، لانه أديب انه يجلس اليهم لأنهم وحدهم الذين يستطيع أن يجالسهم ، ولو أنه كان يكره البشر جميعا ، ولكن الادباء يبعدون بعضهم عن الآخر لأن المنافسة والحسد تسيء دائمـاً الى الروابط ومن العجيب أن يتفق هؤلاء الأدباء من رواد مقاهي القاهرة على الائتمار بعبد الحميد الديب ، ليجعلوه غرضا للتنكيت وهدفا للسخر والايذاء ، واما الكبراء فما كان يحبهم أبداً وهو الفقير المعدم ، ولكنه كان يلجأ اليهم لينال عطاءهم ثم لينقلب عليهم فور حصوله على العطاء فيهجوهم أقذع الهجاء .

كان عبد الحميد يعتقد أنه أحسن الى الأدباء لأنه رفـع منزلتهم ، وكان يرى أنه محسن للكبراء لأنه نوه بفضلهم فكان يقول ، وهو لسان حاله :

بين النجوم اناس قد رفعتهم	الى السماء فسدوا باب أرزاقي
وكنت نوح سفين ارسلت حرما	للعـالمين فجـازوني بأغراقي

ولد الشاعر عبد الحميد الديب عام ١٨٩٨ في قرية « كمشيش » من قرى مديرية المنوفية في مصر ووالده هو السيد الديب جزار القرية في مواسمها لأن أكل اللحم لم يكن في كثير من القرى المصرية متاحاً الا في المواسم والأعياد .

وبدأ الشاعر حياته الدراسية في القرية على يد أحد الفقهاء فأخذ في حفظ القرآن وكانت الطريق التي رسمها له والده طريقا دينية خالصة وكان مثل والده الاعلى أن يرى ولده شيخاً معمماً أو يراه استاذا بين الفقهاء فحرمة الدين أمر سائد بين سكان الريف المصري ، لكن الشاعر خيب ظن والده ، بل خيب ظن كل من تأمل عنده الخير لان طبيعته كانت عارمة ولان انسياقه مع عاطفته الرعناء قد شل حركته وصرفه عن الطريق المأمونة الى طريق اخرى مليئة بالعثرات والآلام.

ولكن الشاعر أكل طريق التحصيل ، أو هو حاول ذلك نزولاً عند أمر أبيه فذهب الى الازهر والازهر لم يكن حاتيك الأيام المكان الذي يعيش فيه شاعر عصبي المزاج كالديب اذ كان المنتسبون الى هذا المعهد الاسلامي الكبير أقرب الى الفقر والفاقة يعيشون على خبز الازهر الذي وصفه طه حسين ، وهو أحد طلابه فقال : وويل للازهريين من خبز الازهر . لقد هرب الديب اذن من الفقر الى الفاقة كالمستجير من الرمضاء بالنار . وتصور تلك الابيات الآتية ضيق الشاعر بحياة الازهر ، وقد ذهب في أحد الايام الى الاسكندرية ، ثم عاد ليطوف بانحاء القاهرة هادىء البال مطمئن الفكر ، وعن على باله الشعر فذكر أهله وما هم فيه من بلاء وبؤس وكان اليوم يوم عيد فقال :

يامعشر الديب وافى كل مغترب	الا غريبكم في مصر مابانا!
ذبحتم الشاة قربانا لعيدكم	والدهر قدمني للبؤس قربانا!
من كان يحسدني فليرتقب سحرا	اني على الجوع أطوي الارض حيرانا!
ليلتمسني لدى الخمار يحبسني	في « القسم » آنا وفي حانوته آنا!

من هذه الأبيات ، والأخير منها خاصة ، يبدو القارىء أمر جديد عند هذا الشاعر فهو قد اعترف بانصرافه الى الخمرة ، والملذات والشهوات بصورة عامة، وقد أدى به ذلك الى الانهيار الخلقي والاضطراب السلوكي فآمن بالشهوات مبدأ واتخذها له علالة وملجأ ، وكان من الطبيعي أن يكون كذلك لأنه لايستطيع أن يقف مكتوف اليدين أمام البؤس والشقاء وان على المرء أن يثور على الشقاء اذا استطاع الى ذلك سبيلا .

فقد كان يشرب الخمرة ، وكانت هذه الخمرة ، وهي أم الكبائر ، تؤدي به الى السجن أحياناً أو الى الخلاف الشديد مع صاحب الحانوت حتى يفتضح أمره ويتسامع الناس بخبره وربما ظل كذلك ساعات أو أياما حتى يبعث الله له من يعرفه فيخلصه مما هو به . واذن فالديب لم يكن من أصحاب المزاج الذين يرون في الخمرة مداما أو سلوة ، انها بالنسبة اليه دواء يتجرعه من اصيب في حياته بالشقاء السرمدي ليترك هذا الوجود ولو هنيهات من غيبوبة أو فقدان وعي كما يحدث لمن يفرطون في الشراب على غير هدي أو عقل .

ولقد ارتبط شاعرنا منذ نشأته الاولى بالفقر وحديث الفقراء حتى صاروا أهله وبطانته ، أحب الاحياء الفقيرة فكان يجلس الى أهلها المدمنين الجاهدين أو يتحدث الى البائسين المكدودين فيسري عنهم ، وسرعان ماعرفه الموسرون من أغنياء التجار فأعرضوا عنه هربا من هجائه

واستخفافا من سلاطته وشتائمه ، فاذا انحدر الى المقاهي الراقية أخذته الأكراش المتنفخة والبطون المسترخية والقدد المتهدلة والآناف المتعالية وربما هجم عليهم فانتزع منهم بعض القروش ليرجع الى جوه الفقير الذي اختاره له القدر ، وكثيراً ما كان الفقر يحرك عاطفته على اولئك الزملاء ليشكوا باسمهم ظلم المجتمع وليعبر عن آراء هذه الطبقة التي ران عليها الجهل والفقر فتركها عاجزة حتى عن الشكوى . واستمع اليه يصف الرغيف وقد شاهده في يد أحد الفقراء الجائعين :

صَغُر الرغيف كأنمــا هو قطعة من قلب تاجره وجلد البـائع

هل صار وهماً ، أم خيالا ، انــه قد عاد غير مؤمل أو نافـــع

قـــد كان شبحاً للطعام فمــا له قد صار شبه وليد شهر سابع

«جوعوا تصحوا» واذكروها حكمة فالمجد لم يكتب لغير الجـــائع

وينتقل الديب بعد ما مر بك من حياته من الأزهر الى مـــدرسة أخرى كانت شهيرة يومذاك ، انتقل الى دار العلوم وكانت تعنى عناية فائقة بالأدب والشعر وتسير على نهج الشيخ المرصفي مؤسس الدراسة الأدبية في مصر واستاذ طه حسين ، واحمد امين ، والزيات وغيرهؤلاء الأزهريين الذين انشأوا الأدب العربي الحديث والمرصفي هنا هو صاحب كتاب « الوسيـــلة الأدبية » التي كانت مفتاح التأليف الأدبي والنقد العلمي ، ولكن الديب لم ينتقل الى دار العلوم حباً بالادب بل طمعاً بالمكافأة الشهرية التي يمنحها طلاب هذه المدرسة فهو بدلا من أن يقبض خبزا بعينه ، كما كانت الحال في الأزهر ، أخذ يقبض دراهم معدودة ينفقها في لحظات ولكنه يجد في يده شيئاً من المال على كل حال . يضاف الى ذلك أنه أخذ بعض اللذة في دراسة الشعر ، على الطريقة الجديدة وخاصة المعلقات وتاريخ الأدب الاسلامي والأموي والعباسي .

ولكن الديب لم يستمر في حياة دار العلوم ، وسرعان ما كرهها ، وراح ينتقل في عدد من المدارس الاهلية حتى اذا اعياه الامر عاد الى القاهرة ليمكث فيهـا حتى آخر حياته . فلقد كان يحب هذه المديـنة حتى كان يسميها « عش الذكريات » وهو تعبير يوحي بالضحك والاسى معاً ، وما عسى ان يكون لهذا البائس المسكين من ذكريات ، الا ذكريات ، الجوع والظمأ .

وازداد فيه الفقر حتى ادى به الى التشاؤم المرير ، والى سوء الظن بالناس اساءة لاتقبل هوادة وليناً حتى صار يعتقد بأن الناس جميعاً يعملون للحيلولة بينه وبين الراحة والهدوء وانظر الى قوله في ذلك :

وكم موت النعمى علي [ببسمة فأبعدها عني وضيع الوسائل

فقد كان هناك من يبعد عنه النعمى بأوضع الوسائل ، وهـذا هو التشاؤم الذي يخلق المرء عدواً غير موجود وضداً غير كائن ، ولا ننسى بهذه المناسبة الكاتب الفرنسي جان جاك روسو الذي أدى به تشاؤمه الى الاعتقاد بان الناس يجففون له حبر دواته عن سوء نية .

وآلم ما كان يؤلم هذا الشاعر الحساس انه بات بنظر الناس غير محبوب ولا موثوق حتى صاروا يهربون منه فاذا تحدث استكبروا ماجاء بحديثه واذا حلف لهم على الصدق اعتبرت يمينه غير صحيحة ولا موثوقة لقد اخذ يحس بانحطاطه عن مستوى الانسان وهذا ماعبر عنه بقوله :

افنى صبوحي في المنى وغبوقي   اني امرؤ كسدت بقومي سوقي
لولا مناوأة الزمان لهمتي   ازرى بنور الشمس نور شروقي
اقسى علي من الخطوب تبرم   بي من قريب عاطف وصديق

ولكن الديب رغم كل شيء لم يكن وقحاً مشاكساً ولم يكن قوي الشكيمة متسلطاً بل لقد كانت تغلب عليه المسكنة والطفولة مع حياء شديد يعوقه عن كل مايريد وتلك كانت مصيبة كبرى عنده ، فهو لم يهاجم انساناً وجهاً لوجه وان هاجم بشعره وهجائه والحياة كثيراً ماتحتاج الى المناضلة والمشاكسة والجهر امام الناس بالرأي مهما يكن هذا الرأي شاذاً او مكروها والنظر الى قول الشاعر يعبر عن هذه الصفة الغريبة عنده :

لولم يكن نبل الحياء طبيعتي   اقسمت ماعرف البقاء طريقي
فبكل مضمار سبقت وانني   لأعيش عيشة خامر مسبوق

ثم اقرأ له :

حظي ومصرعه في لين اخلاقي   وفيض عطفي على قومي واشفاقي
يا امـة جهلتني وهي عالمة   ان الكواكب من نوري واشراقي
وليس لي من حبيب في دياركم   الا الحبيبين اقلامي واوراقي
وما نالت من خطب ضحكت له   كما نألت من خطبي بعشاقي
أنا على القرب منهم كل متعتهم   وان نأيت حبوني فيض اشواقي
فما لهم قد اشاعوا كل مخجلة   عني وقد اعلنوا بؤسي بأبواق

انه يملك « نبل الحياء » وذلك سبب شقائه ثم هو « لين الاخلاق » يتحلى «بالعطف» على قومه و « يشفق » عليهم فلا يجوز ، في رأيه ، ان يحملوه سلوة لهم وان يجرحوا سمعته حال غيابه مع انه لايضير لهم الاكل خير .

والحقيقة التي لاحقيقة غيرها ان التشائميين من امثال الديب مطبوعون على الاعمـــال التي تخالف عقلية المجتمع لذلك فالمجتمع ينبذهم ويبعدهم من طريقه لانهم خالفوه وساروا في طريق غير الطريق التي اصطلح عليها الناس ، وتشترك الطبيعة والاقدار في خلق المشـاكل لهؤلاء البائسين فلا يستطيعون الخروج منها الا بعد ان تثخن فيهم وتؤذيهم وتعرضهم للسخر والدعاية القاسية ، واقرأ معي القطعة الآتية التي رواها عبد الرحمن عثمان صديق الشاعر ومؤرخه لترى حكمة القدر واثر المصادفات في حياة الشاعر الديب ، قال الدكتور :

كنت مقلساً حين التقيت بالديب وهو في حالة من الاعياء والتعب شديدة فقد كان جائعاً لم يتناول غداءه وكانت الساعة قد أوفت على السادسة مساء وقد كاشفني بدخيلة امره لما بيننا من صداقة ومودة فاستعرضت في مخيلتي اسماء الاصدقاء الذين لايبخلون لي في مثل هذه الاحوال علني اجد لديهم قروشا اهيء بها للجائع الصديق طعاما وقهوة ولفائف تبغ وكان الصديق النبيل (عبد الحميد قطامش) في طليعة الاسماء التي قفزت الى مخيلتي فصحبت الديب الى حيث يسكن ذلك الصديق ولكنا وجدناه قد سافر الى بلدته ، وحين علم الديب بذلك تجهم وجهه قليلا ليقول لي : هذا نذير سوء ، ولأنني لم اجد في سفر الاستاذ قطامش امرا غير طبيعي جذبته في عنف لنطرق باب صديق آخر كنت اقترض منه في الازمات وقد راعني ان يقول الديب على الفور : ان قلبي يحدثني اننا لن نجد صديقك هذا بل ربما نجد داره قد انتقلت من الحي الغربي الذي يقيم فيه الى حي آخر من احياء القاهرة ، فضحكت من طرافة النكتة وحلو الفكاهة ثم مضينا الى غايتنا التي كنت اقصد وحين طرقت الباب خرج الي من يسكن بجواره ليقول لي : ان جاره قد اصيب بحادث منذ ساعة وقد حمل الى المستشفى ، وحينئذ تلفت الى الديب في ذهول وفزع فوجدته مغرورق العينين حزين النفس وجذبني لانصرف معه وهو يقول « الم اقل لك ياصديقي انني ملعون في السموات والارض فقد جنى حظي على زميلك المسكين فليته مادار بخلدك حين رمت تفريج كربتي » .

الا تذكرنا هذه القصة بقلم « غزل البنات » الذي صور به الاستاذ نجيب الريحاني شخصية المعلم البائس الذي يلاحقه البؤس فلا يتركه ، ان شخصية الاستاذ حمام ، لانعني المرحوم الاستاذ الصديق مصطفى حمام الاديب المصري والمحدث المشهور ، وانما هي مزيج من شخصيتي مصطفى

حمام وعبد الحميد الديب صديقه الآخر ، بل ربما كان حظ الديب من هذه الشخصية اكبر بكثير من حظ الاستاذ مصطفى حمام اليس الديب هو القائل :

وهام بي الأسى والبؤس حتى كأني عبلة والبؤس عنتر

ولكن الناس ، او بعض الناس قد يتجردون احيانا من الشفقة والرحمة على مثل هؤلاء البائسين ، او قد تنقلب اللذة عندهم عامل الشفقة فيسمون الى اثارة هؤلاء البائسين المنكوبين في شخصياتهم ، من ذلك ان الكثيرين من اصحاب الصحف كانوا يلفقون الاخبار ويخترعون النوادر حول عبد الحميد الديب . وانظر الى مانشرته احدى الجرائد المصرية في زمن من احلك الازمان التي مرت بالشاعر المسكين ، قالت الجريدة « سقطت قنبلة في حي ثمرة فانفجرت طبيخاً وقد هرع الى مكان الحادث الشاعر عبد الحميد الديب » .

النكتة فيها قدرة على الاختراع ولكن نتيجتها مؤلمة وما رحت طول حياتي بنكتة فيها استغلال او اساءة مهما كانت مضحكة لان هذه الروح المستغلة المسيئة تخالف غاية النكتة ونبلها وكله يرمي الى ادخال السرور على قلوب الناس .

هذه النكتة الجارحة وامثالها ، يضاف اليها عدد من الاقاصيص والحكايات قد عجلت بالنهاية المحتومة لهذا الشاعر المسكين فانصرف الى السكر الشديد وتعاطي المخدرات والركون الى الحانات الفقيرة في حي من احياء القاهرة ، وكانت حانته المفضلة تدعى « حانة الخاخام » ومن هناك وهو نشوان وسكران ، كان ينشد هذه الأبيات العجيبة :

هات المدام فدين الله تيسير فاسعد الناس مخمور ومخدور
هات المدام ولا تعوض لمتربتي مهما غلا العيش لم تغلُ القوارير
هات المدام الصبوح السكو يحملها اليك اخنس ساجي الطرف مغرور
اذا دعوت تراخى عنك معتذرا واسكوت كالطلا منه المعاذير
قديتها حانة « الخاخام » هادئة سكوى يعوبدفيها الحسن والنور

والمرة الأولى اتحدث اليك عن جمال شعر الشاعر الديب فان هذه الأبيات لن تجد مثلها ولو بحثت كل ما لديك من الشعر العربي في هذا الجيل ، بل انها لأبيات تنقلك في لحظة الى ابي نواس بالذات ، حتى اني شككت حين قرأتها لأول مرة بصحة نسبة هذا الشعر الرائع لعبد الحميد الديب ، الا ترى ما في قوله من جمال : واسكوت كالطلا منه المعاذير ، او قوله : سكوى

يعربد فيها الحسن والنور ، انه وصف بود ليري او فيرليني ، بل انه اقرب الاوصاف الى ما كان يتحدث به اوسكار وايلد في مقاهي مونبارناس والحي اللاتيني .

إن حياة اولئك الشعراء تذكرك بالحالة التي وصل اليها عبد الحميد الديب في اخريات ايامه كان ثائراً على كل شيء ، ان اعطاه احد لم يشكره الا ريثما يصحو الى نفسه ليشتمه اقذع شتيمة فهو يقول لاولئك المحسنين :

احبس عطاءك مالي فيه من ارب ما في العطاء سوى قهري واذلالي

يا ضيعة الشعر يرضى بالعطية من ايدي طغام وجهـــال وانذال

ويشفق على الشاعر وزير الأوقاف الاستاذ عبد الحميد عبد الحق فيعينه كاتباً في وزارته ويأتي بعد أخذ ورد واحجام واقبال فيقال له : هذه منضدتك وسيأتيك المقعد بعد قليل ، وانتظر الشاعر وهو يروح ويجيء بلا كرسي يجلس عليه حتى انتهى العمل في الساعة الثانية فخرج مغضبا وكتب هذا البيت من الشعر على ورقة ارسلها مع الآذن الى الوزير وفيها :

بالامس كنت مشردا اهلياً واليوم صرت مشرداً رسميا

ويذكر عرس الملك فاروق وما انفق فيه من مال ذهب بددا فيقول ساخراً غير هياب ولا وجل :

أأصوغ في عرس المليك قصيدة وانا الى الموت الرهيب زفافي

ويعير بالّه حزب « السعديين » من جماعة احمد ماهر والنقراشي فيقول فيهم :

برامكة وليس لهم رشيـــد واقيال وليس لهم عبيـــد

مدحتهم فما شرفوا بشعري ولحتهم وما شرف القصيد

وصغت هجاءهم فاذا الاهاجي على الأفواه لحن او نشيد

لقد تنبأ لهؤلاء البرامكة – اي السعديين – رشيداً وكأن الديب قد تنبأ بمقتل ماهر والنقراشي وهذه من المصادفات العجيبة .

ويعطي الوزير المعروف دسوقي اباظـــة الشاعر عشرة جنيهات ، ويأتي الاستاذ كامل الشناوي ليثير الشاعر على الوزير ويقول له ، وما الذي اعطاك ، لقد ربح اليوم عشرين الف جنيهاً في البورص وثار الشاعر فعلا فقال على الفور وما تزال في جيبه بقية الجنيهات العشرة :

ابلغ اباظة عني انهم ورثوا مالا ولم يرثوا دينا ولا خلقا

وضحك الوزير لانه كان قد تلقى مديح الشاعر قبل ايام وفيه يقول :

وما لي لا ازور حمى كريما   تكنّف حافظاً ورعى حماما

وهو يعني بذلك حافظ ابراهيم ومصطفى حمام صديقه « اللدود » على حد قول حمام رحمه الله . والتقى حنفي محمود الشاعر بأن يهجو كامل الشناوي الصحفي المعروف وكان يجلسان في مقهى بار اللواء المشهور فقال على البديهة :

بار اللواء لعنت بالشناوي

ثم همس بأذن حنفي محمود يقول : **ووزنت قبلا بالثقيل الصاوي**

وكانت مشكلة بين الصاوي محمد والشاعر ، واعتـــذر الشاعر للمرة الأولى في حياته بأن القافية هي التي ارغمته .

ويهجو كامل الشناوي ومصطفى أمين دفعة واحدة وكانا رفيقين فيقول فيهما :

ويجتمع البـــدين الى طويل   غني من اسى الأيام خـــالِ

والبدين هو الشناوي والطويل هو مصطفى أمين .

ثم يخترع قصة يصف فيها غزل الشناوي باحدى العذارى :

وبين يديه واحدة العذارى   شرى يدها بكأس أو بمال

تغمغم اذ يقبلهـــا استياءا   كأن الفيل يعبث بالغزال

هذه خطوط من صورة متشابكة الظلال مضطربة الأشكال فاذا جمعنا بعضها الى بعض استطعت ان تتصور هذا الشخص الغريب والشاعر العجيب ، رجل متفرد مدمن على الشهوات والعادات المبيدة القاتلة لا يرضى عن الـناس الا ريثما يضع عطاءه في جيبه فاذا استوى لديه العطاء بادر الى الهجاء ليرضي طبيعته الهدامة وشخصيته المخيفة الناقة .

أما شاعريته فطامية قوية ولكنها شاعرية الرجـــل الذي لم يحسن التصرف بموهبته أو مواهبه الفنية الكثيرة التي ظلت كل حياة الرجل محتاجة الى التأليف والترتيب والتنظيم ، وأنت تستطيع أن تجد في شعر الديب كل ماتصبو اليه النفس من لمحات فياضة بالحسن والمعاني ، ولكنك تشعر أيضاً بعد أن تقرأ هذا الشعر بنقص لاتعرفه ، وفي الحقيقة أن شاعرية الديب كانت محتاجة للعقل المدبر الذي يسوي هذه المواهب فيصقلها ويضع كل واحدة في محلها ، كما هي محتـــاجة

« للصناعة » الفنية ، الصناعة التي هي سر المهنة ، فالديب شاعر ينظم على البديهة وبسرعة وربما كتب شعره في الظلام أو على أرصفة الشوارع أو في المقاهي الخاصة بالزوار ، ومثل هذا الشعر الذي يأتي سريعا لابد أن يعاد النظر فيه ليصقل ويهذب ويشذب فالارتجال آفة الشعر اذا لم يعد الشاعر النظر فيما ارتجل والارتجال من عمل البديهة التي يتعطل فيها العقل عن العمل والتي يصبح فيها الشاعر كالآلة الناقلة المسجلة ، حتى اذا تم تسجيل ماجاءه من شعر عمد بعد أن تهدأ هذه « الدفقة » الى الاطمئنان والتسوية والتهذيب فغير لفظة وبدل أخرى حتى تخلص القصيدة الى الحالة الأخيرة التي يقرؤها القراء . ولو أن الأدب الجاهلي استعان بالكتابة والتدوين لكان لنا منه شعر يمكن أن نباهي به الامم بل أنا أعتقد أن السر في انحصار الشعر الجاهلي على المقطعات الصغيرة والقصائد التمة المبورة وانصراف الشعراء عن الوان من الشعر عرفت عند اليونان والرومان من تمثيل وملاحم ،ان السر في كل هذا ان العرب كانوا يعتمدون على الذاكرة في رواية الشعر ، وان الشاعر كان يتكىء في عمله الفني على البديهة الطلقة والبديهة وحدها محتاجة الى الصنعة تشذيبا وتهذيبا وتسوية واصلاحا .

ولكن عبد الحميد رغم ذلك كله كان مطبوعاً ، يما في هذه الكلمة من قوة ، وانظر الى هذه اللمحة الخاطفة يهجو بها مصطفى النحاس زعيم أكبر حزب في مصر :

راجـع زمانك أيهـذا الكاس فاليوم لانحس ولا « نحـاس »
لم يبق من مجد الزعامة كلـه الا قميص أزرق ولبــاس

وانا موقن ان هذين البيتين قد طغا الفصل واصابا كبد الحقيقة التي جرحت كبرياء النحاس فان فيهما قوة وديباجة حسنة وصقلا جيلا خلقته البديهة ذاتها كما تفعل في كثير من الشعر أحياناً ، ثم فيهما صناعة لفظية محببة وخاصة في نحت النحس والنحاس ، تعريفا بأسم الزعيم المصري، ولقد استعملت هذه الصيغة الساخرة المشفية ذاتها في المظاهرات التي مشت ضد النحاس حين دار دولاب الزمن وحين اصبح النحاس موضوعا للنقد والتجريح ، بعد ان كان في يوم من الايام موضعاً للتقديس ، وانظر الى لؤم الديب في قوله : ان الزعامة قد زالت ولم يبق الا هذا الشعار الذي كان يلبسه رجال القمصان الزرق من شباب الوفد . فالت في شعر الديب تفقد الموسيقى والغناء ، واطراد الفكرة وتسلسلها ووحدة القصيدة وقد تجد القافية مقلقة غير مطمئنة بل ربما وجدت تجوزا لغوياً او نحوياً لامبرر لهما ، وسبب هذا ان الديب لم يتم ثقافته اللغوية والادبية في المدرسة ، او المطالعة الخاصة ، ثم انه لم يستطع الهدوء في حياته اليومية فقد عاش بين السكر

والخدر والجوع والفقر ولكنك لاتعدم ان ترى في هذا الشعر وفي احيان كثيرة ، فنا رائعا متشكلا اسبابه ومقوماته ، وقد تجد عنده كل هذه الاشياء التي تفتقدها في عامة شعره .

ان شعر الذيب قد جنى عليه اللهو القاتل والمجون الدائم واضطراب الصحة فهو اشبه بأولئك الشعراء الذين عرفوا في اوربا سحابة القرن التاسع عشر من مثل بودلير وفرلين واوسكار وايلد وكولريدج .

وانظر الى هذه القصيدة الرائعة في آخر هذا المطاف لترى الشعر النابع والفطرة الخالصة عند هذا الشاعر الغريب :

بواد كدار الخلد برّ المنازل ... شقيت فمالي لا افوز بطائل
اقضي به في ليله ونهاره ... معيشة آفاق ووحدة ثاكل
يقولون لي كيف الشقاء مع الحجى ... وفي شعرك الهامي عذاب المناهل
فقلت بهذا الشعر بؤسي وشقوتي ... كما قتل الصداح زهو الخمائل
بكت بلدتي حزناً علي وحسرة ... وافجع ما ابصرت دمع المنازل

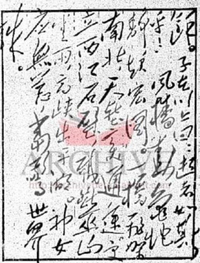
وانظر الى البيت الاخير من هذه القطعة لتبصر « دمع المنازل » هذا التعبير الذي لايجاري ولا يخطر الا على بال شاعر موهوب كبير ، وانظر الى القطعة التالية ايضا :

لو استطيع البكا يا ايها الطلل ... بكيت حتى شكت من دمعي المقل
فكم تصوّح عودي بعد نضرته ... وكم خبا في دياجي عوري الامل
كأن حظي رحيق الدهر يشرب به ... خمراً معتقة فالدهر بي ثمل
فان تطلبت عيشي مت من كمد ... وان تطلبت حيني ابعد الاجل

فهذا شعر كامل الاوصاف يحوي كل مايتطلب القارىء من انة وخيال وصور واوهام . ونختتم هذا البحث بهذه الكلمة التي قالها شاعر بلجيكا العظيم « اميل فيرهارمن » حول حياة الشاعر (ينبغي ان يعجبك كل شيء حتى تسر في ذاتك . كما يجب ان تسير وانت اعلى من اولئك الذين يجنون الالم الجاني ويقاسون عذاب الرغبة المقهورة ، ان الحقيقة الجارحة القطيعة لتقطر لوناً احمر ساماً ، تلك الحقيقة التي يشتعل لها الرأس شيباً والقلب ناراً) .

شعر من الصين

للدكتور ممدوح حقي



أهدي الي ديوان شعر صيني مترجما الى الفرنسية والانكليزية فقرأته مندفعا بحب التشوف والاستطلاع اذ رأيته مترجماً الى اكثر من لغة اوربية . ولاحظت انه قد جندت له قوة من وسائل الاعلام والدعاية الصينية فانتشر انتشارا واسعا جدا وتحدثت عنه بعض الصحف اليسارية باعجاب شديد . أما الصحف اليمينية ، فتلقته بشيء غير قليل من التوجس ،

وهو أمر جد طبيعي لاغرابة فيه ، فشبه الشيء منجذب اليه ، والانسان ـ بغريزته ـ عدو مايكره. ونظرت فيه نظر الدارس الناقد ، فراقني منه بعض الروح الشاعرية وان لم يرقني اسلوبه الصلب والتزامه المتزمت .

لقد اطلعنا نحن العرب على الآداب الغربية اطلاعاً واسعاً عميقاً . وعرفنا تطور الأدب الفرنسي والانكليزي ـ بخاصة في القارتين كما يعرفه ابناء تلك اللغات . ومستوانا في فهمها وادراكها وتتبع تطورها ـ بعامة ـ لايقل عن مستوى المثقفين من ابنائها . وربما عرف احدنا من امر كتابها وشعرائها وآثارهم ، مالم يعرف مثله من ادبائنا وشعرائنا في بعض العصور . ولقد ضمني مجلس فيه من الأدباء والمتأدبين عدد غير قليل ، وجرى حديث الشعر في اخريات العصر العباسي وعمل الشعراء العرب في تقويم الحزب العربي وتدعيمه ، فلم يذكروا اسم أمير شعراء ذلك العصر ، والداعية الأول للعروبة وحاميها ومحرض الخلفاء على تقوية الحزب العربي امام هجمات الشعوبيين ، الشاعر الفحل ابا المظفر الابيوردي المعاوي مع انهم تذكروا من شعراء الفرنسية وادبائها مابدأ برونسار وانتهى الى ساغان .

لقد سيطر هذا الغزو الفكري علينا منذ القرن التاسع عشر ، وابعدنا بعداً شاسعاً عن نتاج الفكر المشرقي ، حتى الذين عرفناهم من شعراء المشرق غير العربي ، قرأناهم بالانكليزية والفرنسية قبل ان نقرأهم مترجمين الى العربية امثال الخيام وهو متغلغل في القدم ، اذا قيس الى اقبال وطاغور ، وهما شاعران قريبان منا مكاناً وعهداً . أما شعراء الصين واليابان واندونوسيا والملايو والفيليبين فلا نعرف عنهم شيئاً ، بل نحن نجهل تاريخهم السياسي ولانعرفه معرفة صحيحة فكيف نستطيع ان ندعي معرفة تاريخهم الأدبي والفلسفي ؟ .

وكنت وامثالي من الراغبين في دراسة الفكر المشرقي ، نلجأ الى اللغات الأوربية نستمدها لجهلنا لغاتها الأصلية وهي لغات لم تتح لنا الظروف تعلمها في جامعاتنا ، ولا دعانا اليها داع ملح ، ولا دفعتنا اليها حاجة عنيفة ، ولم يبق فيها من الآثار

الأدبية الرفيعة – الا النادر القليل – لم يترجم الى لغة اوربية مشهورة . انها لغات صعبة جداً، تكاد حروفها تتصور لنا طلاسم ومعميات . فاللغة السنسكريتية مثلا ، لغة ميتة لم يبق فيها من الآثار الادبية القيمة ، الا كتاب الهندوس المقدس (منو سمرتي) وقد ترجم الى لغة الاستعمال الرسمي (الأردو) كما ترجم الى اللغة الانكليزية وعربه عن اصله السنسكريتي الدكتور احسان حقي منذ امد قريب جداً .

اما اللغة الصينية فما زالت مستعملة بحروفها الطلسمية حتى اليوم وعددها ينوف على اربعة آلاف حرف ، كل حرف منها يرسم صوتا وصورة تختلف نطقا واستقامة وامالة ومعنى . . اختلافا بينا او هينا عن جيرانها ، وهو اختلاف واضح على اي حال . وجميع آدابها ، منذ نحو اربعة آلاف عام مسجلة بهذه الحروف شبه الهيروغليفية ، والمثقفون هناك يقرأونها ويفهمونها ويلتذونها ولايجدون فيها ضيرا ولانصبا ، لاعتيادهم اياها منذ الصغر .

اما الغريب عنها ، فيكاد يرى المستحيل في تفهم معانيها ، ولوك نطقها بل حفظها واجادتها فهما واستخداما .

ولقد علمت ان هناك فكرة تجديدية تدعو الى تبديل هذه الحروف واستخدام الحروف اللاتينية مكانها ، غير انها لاتجد ترحيبا الا في الجيل الحديث ، ولاتؤيدها الحكومة تأييداً مطلقا والا لدون بها كثير من الآثار الحديثة شعرا ونثرا وقصصا . ولعلهم يخشون ان يقعوا فيما وقعت فيه تركيا حين بدلت الحروف اللاتينية بالحروف العربية فقطعت كل صلاتها بماضيها الادبي ، وهو على قصره وضآلته وقماءته – اذا قيس الى آداب الامم الاخرى – قد ترك اثرا حيا جداً . مازالت تعاني عقابيله حتى اليوم ، بالرغم مما نقلته الى الحروف الجديـــدة ، من خير ما انتجته قرائح شعرائهم وادبائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم . فكيف بالأمة الصينية وآثارها المكتوبة ترجع الى اكثر من اربعة الاف عام ؟

ولقد نشر الديوان الذي اتحدث عنه الآن ، بالحروف القديمة ، ورأيت كيف تكتب السطور افقية وعمودية ، وقد تبتدىء من اليمين أو اليسار ، وقد تدور دورة تداولية ، يبدأ بالسطر الاول من اليمين ، والثاني من اليسار والثالث من اليمين وهكذا دواليك حتى ينتهي المقال ، ولاتنتهي العين من الركض وراءه وملاحقة تموجه وتلويه حتى تعيا وتلهث . وقد يكتبون بالقلم وبالريشة وبالفرشاة وبكل أداة ممكنة . . فأي عنت يعانيه المتعلم في دراسة هذه اللغة وحفظها؟

ولكم تمنيت لهؤلاء المشارقة الناهضين بحياة جديدة ، ان يخطوا خطوة جدية تدفعهم الى قلب القافلة العالمية فيبدلوا هذه الحروف الصعبة المتماطلة ، ويسهلوا على انفسهم ، وعلى محبي لغتهم

وآدابهم ، ودراستها . وفيها مايسر ويلذ ويفيد . ففي أساطيرهم وحدها ، ما يملأ خزانة أدب وفي شعرهم : ما يساوق بعض الأدب العالمي ، وفيهم شعراء ، اذا اطلعت على آثارهم : احسست الرعشة الشاعرية العلوية تغمر روحك بالنشوة ، وتضمخ نفسك بالعبير . وشعرهم القديم ، اقرب الى الروح الشاعرية من الحديث ، وارفع ميزة من الشعر الملتزم فكأنما عقم الشعر الحديث عندهم وعند سواهم من الشعوب الملتزمة الا من هذا الضجيج الصخاب بالفاظ القومية والعسكرية والبناء والسدود والمصانع ونضال الطبقات والحديد والنار !!! اقرأ هذا الشعر الحديث فلا يثيرني بل تنسكب في نفسي برودة ورطوبة . لا أرى فيه الا صوراً ضجاجة لا موسيقا فيها ولا تناغم ، والفاظاً فوارة لا تحمل معانيها ، وصوراً كاشرة ، وقلقاً فكرياً ، واضطراباً خفياً ، وضعفاً في اللغة والتركيب وتردياً بالمعاني المستعارة والتشبيهات النقية ... حتى ليخيل الي ان العالم مصاب بهستريا او نورستانيا ، وأن الشعوب تعاني مركب نقص عجيب لا تجد الى الافصاح عنه سبيلا في غير الضجة والدردبة .

وهذا الذي نشكو منه في العالم العربي ، يشكو منه العالم الغربي والشرقي كذلك . ويعلل النقاد هذا التردي ، بانخطاف المثل المحترمة من المجتمعات التي هزتها الحروب وحطمتها الكوارث والنكبات ، بالتطور الآلي والتقدم العلمي والمادي والتقلبات الاجتماعية والضياع الخ .

على اني لا اضيق بالثورة على كل جديد ، والا كنت واجباً حقاً ، وانا الذي ارى من اول واجبات الأديب : الدفاع عن الحق والحرية والانعتاق من التبلد الذهني والاجتماعي . وكنت أول من هجم على أخطر موضوع اجتماعي في وقته فكان كتابي (في الغريزة الجنسية) اول كتاب في اللغة العربية انزل هذا العلم المعقد الى مستوى البحث الأدبي المسهل ، وكشف عنه قناعه واستخرجه من كنه واستخلصه من بين ايدي المحافظين المتشددين وعرضه للبحث والنور .

وأنا لا أحمل على دعاة التجديد ، بل اقف الى جانبهم وأهمس في آذانهم بكل حب واحترام وتشجيع وأقول لهم بتواضع : تثقفوا وتخيروا وأتقنوا الآلة قبـــل استخدامها في الانتاج . والا عقمت أقلامكم عن ان تأتي بجديد خالد .

وهذا نفسه ، هو الذي دعاني الى التعليق على الديوان الصيني الجديد فقلت في مطلع حديثي عنه : **(اعجبتني منه الشاعرية وان لم يعجبني منه الالتزام والتزمت)**

والشاعر المؤلف – اذا قيس الى قومه – معذور في ذلك كل العذر ، فهو قائده السياسي الاعلى ، ومحرره من الاقطاعية والاستعمار ومنظفه من الدخلاء والمتطفلين . والكلمة منه عندهم توزن

بيزان الذهب ، وهم يعدونه هناك أمير شعرائهم المعاصرين ، فاذا سألتهم عن اعظم شاعر صيني معاصر ، هتفوا بغير تردد : (ماوتسي تونغ) .

ولقد نقلت هذا الديوان الى العربية وعرضت الترجمة على بعض من أثق بذوقه من الادباء والشعراء فلم يسيغوا فكرها ولا صورها ، وان راقهم – مثلي – روحها الشاعرية . وبدا لي أن السبب في ذلك يعود الى أمور شتى لعل اهمها :

١ – اننا لم نعتد بعد تفهم صور لم نألفها ، فنحن نفهم الشعر الغربي ، كما نألف الشعر العربي . أما هذه الصور ، فجديدة علينا كل الجدة والانسان – بطبعه – عدو كل مستغرب .

٢ – قيل هذا الشعر ، في مناسبات ، نجهلها نحن تمام الجهل ، ولا نعرف قيمتها السياسية والنضالية ورب لفظة رمز بها الشاعر الى حادث عظيم جداً في موطنه ، لو سمعه الصيني ، لهزته النشوة واستخفه الطرب ، فصفق بدون وعي . ويمر بنا اللفظ نفسه المشير الى هذا الحادث بعينه ، المعبر عنه ، فلا يستلفت انتباهنا ، ولا نبالي به ، ولا نحس له وجودا .

٣ – وتشير بعض الألفاظ الى أحداث تاريخية قديمة جدا ، وأساطير مضى عليها آلاف السنين ، يدركها الصيني بمجرد التلميح ، بينما نحتاج نحن – في فهمها – الى شرح طويل جدا ، نضل في متاهاته . وحين نعود الى أصل الفكرة في القصيدة ، نجد أنفسنا قد أضعنا التسلسل ووقفنا في مفترقاتها قلقين .

٤ – ولبعض الألفاظ رنين موسيقي خاص يضيع حين يترجم . ولبعضها الآخر معان خاصة بها ، تجمل بينها حين تتركب بشكل معين أو تتازج أو تتجاور ، صلات رحم يستحيل علينا ادراكهـــا . ولكل لغة ألفاظها قد تحمل في أطوائها تاريخاً خاصاً بها وجوا لا تشركها فيه سواها مهما تقاربت معها في المعنى الظاهري ، حتى المترادفات في اللغة نفسها لا تعطي المعنى ذاته بعمقه واتساعه ، فكيف اذا نقلت الى لغة أخرى ؟ .

٥ ـ واساطيرهم من نوع غريب علينا لايشبه اساطير اليونان التي اطلعنا عليها ، ولا أساطير العرب ...

فنجم سهيل عندهم عاشق لكيوان ، لاتتاح لهما اللقيا ، الا في الليلة السابعة لدى القمر السابع على جسر البين المقام فوق نهر المجرة .

وخمرة خيار شنبر ، شراب الخالدين .. والخالدون تعلو لديهم شجرة خيار شنبر الى ارتفاع خمس مئة سقف ، يحاول ووكانغ ان يتسلقها ، فتلبث اغصانها في طريقه ، تعوقه وتمزقه وكلما قصف غصناً او قطعه بفأسه ، نبت عله غصن آخر .. هكذا حكم عليه بالخلود ، لكن في تقطيع اغصان شجر الخيار !

وثلاثة ملايين تنين أبيض من اليشب (١) ، تنتفش فتطاير حراشفها فتساقط على على الجبال ثلجاً ناعماً .

وملك القرود ، يهوي بمروحته العملاقة على الجبال فتهاطل الامطار ... الى ماشابه ذلك من الاساطير المنغرسة في اعماق تقاليدهم ، نقف نحن حيالها مبهوتين لانعرف كيف نسيغها.

٦ ـ وكثرة الأسماء ـ في شعرهم ـ والتواريخ والأعداد تجعل بيننا وبينهم فراغاً لاشعورياً ، نحسه ولا نستطيع تبيانه . فحين نجد مطلع قصيدة رأس العام البيت التالي :

نينغوا . تسينكلو . كويهوا

مخاوف ضيقة ، وغابات دغلة عميقة ، ووحل زلق .

او قصيدة « تابوتي » التي تبتدىء بتعداد الالوان على الشكل التالي :

من الذي يتراقص في السماء بهذا الشريط الملون ؟

من أحمر على برتقالي في أصفر إثر أخضر

ومن أزرق على نيلي الى بنفسجي

هل تشعر بشيء من الروح الشاعرية تغلي في نفسك ؟ لعلك تريد ان تشير الى ابيات ابن الرومي في قوس قزح فقد عدد فيها الالوان ذاتها كذلك فقال :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً   على الجو دكناً والحواشي على الارض

---

(١) اليشب : حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اكثر صفاء ونقاء ويسمى ايضا : اليشم واليشف .

يطرّزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبّغة ، والبعض أقصر من بعض

غير أنك اذا وضعت القصيدتين متجاورتين ، شعرت بالفرق الواضح بينهما . فألوان ابن الرومي خود تتحرك ، تقبل وتدبر وتمشى وتتباهى بما تلتف من اثواب ، تلبس بعضها فوق بعض لتعرض ماعندها من تناسق وتفاوت وغنى .

أما القصيدة الصينية ، فليس فيها الا قوس مادي ، يتراقص بألوان مختلفة . وعرض الصورة على هذا النمط ، عرضاً مادياً يفقدها الروح . ولعل لهذه الالوان في اللغة الصينية ، أسماء ذات جرس موسيقي خاص ، لانحسه بالترجمة .

٧ — والشعر ـ على عمومه ـ يفقد بالنقل ، من لغته الى لغة أخرى أهم عنصر من عناصره ، واقوى ركيزة من ركائزه وهي الموسيقا . حتى ولو ترجمته شعرا . ففي كل لغة رنين خاص بألفاظها ، يعطي ، باجتماعه وتفرقه ، ومجاورته ألفاظاً معينة دون سواها ، تناغماً معيناً ، يستحيل نقله الى لغة ثانية .

وفي اللغة الصينية شعر موزون ، وموشحات تشبه ماعندنا ، بعضها ذات أربع تفاعيل ، وبعضها على خمس ، وسواها على ثمان . وتختلف مقاطعها مابين أربعة وستة وثمانية . وقوافيها تشبه قوافي الشعر العربي . وهم مايزالون حتى هذا العصر ، يحافظون عليها ، ويعنون ببحور الشعر الكلاسيكية ويقدمون قصائدهم بذكر اسم بحورها ، واشهر البحور عندهم اثنان هما : (تسه) و (تشه) ، كما كنا نقول نحن في القرون الوسطى مثلا : « ونظم الشاعر فلان قصيدة على البحر الطويل وروي السين » و « عارضه فلان الشاعر بقصيدة من مجزوء الكامل وروي النون » . وما زلنا حتى اليوم نتحدث بسينية البحتري وبائية أبي تمام وكافية البوصيري وهمزيته ولامية العرب ولامية العجم ... الخ .

ولعل فقد هذا العنصر الموسيقي المميز ، في الترجمة ، كان من جملة الاسباب في موقفنا من هذه القصائد موقفاً ضعيف الحماسة . وأنا انما نقلته عن الفرنسية والانكليزية ، ولم انقله عن الصينية لاعرف أثره الموسيقي ، لكني حين سمعته بأصله ، من فم الصينيين ، ترنمت بنغماته وأدركت قيمته الفنية الموسيقية واستحال علي نقلها الى العربية فبعد الشاسع مابين اللغتين .

ومع هذا ، فقد تحمست لنشره بفكره وصوره ، لأعرض في مكتبتنا العربية ، نوعاً جديداً من الشعر لم نعرفه من قبل ، اعتقاداً مني بأن تلاقح الأفكار مفيد على اي حال . وما دمت قد نقلت نفائس ما في آداب اللغة الانكليزية والفرنسية والألمانية ما اعتقدت أني خدمت به لغتي العربية ، فلماذا لاأخدمها بنقل نفائس الأدب المشرقي البعيد كذلك ؟..

٨ — وصلتنا بالصين والمشرق ، قديمة جداً ، سبقت دخول الجيوش المسلمــــة بقرون . منذ كانت المراكب التجارية الهندية والاندونوسية والصينية ، تمخر المحيط الهندي لتحط على سواحل الجزيرة العربية محملة بمنتجاتها كي تبادل عليها في الشحر وظفار والمكلا وعدن بما تجلبه اليها القوافل العربية من نتاج سورية وأوربة ، قبل الرسالة بزمن طويل .
وهي التي ذكرها القرآن الكريم فقال : **(لايلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف)**.
واستمرت هـــذه العلاقة وثيقة العرى ، يربطهـــا الطريق البحري بواسطة هذه المراكب والطريق البري بواسطة القوافل ، حتى عصور متأخرة ، وذكرت في الف ليلة وليلة وأساطير واق الواق والسد الأكبر (سد الصين اوسد الاسكندر ذي القرنين) ويأجوج ومأجوج... وسواها كثير . وما زلنا حتى اليوم نتوارث نفائس المالقي والصيني والشيني ونعرضه في اشرف موضع من بيوتنا . ولكننا مع كل هذه الصلات ، لم نتبادل التأثير الثقافي والأدبي والفلسفي . ولعل لصعوبة لغتهم أكبر الأثر في انحسار آثارهم الأدبية عنا . اما هم فقد نقلوا من آدابنا كتاب الف ليلة وليلة وبعض الأقاصيص المعاصرة مما لايعطيهم صورة صحيحة صادقة عن آدابنا وشعرائنا وكتابنا ومؤلفاتنا . وهذه القطيعة المؤسفة يجب ان يحل محلها تواصل أدبي بيننا وبينهم بل بيننا وبين سائر الشعوب الشرقية وهو عمل من واجب الملحقين الثقافيين في البعثات الديلوماسية العربية .

يجب ان نعرفهم على ذخائر آدابنا وان نعرف نفائس آدابهم ، وعلينا تخير أقدر المترجمين من ذوائة الادب المثقفين ثقافة عالية . ولقد نقلنا من الغرب كثيراً وما زلنا ننقل ، وفي كل مكتبة أكداس مكدسة من توافه المترجمات ، فلماذا لانلتفت قليلاً الى المشرق فننقل ذخائر اليابان والصين واندونوسيا والهند والفيلبين وافريقيا . نعم حتى في افريقيا السوداء آداب

جديرة بالنقل من قصص واساطير وشعر . ولقد حلت معي من اواسط افريقيا منذ نحو عشر سنوات بعض الاقاصيص الاسطورية ، ونشرتها نماذج الأدب الافريقي ، ومنيت نفسي بالعودة لاحمل ذخائر ادبية اخرى جديرة بالنقل والتقييد لم أوفق . واني لارجو ان يملأ غيري هذا الفراغ في ادبنا ويسد هذه الثغرة بمن اتيحت له الظروف للحياة بتلك البلاد .

ووضعت حجراً في هذا البناء بنقل شعر من الصين الحديثة ، سألحقه – ان شاء الله – بشعر من الصين القديمة قريباً . وسأتابع حلقات السلسلة بنقل طرف من الادب الاندونسي واليابانى والهندي ... فهل اراني من الموفقين ؟



شبيل

CHIBIL

حكاية شعبية للكاتب البلغاري يوردان يوفكوف

الترجمة عن الفرنسية للآنسة دلال حاتم



«ظهرت رضا على عتبة الباب
ومن نهاية الطريق أتى مصطفى»

« أغنية شعبية »

هبط شبيل اللص الرهيب الذي يبحث عنه رجال الشرطة في كل مكان من مخبئه في الجبل واتجه الى

يعتبر يوردان يوفكوف من اكثر الأسماء شهرة في عالم الأدب البلغاري الحديث ، ولد الكاتب عام ١٨٨٠ في جيرافنا، وهي قرية صغيرة شرقي بلغاريا ، وامضى طفولته كلها في تلك القرية ، ثم انتقل الى صوفيا ليتم دراسته التاريخية ، ثم سافر الى مقاطعة الدبروجا وعمل فيها مدرساً لمدة طويلة .

قدم يوردان يوفكوف للأدب البلغاري كثيراً من الأعمال الأدبية المتنوعة ، ومع أنه نال شهرة طيبة في عالم القصة القصيرة إلا أنه عالج الرواية الطويلة فأصدر في عام ١٩٢٠ رواية (الحصّاد) ثم رواية (مزرعة قرب الحدود) عام ١٩٣٤ و (مغامرات غورومولوف) عام ١٩٣٦ كذلك كتب بعض المسرحيات الناجحة ومنها مسرحية (ألبينا) عام ١٩٣٠ ومسرحية

القرية . دون ان يخشى أحدا ، أو يفكر بان قصته ستنتشر غداً في كل مكان إذ أن أفكاره كانت تحمله الى بعيد وأحلامه تشجعه على دخول القرية .

* * *

كانت أفكار شيبيل تعود به الى شهر مضى أو شهرين . حين كان قابعاً بين قمم الصخور الزرقاء واعشاش النسور مع افراد عصابته حيث شاهد بعض الفتيات يخطرن في الطريق المنبسطة تحت قدميه . ومع ان قوانين اللصوصية تمنع التعرض للنساء وسرقتهن ، فان شيبيل رفض هذه القوانين وخاطب نفسه قائلا « نساء هنا ! في هذا الجحيم ! انها لغنيمة لايمكن تركها ! » . ودون ان يفكر بأن يقوده تسرعه نهض يلحق به بقية أفراد العصابة ضاحكين وقد كشروا عن أنياب بيضاء براقة كأنها أنياب ذئاب جائعة .

انحدرت العصابة من مكمنها ، واجتازت الغابة العارية الاشجار حتى وصلت الى مكان يتعرج فيه الطريق مشكلا قوسين كأنهما حلقتا فخ كثيراً مالقي الرجال مصرعهم فيه . وحسب العادة قطع اللصوص الطريق وشرعوا أسلحتهم ووضعوا على رؤوسهم القلابق البلقانية السوداء . وبعد لحظات وصلت الفتيات الى منعطف الطريق وما أن شاهدن اللصوص حتى توقفن بـلا حراك ثم مالبثت كل واحدة منهن أن اتجهت الى مكان يرون الهرب ولكن سيقانهن لم تقو على حملهن فتوقفن كطيور فزعة تنتظر رصاص الصياد ، ثم سقطن على الارض وتعـالت أصواتهن بالبكاء والنحيب .

ولم يلق اللصوص بالا الى الفتيات ، بل اتجهت أنظارهم جميعاً الى فتاة جميلة وقفت على حافة الطريق . كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأزرق وفوقه صدار من الحرير الاحمر الناري ومريلة

ـالليوبر) عام ١٩٣٠ و (بوريان) عام ١٩٣٢ ومسرحية (رجل عادي) عام ١٩٣٦ . وهنالك كثير من أعماله الأدبية ظل ناقصاً بسبب موته المفاجىء عام ١٩٣٧ .

كانت القرية في نظر يوفكوف المكان المثالي الذي يسمح للانسان بمراقبة ظروف الحياة بكل شراستها وعنفها وقسوتها ، ومشاهدة العبودية الاقتصادية التي تكبل الشعب بسلسلة لا تنتهي من الآلام والمآسي الاجتماعية والسـادية ، وهذا الارتباط الفريد بين الكاتب والأرض هو الذي دفع الى النور كتابه المسمى « حكايات ستارا بلانينا » هذا الكتاب الذي اصبح فيما بعد قمة من قمم أعمال يوردان الأدبية .

وفي سبيل بث هذه الحكايات اتصل يوفكوف بالمسنين وسمع من افواههم هـذه الحكايات كأقرأ الأغنيات الشعبية وسجل عن كل اغنية الحكاية التي ترويها ، ومنها حكاية شيبيل .

مطرزة برسوم جميلة ، أما عنقها فتحليه عقود ثمنة من القطع الذهبية . وتساءل اللصوص فيما بينهم الى أين تذهب الفتاة مع رفيقاتها ؟ كيف تركها والداها تسافر وحيدة في هذه الجبال الموحشة ؟

وخطى شبيبل خطوات الى الامام ، وتفرست الفتاة بوجهه ، ثم زوت مابين حاجبيها وتمتمت ببعض الكلمات :

ـ دعنا نمر بسلام ، والا فالويل لك ، يا الهي ألا تخجل من اعتراض سبيل النساء ؟ ماذا تريد منا ؟

واندفع اللصوص الذين أعماهم بريق الذهب نحو الفتاة ، ومدوا الى الامام أيديهم المعروقة ، ولكن شبيبل أوقفهم بحركة من يده وتقدم منها . بالبشرة الناصعة البياض ، وبالقامة المشوقة ، انها تبدو في ثيابها الفضفاضة كدمية صغيرة دقيقة الصنع . وشردت نظرات اللص وغرقت في زرقة عينيها الصافية وجمال أسنانها اللؤلؤية .

أما ماحدث بعد ذلك فان شبيبل نفسه لم يجد له تفسيراً ، فقد استردت الفتيات روعهن ، وتجمعن حول شبيبل الذي جلس على صخرة يستمع الى الصبية وهي تثرثر كلمات لم يفهم منها الا القليل . وأخيراً تكلم قائلا :

ـ حسناً ، أنت اذن ابنة فيليكو كيهايا ، واسمك رضا . ولكن خبريني كيف سمح لك والدك بالمرور من هذا المكان وأنت تحملين كل هذه العقود الذهبية ؟ ألا يخشى أن أستولي عليها ؟

ـ تأخذها ! قل انك ستعطيني عقوداً ذهبيــة أخرى ، إذ أنني لاأملك غيرها . ولكن ، انظر ، إن كم سترتك ممزق دعني أرتقه لك .

ونظر شبيبل الى كمه ، كان المخمل الاحمر الذي يحليه قد تمزق فعلاً . وقبل أن يفيق من دهشته اقتربت منه الفتاة بكل رقتها وجمالها ثم أمسكت بأصابعها كمه الممزق ، ووضعت في فمها ابرة وخيطاً :

ـ إياك أن تتحرك ! إنني سأبدأ الخياطة . ثم ضحكت ضحكة قصيرة وتابعت : وأغلق فمك لئلا أخيطه أيضاً . اسمع ، انك تحسن صنعاً لو تزوجت ، ستجد على الأقل من يرتق لك ثيابك عوضاً عن أن تبدو هكذا مثل . . .

– مثل ماذا ؟

– مثل واحد من الفجر

وتبادلت الفتيات نظرات خاطفة وقد شاهدن شبيبل ينظر اليها غاضباً ولكنه لم يلبث أن قال :

– ولكن الفتيات لايقبلن بي زوجاً .

– هيا ، لاتقل هذا ، ان الفتيات لايمكن أن يرفضن شاباً مثلك .

– حسناً ، لم يبق اذن الا أن تتزوجيني أنت .

– من ؟ أنا ؟ ألا تعرف ماذا نقول عن اللص : انه ينحـــدر من الجبال حاملا حذاءه على كتفيه . انني لن أتزوج لصاً ، فأنا لم أخلق لمثل هذا .

وشعرت رضا أن الغضب قد استبد بشبيبل ، وأن صديقاتها يرتعدن من الخوف فقالت له :

– حسنا ، انني أرحب بالزواج منك ، وما عليك الا أن تطلب يدي من والدي فيليكو كهايا .

وأضافت بعد فترة صمت :

– كما يجب أن تطلب موافقة مدير الشرطة مراد بك ... انظر كيف رثت سترتك ، أرجو أن تذكرني دائماً كلما ارتديتها وأنت متمتع بالصحة والعافية .

وابتسم شبيبل وتبادل مع الفتاة بضع كلمات ، ثم سار برفقة الفتيات في منعطفات الغابة حتى أخرجهن الى السهل المنبسط في الطرف الآخر .

كان الربيع قد كسا بعض أشجار الغابة اوراقاً جديدة خضراء ، اما الأشجار الأخرى فما زالت مكسوة بالبراعم الصغيرة التي تنتظر الدفء لتتفتح . وعاد شبيبل الى الجبل ولحق به اللصوص صامتين وقد أطرقوا برؤوسهم وتسمرت أنظارهم على الأرض . وطار غراب أسود فوق رؤوسهم فتشاءموا إلا شبيبل الذي لم ينتبه للغراب . وتهامس اللصوص : لقد اعترضت سبيلنا امرأة ، امرأة جميلة ، وهذا لايبشر بالخير مطلقاً .

ومرت الأيام ، وأزهرت أشجار الخوخ البري ، وكست الأوراق الخضراء أشجار

الأجياس . وجلس شبيبل يحصي مابقي له من العمر ، وأحس فجأة أنه قد غدا كهلاً ، وفكر بالفتاة رضا وابتسم مفكراً « ياله من مزيج غريب تلك المخلوقة ، انها امرأة وطفلة في آن واحد ، ولاحت له في خياله وقد وضعت الابرة والخيط في فمها ، كلا انها لم تكن تضع ابرة ، بل خنجراً حاداً ، ولكنه سيكون سعيداً لومات بطعنة هذا الخنجر » .

في تلك اللحظة أتى رجاله يسوقون أمامهم بعض التجـار الذين بدت وجوههم صفراء كالزعفران ، ولكن شبيبل لم يطلب اليهم أن يفتحوا أمتعتهم ولم يفتش أكياس نقودهم بل رافقهم حتى نهاية الطريق وطلب اليهم أن يبلغوا تحياته الى رضا متجاهلا رجاله الحاقدين الذين وقفوا صامتين مطرقين .

وعندما حل المساء ، عاد اللصوص الى أوكارهم التي تحميها النسور ، ولأول مرة انتهزوا فرصة نوم رئيسهم وجلسوا يثرثرون ويتبادلون نظرات مضطربة خائفة . وصور لهم خيالهم الشعب عواء الذئاب وكأنه سعال رجل غريب يترصدهم ، وحفيف الأغصان الجافة كخطوات رجل غريب يقترب منهم . ولم يلبثوا أن نهضوا يبيعون أنفسهم للفرار والنجاة بأنفسهم دون أن يهتموا بنجاة زعيمهم . بل كانوا يحاولون الابتعاد عنه كما يهربون من مريض بالطاعون .

وفي الصباح أفاق شبيبل ووجد نفسه وحيداً ، فأرسل الى فيليكو كيابا كل الاموال التي سرقها من خزينة السلطان ، والخواتم التي انتزعها من أصابع الأحياء والأموات ، وكل الذهب والفضة التي اختلسها من الكنائس ، وكل مافي حوزته من كنوز هدية للفتاة رضا . وبعد مدة أتاه من يخبره أن رضا تدعوه للعودة الى القرية ، وان والدها وافق على زواجها منه ، كما أن مراد بك سيمنحه العفو وكدليل على حسن نيته أرسل له سبحة من العنبر .

وظل شبيبل يسائل نفسه طويلا : هل هذا فخ نصب الايقاع به ؟ ان الغابة قد اصبحت الآن كثيفة الخضرة وأزهار نبات الشقائق تموج في المروج الواسعة ، وعطر الليلك والزيزفون ينبعث من الوادي ولكن شبيبل لايحس بكل هذا ، بل يحس بقساوة الصخرة التي يريح رأسه عليها كل ليلة ، وبثقل بندقيته التي يحملها على كتفه باستمرار ، ودون تردد غادر شبيبل الجبل وانحدر الى القرية .

عندما وصل شبيبل الى منعطف الطريق التفت الى الخلف . كانت أشعة الشمس الغاربة

تصبغ قمم الصخور بلون أرجواني ، وأسراب النسور تحوم في الجو قبل أن تلجئها العتمة الى أوكارها . وأحس شبيل بصمت ثقيل يخيم على الجبـــل فجلس على صخرة يفكر واسترجع فيد ذاكرته كل الايام الماضية التي عاشها ، وعندما رفع رأسه كان القمر قد تربع في السماء . ان شبيل يقف الآن على عتبة عالم جديد يختلف عن العالم الذي كان يعيش فيـــه ، وبدا له الجبل وكأنه جدار شاهق أملس لن يستطيع تسلقه مرة اخرى ، وانعكست أشعة القمر الباهتة على عينيه اللتمعتين وتراءت له مرة اخرى صورة رضا فوقف ودون أن يلتفت الى الوراء تبع شبح العينين الجميلتين والابتسامة المضيئة .

ووصل شبيل الى القرية وقد حل الظلام ، فاقترب من أحد الابواب وطرق ثلاث طرقات ثم همس قائلاً « هذا أنا ، مصطفى » . وانفرج الباب ببطء وتسلل شبيل الى الداخل . كانت النار تتوقد في المدفأة القديمة وانعكس لهيبها على بندقية شبيل وحزامه المليء بالرصاص وكيسه الجلدي المتدلي على خصره . أما أمه فوقفت ترمقه مشدوهة :

— مصطفى ، لماذا أتيت ؟ هل ستعود الى الجبل مرة اخرى ؟

— نعم سأعود

— ستعود ! ولكن متى ؟

— غداً

وجلست الأم تحدق في النار المتأججة وأمسكت ركبتيها بيديها وأردفت :

— مصطفى ، منذ ثلاثة أيام والحراس يحشـون بنادقهم بالرصاص ويشحذون سيوفهم ثم يمرون بأصابعهم فوقها ، لقـد غدت سيوفهم حادة تشطر الشعرة شطرين . انهم يراقبون البيت باستمرار ويمرون امامه وهم يفتلون شواربهم . مصطفى ، أحس ان مكروهاً سيقع .

ولكن يبدو أن شبيل لم يفهم أو حتى لم يسمع كلمة مما قالت إذ رفع بندقيته وحزامه والقى بهما الى الارض ثم جلس الى جانبها .

في مكان آخر من القرية جلس الى نافذة مفتوحة مراد بك ساهماً مفكراً وإلى جانبه وقف فيليكوكيايا بسرواله الجديد وحزامه الحريري ذي الالوان الزاهية ينظر الى ساعته لحظة بعد أخرى ثم فرك يديه مخاطباً مراد بك :

ـ اطمئن يا سيدي البك ، كل شيء جاهز تماماً ، وسيسقط الذئب في الفخ .

كان هنالك منديلان أحدهما أحمر والآخر أبيض ، وهما العلامة المتفق عليها مع رجال الشرطة ، المنديل الأبيض يعني العفو عن اللص ، والمنديل الأحمر يعني الحكم بالموت .

ومرت فترة طويلة وصاح مراد بك حانقاً ...

ـ حسناً ، متى سيأتي رجلنا ؟

ـ كل شيء مرتب ياسيدي البك . لقد ارتدت ابنتي ثوبها الحريري الازرق وصدارها الاحمر الناري ، انها نفس الملابس التي ارتدتها يوم أرسلناها الى الجبل . تصور ياسيدي انها وقفت أمام المرآة ترسم حاجبها بالكحل وتبتسم .

ـ تبتسم ؟ ألم تخبرها بما سيحدث ؟

ـ انها تعرف كل شيء ياسيدي ؟

ـ هل قلت لها كل شيء ؟

ـ هم ... في الحقيقة لم أقل لها شيئاً في البداية ، ولكنني شرحت لها كل شيء بعد قليل . لا تقلق نفسك ياسيدي ، ان الخطة محكمة تماماً .

ومرت ساعة أخرى ، فانطلق فيليكو إلى منزله ثم عاد بعد قليل وسأله مراد بك غاضباً .

ـ حسناً ، وماذا بعد ؟

ـ أرجوك يا سيدي ، لقد تغير الموضوع الآن ، ان ابنتي تبكي في المنزل ، لقد أتت أم الشاب لرؤيتها كما قيل لي ، آه ! لو أستطيع العثور على تلك العجوز الساحرة . لقد قيل يا سيدي البك أنها اتت الينا ولا أحد يدري ماذا قالت لرضا ، ولكن ابنتي تبكي وتقول « لا أقبل ان تسقط شعرة واحدة من رأسه ، انني سأترك أسرتي والحق به الى الجبل وأعيش معه » . آه ! آه من النساء . لقد قبلت أخيراً عتبة الباب بعد ان طمأنتها .

وأخيراً ظهرت رضا على عتبة المنزل ، وأطل مصطفى من نهاية الشارع واندفع مراد بك وفيليكو إلى النافذة .

كان مصطفى يسير في وسط الشارع تغمره أشعة الشمس التي صبغت السقوف بلونها الذهبي. لم يكن يحمل سلاحاً ولكنه ارتدى ثياباً جديــدة من الجوخ الازرق وصداراً مطرزاً بخيوط رفيعة من الذهب . كان يتقدم بخطوات ثابتة يمسك بإحدى يديه سبحة العنبر وبيده الاخرى زهرة قرنفل حمراء أهدته اياها رضا .

وداعب مراد بك لحيته وقال :

— ياله من شاب جميل ! إنه شجاع حقاً .

ورد عليه فيليكو قائلا

— حسناً ، المنديل ياسيدي البك ، أين المنديل ؟

— ياله من شاب جميل

واسرع فيليكو يحمل المنديل الاحمر ويلوح به من النافذة وجذبه مراد بك صائحاً :

— كلا ، ياشربجي (١) ، ان رجلا بهذا الجمال والشباب يجب ألا يموت.

— وابنتي ياسيدي ! وشرفي !

ودوت أصوات طلقات نارية ، ارتجت لها النوافذ والابواب ، وتوقف شيبيل في وسط الطريق ، وألقى بسبحته على الارض واحتفظ بزهرة القرنفل وشبك ذراعيه على صدره وتوقف ينتظر . ومضت لحظة أو لحظتان واندفعت رضا تركض نحو مصطفى الذي فتح ذراعيه ليتلقاها . ودوت الطلقات النارية من جديد وسقط شيبيل على الارض وسقطت رضا الى جانبه .

وعندما لوح مراد بك بالمنديل الابيض من النافذة ، كان الهدوء قد عاد يخيم على الشارع وبين جثتي مصطفى ورضا كانت زهرة القرنفل الحمراء غارقة في بقعة كبيرة من الدماء التي تلوث ارض الشارع .

---

(١) شربجي : كلمة تركية كانت تعني في أول الأمر درجة في الجيش العثماني ثم صارت تستعمل كلقب شرف لغير المسلمين من الاتراك .

إلى الــــرّواد

تحية من المهجر ودعوة من

نخلة ورد

سان باولو - البرازيل

حديث الأدب في سان باولو ، اوريد الأدب المهجري ، حديث ذو شجون يثير في قلبي دائماً شيئاً من الحنين والأسى الحالم . يذكرني - ولا ادري لم - بالأندلس ، أمجادها ، ومآسيها ، الحمراء ، غرناطة ، وكلمة تصور الخاتمة الحزينة وصداها الأبدي ، قالتها امرأة ، أم ملك فجع بملكه ، وفجعت بهذا الملك ، عن يديه ، أمة :

وابك كالنساء ملكا لم تحتفظ به كالرجال .

وتتراءى لخاطري صورة لفتى سحرته ، منذ الطفولة ، آلهة الأولمب ، وهو يتصفح ، في فجر يوم

من ربيع أنطاكية الفاتن ، على شاطىء نهر العاصي ، مجلة قيل له أنهـــا تصدر في البرازيل .

وترتسم على صفحة خيالي ، اللحظة ، أغصان الصفصاف عاشقة حانية ، تعبث بأوراقها ، مداعبة ، الأمواج الرقيقة ، أتمثل الجو المضمخ بأريج الزهور ، سني العمر الندية ، الناعورة وهي تشدو بأنينها الرتيبة الحزينة وكأنها تسجل في دورانها الدقائق من أعمار البشر . وفي قلب الفتى آمال وأحلام ترتعش هي الأخرى أمام « العصبة الأندلسية » .

ويحملني هذا الخيال ، عبر الزمن الآتي ، ليقف بي في سان باولو ، في يوم من سنة ٢٠١٦ . بعد خمسين سنة . نصف قرن فقط !

أي شيء يبقى للناطقين بالضاد ، بعد نصف قرن ، في أندلسهم الجديدة الصاخبة ؟ مصانع ؟ أبنية تتحدى السحب ؟ قصور ؟

أبوسعها مجتمعة أن تكون لوحة واحدة ؟

أن تخلق قصيدة ؟

أو حرفاً من هذه الحروف الساحرة التي تجتمع لتضم اجمل واروع ماتفاخر به الانسانية من تراث ؟

كل مايؤلمني ، وانا غريب عن « العصبة » وامجادهـا ، ان اشهد النهاية . فاجعة قوم بنوا لهم في ماوراء البحار ملكاً ومجداً ، ثم صرفهم المال ، هذا الملك الكاذب ، عن التاج ذي الخضرة الدائمة الذي يكلل كل مدنية وحضارة ويحمل في ذاته الصورة المثلى لأي تكامل انساني .

ما اشبه ما لنا في الأندلس الجديدة بقصة ذلك الصبي الغر ، تحدثنا عنه

احدى الأساطير : يتلهى بجمع الحصى من قلب البوادي ولا يرى الزهرة القائمة على جانب الطريق .

كل مايؤلمني ، وانا غريب ، ان ارى ابطال «العصبة» وعلى هاماتهم اكاليل مجد يكاد يضحي تاريخاً واسطورة يتطلعون الى المأساة ، ولايملكون لها غير التأسي ..

كلا . لم يمت الأدب المهجري .

ان جذور الأدب تمتد عميقاً في الكيان البشري ، وان كان يتبع في مدة وجزء المرحلة التاريخية التي تمر بها الجماعة ، كما يتعلق فيضه بالبيئة ، بالارث الدني . والتجربة الأدبية المكتسبة تترك لها في اعماق النفس بذوراً حية تنتظر استكمال شروط نموها لتنبثق .

وأدبنا العربي في المهجر ، في فترة انكماش وذهول فرضتها طبيعة الحياة المعاصرة ، هذا التيار المادي المفكك ، يعصف في حنايا المدن الكبرى على التخصص ، ويضعف ، في مايضعف ، حب الثقافة والتكامل الداخلي الذاتي ، ويشل صلات الرحم بين الناس ، هذه الحساسية الاجتماعية التي اعتبرها بمثابة الأوكسجين في أجواء الأدب والفن .

ادباؤنا في المهجر : لا أقول انهم شاخوا او جف نسغ الحياة في منابع وحيهم . كلا — وهنا باعث الألم — انما طفوا ، واستسلموا لأمواج التيار العاطف ، او فقدوا الخيرة ، الأداة ، والوسط الروحي الخاص للانتاج الأدبي — ولنكن منصفين — ان قوة هذا التيار تكاد لا تقاوم ، الا اذا ملأنا طريقه بالأشجار التي

تقي التربة من خطر التفتت : مؤسسات ، أندية ادبية ، مكتبات تستقطب القوى المنوية الفعالة وتوجهها في طريق الحضارة .

انها دعوة وأمل . دعوة الى استنفار الرجولة والقدرة النفسية الخارقة في غير العاديين من اصناف الرجال .

جميل ان تعود « العصبة » وان يعود عهدها .

وجميل ان يبذل الواعون المخلصون لرسالة الأدب ، من ذلك الرعيل الأول الصالح ، جهداً في هذا السبيل .

وفي البرازيل ، في مدنـــه الصغيرة وقراه على التخصيص ، عناصر حية متشوقة .

وفي اوطاننا الأولى لهفة وتجاوب مأمول ، رسمياً وشعبياً ، من شأنه ان يساند اية نهضة تجند لها قوانا بتجرد واخلاص .

انها دعوة اخص بهـا نخبة من ذلك الرعيل الطيب تربطني بهم صلة ود عميق واحترام يتخطى حدود المذاهب السياسية ليمجد جمال الحرف القدسي .

وكل دعوة اوحركة ادبية ، مها بلغت من الأصالة والقوة ، تفقد الكثير من الرواء ان لم تظللها الهالة الحيّة التي تكلل هامة هؤلاء الرواد .

يجب ان يعود العهد القديم الزاهر . يجب ان يستمر ويتجدد ، وان يكون له هذه المرة ندوة خاصة ، خالصة لوجه الأدب ، تجمع الرواد والذين يحبون على سفوح الأولمب ، ليتم التماس ، وتتم عناصر المحاكاة والقدوة .

شيء واحد يلهب نفسي حماسا وغيرة : صدى الحركة السحري العجيب

في عشرات الألوف من الأدباء وعشاق الأدب في محافل سورية ولبنان وتونس ومصر والعراق والجزائر وغيرها ، ممن أخذوا بسحر دولة الأندلس الجديدة ، يوم كان لها شعار وراية .

فما اجمل ان تظللنا من جديد تلك الراية المباركة .

امنية تستهوي الأدباء وعشاق الأدب .

وتستهوي الغريب ...

يستعيد بها حميًا امسه الغابر .

أو تستطيع الا تستهوي اصحاب البيت، الرواد الأندلسيين ، وهم احياء، في شغاف العين والقلب ؟! ...





جوع
قصة
لزكريا تامر

لم يكن احمد ملـكا وقد تنقل من مقهى الى مقهى دون أن يقابل احدا يعرفه ، ولم يجد مفرا من ان يقصد صديقه الرسام الذي كان شديد الفقر .

ورحب الرسام بأحمد ، وكان كريم الخلق ، سخيا ، فرسم على ورق ابيض دجاجة سمينة مشوية ، وقال لأحمد : « هذا هو الطعام الوحيد الذي املكه » .

فضحك احمد مبتهجا ، واكل الدجاجة بشهية ولكنه تمنى لو كانت مغموسة في الزيت الممتزج بالثوم المسحوق ، ثم مسح فمه بظهر يده وهو يقول : « الحمد لله »

ثم شكر صديقه الرسام بحرارة ، وصمت هنيهات ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة ماكرة :

« بودي لو اسكر » .

« لا » .

« لماذا لا » .

« انا ضد الخمرة » .

« جرعة صغيرة فقط » .

« لافائدة من التوسل فكل انسان يجب أن يكون له عدو ما وانا عدوي الخمرة » .

« الخمرة لاتضر » .

« لافائدة من التوسل فلن اغير موقفي » .

فحنق احمد على صديقه البخيل ، وغادر مرسمه متضايقا اشد الضيق ، وسار في الشارع تحت شمس آب عجوزا عمره آلاف السنين ، وردد بصوت مرتفع « آه ياأمي »

ولم يكد يمشي قليلا حتى ترنح وهو بالسقوط، فاغمض عينيه باعياء ، فتوارت الشمس وحمت الظلمة ، وعندئذ سارعت ايد مجهولة وعاونته على الصعود الى احدى المركبات، وسمع اناسا يتهامسون:

«مولانا الملك احمد مريض » .

وسارت المركبة ، ولم يسمع احمد صوت دواليبها ولاصوت سنابك الجياد .

وتوقفت المركبة بعد حين ، فأحس احمد بقوة مباغتة ، فنهض ونزل من المركبة ، فبادر اشخاص كثيرون الى الانحناء له . ودلف الى داخل قصر كبير يحيط به الخدم والجند .

« أنا جائع ».

وجلس احمد على مقعد وثير ، فأسرع الخدم واحضروا طبقا كبيرا ووضعوه امامه قائلين:

« هذا أفخر ما في المطابخ الملكية ».

وأزاح احمد الغطاء عن الطبق ، ففوجيء بطفل صغير حي ، فاقشعر جسده ، وعزم على الفرار غير ان يديه امتدتا ببرود الى الشوكة والسكين ، واقتطعت السكين جزءا من لحم الذراع واطبقت الاسنان بنهم على قطعة اللحم الطرية الدامية بينا كان الطفل يعول عويلا حادا .

واقبلت امرأة ترتدي ثيابا سوداء ، وصاحت بصوت متهدج : « أكلت ولدي » .

فقال احمد ببرود : « ستنجبين غيره » .

- وكيف أنجب ولدا دون رجل » .

- الرجال كثيرون » .

فجثت المرأة على ركبتيها هاتفة : « امنحني رجلا » .

فتكلم أحمد ، وقال وهو يشير بيديه الى الرجال المحيطين به : « لك ان تختاري أي رجل تشائين » .

فأخذت المرأة تتفحص الرجال مليا ، ثم قالت : « لقد اخترت الرجل الذي اريد » .

- من هو ؟ » .

- انت » .

وكان باستطاعة أحمد ان يأمر بقطع رأسها غير انه كان في تلك اللحظة فرحا للغاية ، فنهض وأمسك يدها وقادها الى احدى الغرف ، وما ان اغلق الباب خلفه حتى سارعت المرأة تطوق عنقه بذراعيها مطلقة ضحكة ماكرة ثم تحولت الى افعى سوداء ، والتفت حول عنقه ، وشددت الضغط عليه فصاح احمد مستغيثا . فهرعت امه واحتضنته بلهفة قائلة له « هيا اشرب الدواء » .

فدس رأسه في صدرها بحركة مفعمة بحنين قديم جارف ، وبدأ ألمه بالزوال شيئا فشيئا ،

وفتح عينيه فاذا به جالس على كرسي في دكان حلاق ، يحيط به أناس عديدون وكان وجهه مبتلا بالماء ، فادرك على الفور ماحدث . وكان الحلاق رجلاً أشيب الشعر ، ابتسم لأحمد بود وقال له : « اغمي عليك بينما كنت تسير في الشارع » .

فنهض احمد واقفا ، عندئذ قال الحلاق متسائلا : « هل تستطيع السير ؟ » .

فأحنى أحمد رأسه بالايجاب ، ثم غادر دكان الحلاق وعاود السير وحيداً في الشارع .

وتوقف بعد قليل حين اعترض طريقه رجل كهل وابتدره متسائلا : « هل تعرف بيت الدكتور بشير البارودي ؟ » .

فاجاب أحمد بالنفي ، فقال الرجل الكهل بلهجة موبخة : « وكيف لاتعرف عيادته .. انه دكتور مشهور جداً » .

فابتسم أحمد ، وتابع مسيره بخطى بطيئة متوغلا في طريق فرعية ، تنتصب على جانبيها ابنية كثيرة . ودلف أحمد الى داخل دكان بقال ، وسأل البقال : «أتعرف بيت الدكتور أحمد النظامي ؟ » .

« لم اسمع بهذا الاسم من قبل »

« انه دكتور اطفال » .

وفكر البقال لحظات ثم قال « لم اسمع بمثل هذا الاسم من قبل » .

ـ انه دكتور اطفال .. سألت عنه في عيادته فلم اجده فيها وقالت الممرضة انه موجود في بيتـــه الكائن في هذا الشارع .. أرجوك .. ابني الصغير مريض وفي حالة خطرة » .

ـ لم أعرف دكتورا بهذا الاسم » .

فهز احمد رأسه آسفا ، واستأنف السير بوجه كئيب ، وابصر خادما صبية تخرج من احدى البنايات فاستوقفها قائلا : « هل تعرفين بيت الدكتور احمد النظامي ؟ » .

فقالت الخادم : « احمد النظامي .. احمد النظامي .. »

ـ نعم .. اسمه احمد النظامي .. دكتور بارع .. زوجتي مريضة وهي باشد الحاجة اليه » .

فقالت الخادم وهي تشير بيدها الى بناية صفراء اللون : « انه يسكن هناك ولا اعرف في اي طابق » .

فشكرها احمد بامتنان ثم قصد البناية الصفراء ، ودلف الى داخلها ، وقرع جرس الباب في الطابق الأول ، ففتح الباب فورا ، واطل رأس امرأة هرمة ، فقال لها احمد : « هنا منزل الدكتور احمد النظامي ؟ » .

« لا .. انه يسكن في الطابق الثاني » .

فارتقى احمد الدرج الى الطابق الثاني ، وقرع جرس الباب ، وانتظر حينا من الوقت ، ثم انفتح الباب عن رجل مشعث الشعر ، فبادر احمد يسأله : « هنا منزل .. »

فقاطعه الرجل قائلا : « لا .. انه يسكن في الطابق الثالث » .

فقال احمد بدهشة : « من يسكن في الطابق الثالث » .

- ألا تريد منزل الدكتور احمد النظامي؟ انه يسكن في الطابق الثالث» .

فصعد احمد الى الطابق الثالث دون ان تبارحه الدهشة ، وهناك ضغط على زر الجرس فلم يسمع اي رنين . اذن الجرس معطل . فضرب بقبضته خشب الباب ، فانبعث من الداخل صيحة امرأة تقول : « اذهبي يا عفوية وافتحي الباب » .

وبعد قليل فتحت الباب فتاة صغيرة السن شقراء ، وتطلعت الى احمد بدهشة ، فقال لها :

- أين احمد ؟ » .

- احمد ؟ » .

- الدكتور احمد » .

- الدكتور احمد ؟» .

- نعم الدكتور احمد النظامي » .

- الدكتور احمد النظامي .. يسكن في الطابق الأول » .

- شكراً يا آنسة .. عدم المؤاخذة لأني أزعجتك .. هل زوجك موجود ؟ » .

- زوجي ؟ » .

« ألست متزوجة ؟ » .

فنظرت الفتاة اليه بذعر ، وصفقت الباب ، فأسرع احمد يهبط الدرج بسرعة ، وهرول في الشارع وهو يتخيل أن رجال الشرطة سيقبلون لاعتقاله وسيضربون رأسه بأحذيتهم الثقيلة .

وتنهد بارتياح حين أصبح داخل غرفته ، ووقف أمام المرآة فشاهد شاباً ذا وجه أصفر ، فقال له :

« أهذا أنت يادكتور احمد ؟ بحثت عنك طويلاً .. أنا مريض .. افحصني » .

فقال الدكتور : « ألت مريض ؟ حسنا .. أنا اوصيك بما يلي : كل لحماً وتفاحاً » .

- هل يلائمني أكل التفاح ؟ » .

- يجب أن يكون لون التفاح أصفر مشرباً بالحمرة » .

- والاجاص ؟ » .

- واحدة منه تكفي ؟ » .

- والعنب ؟ » .

- غير ضار .. كل منه ماتشاء » .

فأحنى رأسه ، وبحث في غرفته عن شيء يؤكل ، فوجد نصف رغيف يابس كان مختفيا تحت الكتب التي تغطي سطح الطاولة ، فبلله بالماء ثم أكله ببطء ثم تمدد على السرير ، وسرعان ما استسلم للسبات فشاهد أثناء نومه امرأة جميلة ، فاحتضنها بحنان وضراوة ، وكان لحمها خبزاً أبيض ساخناً .

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجور البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الفنون

الكتاب والموضوعات

- مفهوم فن عصر النهضة

للدكتور عفيف بهنسي

- الانسان والغناء

بقلم حامد حسن

مفهوم فن عصر النهضة

للدكتور عفيف بهنسي

بداية النزاع بين الاتباعية والبيزنطية

عند دراسة فن عصر النهضة فان اول ما يثير انتباهنا هو ان هذا الفن كان الوريث الوفي للفن الاغريقي القديم الذي اعتبر الانسان الموضوع الأساسي للفن، كما اصر على محاكاة الوجوه البشرية عند تمثيلها في التصوير والنحت، ولقد تأكد هذا الاتجاه بعد الدعوة المسيحية، فلقد دعا القديس فرانسوا الى حب الله عن طريق حب مخلوقاته الأكثر قرباً للواقع. غير ان تيار الفن البيزنطي الذي جاء من الشرق، والذي قام على النظرة الحدسية التي تبحث عن المضمون الجوهري الخالد وعن تخطيطات مختصرة ومرمزية وعن علاقات هندسية متضافرة دون احترام قوي للشكل الواقعي قد اخرت في الغرب ظهور الفن الواقعي.

كذلك فان امتداد امبراطورية الاسكندر في الشرق وتأثر الفن الهلنستي بالشرق وامتداد آثار الفن الاسلامي في بعض ارجاء اوربا قد وجه الفن نحو التجريد والتحوير وهكذا ظهر الفن الرومي Roman ذو الاصل الشرقي والقائم على الزخرفة والتبسيط والتخيل ، والفن المجامل Courtois . ولم ينج من ذلك الا الفن القوطي الذي انتقل الى فن عصر النهضة على يد نيكولا بيزانو حاملا طابع الرقش كما في لوحات جيوفانينو وبيزانيللو وبوتيشيللي .

على ان ولادة الواقعية في فن عصر النهضة انما تطورت عن الفن البيزنطي نفسه .

نحو القرن الثالث عشر ، كان الفن البيزنطي هو السائد في ايطاليا ، تجسيم الوجوه كانت مسطحة بدون حجم مرسومة بخطوط سريعة . كما نرى في لوحة برلينغييري Berlinghierie وفي القرن الرابع عشر اقترب جيوتو في فلورنسا من السمات الواقعية للوجوه وبلغ اتجاهه ذروته في محاولة التجسيد النحتي للحجوم ، وكان بداية لبعث مفاهيم الفن الاغريقي . وتجلى التصوير ذو الأبعاد الثلاثة بقوة حتى في النقش النافر ، اما في سينا فقد تقدم التصوير التجسيدي ودخل النور الى اللوحة لكي يدعم واقعية العمل التصويري الى ابعد حد . ثم خطا الفن التشكيلي مرحلة جديدة نحو الواقعية عندما اولى الفنان عنايته للوضع والمادة ، فكان لابد ـ ان في النحت او التصوير من اختيار الوضع المناسب للتعبير عن حالات معينة من التعبد او الابتهال او التعاطف ومن الدقة في تصوير المادة من قماش او ورق او معدن .

المثالية الجديدة تقوم على العلم :

وبفضل مسايرة النهضة الايطالية لتطور الثقافة ، وجد الفن حوله الكثير من المثقفين ممن تطوعوا لوضع قواعد للجمال والفكر . وكان المعمار البرتي من اعظم نظريي عصر النهضة الى جانب فيليفلو Filelfo الذي عاد من القسطنطينية في عهد محمد الفاتح وقد ملأه الرعب من زوال آثار الحضارة الغربية ، فعمد الى الكتابة في حالية قائمة على الأصول الاغريقية القديمة ، معارضا بقوة الأصول الشرقية التي كان متوقعا لها الفوز عن طريق السيطرة السياسية التي كان يستعد لها العثمانيون .

وهكذا اشترك مع البرتي في وضع قواعد رياضية وهندسية لفن العمارة ولفن التصوير والنحت ، وهذه القواعد تقوم على المبادىء الافلاطونية في علم الجمال وعنهما ظهرت قوانين علم المنظور والتخطيط والنسب الذهبية .

على أن مفهوم علم الجمال في عصر النهضة عاد لكي يستقر نهائيا في معالم الانسان كصورة ، تماماً كما كان الأمر في العهد

الاغريقي حيث كان الانسان يحتل مكان الصدارة في القيم والوجود وفي قياس الأسس الفنية والمقاييس الجمالية كما يقول فرانسيس باكون .

ومع ان فن عصر النهضة كان يتجه اتجاها مثاليا ، فان الرياضيات لم تكن تعارض هـذا الاتجاه ، بل كانت تستخدم تقدمها لصالح الفن ، حتى ان بيرود للافرانشيسكا استوحى ماسمي « بالتناسب الالهي » وهو القانون السحري للجمال ، كما أن باولو اوشلـلو Uccello كان يردد قائلا : « كم هو رائع علم المنظور هذا » .

ولقد وصل الجمال المثالي الى أوجه عند ليوناردو ورفائيل عنـدما حاولا تصوير السمو الالهي من خلال الفن المتعالي القائم على وحدة الشكل والتناسب وتناسق الموضوع . ولقد أصبحت هذه الاسس قانونا فرض احترامه البابا نفسه ، في جميع الاعمال الفنية في العمارة والنحت والتصوير .

البحث عن الحقيقة :

ومنذ بداية القرن الخامس عشر والمعروف بالايطـالية بكواتروشنتو Quattrocento تحررت فلورنسا نهائياً من سيطرة الطراز القوطي ، خالقة تقاليد جديدة مفتوحة على فن حديث .

فلقد تكاتف جميع الفنانين من مصورين ونحاتين ومعماريين مع الادباء لخلق اتجاهات جديدة معارضة للقوطية . ففي التصوير بدأنا نرى في لوحة لسيمون مارتيني Martini ولبيزانللو Pisanello خصائص جديدة منها الدقة في التنفيذ والتحسس المرهف بالطبيعة والتعلق بالشكل الانساني او الالهي ، والتقيد بالتفاصيل ، كل ذلك لخلق جو جمالي عاطفي ، ولقد تجاوب الشعراء امثال اندريا كابيلانو Cappellano مع هذا الاتجاه الجديد .

واذا نظرنا الى اعمال النحاتين دوناتللو Donatelo ومازاشيو Masaccio لوجدناها وقد تحررت من التأنق وتخلصت بصورة جذرية من الطراز القوطي ، ولكن الفن اصبح اكثر تعقيدا ، فلم يعد مجرد تصوير ومحاكاة ، فقد طالب غيبرتي Ghiberti بأن يلم الفنان بالقواعد والهندسة والفلسفة والطب والفلك وبالمنظور والتاريخ والتشريح وبالنظريات العلمية والرسم والحساب ، اي ان التصوير والنحت اصبحا علما مؤلفا من كثير من المعارف .

ولم يعد الجمال منذ بداية عصر النهضة نوعا من التزيين الترف ، بل اصبح مظهراً من مظاهر التقدم والرقي الفني والفكري ، بمعنى ان الفنان اصبح مجبرا كما يقول براكيوليني على استعمال عقله وثقافته ، لكي يقيم قواعد ثابتة في الانشاء والتناسب والتناسق ، تكون دعامة في فنه .

واذا كانت فلورنسا اتجهت في ذلك القرن نحو الثقافة والعلم ، فان هذا الاتجاه كان يحمل شكلا دينيا لاهوتيا متصلا بنفس الوقت بالاسلوب الاتباعي .

وفي العمارة حذا برونيلليسكي Brunelleschi حذو الفنانين ، فلقد امتازت العمارة الجديدة بميزتين اساسيتين ، الايقاع الدقيق المبني على اصول هندسية مدروسة دون اعتباط، والتناسب prapartion في اجزاء العمارة المدروسة بدقة حسابية ، فقد اصبح المنظور والتناظر والتناسب قوانين للرؤية . الى جانب ذلك نرى مسحة من الصوفية في مجمل العمارة واضحة في كنيسة بازي Bozzi يبدو فيها « شيء من المجد الالهي » .

ومع ذلك فان العمارة عند برونيلسكي اذا كانت تحولا شاملا عن القوطية فانها احتفظت من هذه بصفتين اساسيتين ، الاولى بساطة التكوين ، والثانية تماسك العناصر .

اما في النحت فان دوناتللو Donatello قد اختط لنفسه طريقا وسطا بين القوطية والكلاسية حتى ان البرتي قال عنـــه « انه يعادل اي نحات قديم » .

على ان دوناتللو الفنان المتواضع الكئيب المنطوي على ذاته ، لم يخرج عن مفهوم النهضة في اعطاء العلم المقام الاول ، حتى ان بعضهم يعتقد ان دور دوناتللو كان في اعادة حق الاسلوب القوطي وفق تمحيص مدروس ، ولهذا فلقد كان التخطيط دائما يسبق التنفيذ لديه .

شأنه في ذلك شأن برونيلليسكي . ولقد استطاع دوناتللو ان يربط دائماً بين مادة موضوعة وبين تشكيل مادة نحته ، ففي تمثاله (سان ميشيل) نرى تشكيل الرأس يختلف عن تشكيل وملمس اللباس . وهكذا فرض نفسه على مادة النحت ، فتارة ثنيات معقدة واخرى مبسطة واحياناً مساحة ملساء او منطقة مبهمة وهكذا .

التحول عن الحقيقة الى الجمال

وفي نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر وهو العصر الذي نطلق عليـــه اسم شنكو ـ شينتو (Cinquecento) لم تعد الحقيقـة هدف الفنان ، بل الجمـال الذى لا يخضع لأي تحديد في الشكل أو لأي قاعدة نظرية وهو الذي يسميه الايطاليون Aliquid incor - poreum واصبح كل مايؤول الى تحســين التقنية او يزيد من البراعة التنفيذية موضع اهتمام. وهكذا اصبح للتزين في اسلوب بوتيشلي دور هام اساسي . فلقد اصبح الجمال الشعري غير المادي مفضلا على الجمـال القائم على المعرفة الموضوعيـة للطبيعـة والتـاريخ وظهر ذلك ايضاً في العمارة عند (داسان غالو Da Son Galo) وفي النحت عند روسيللينو . ولكن عملاقين من عمالقة الفن في التاريخ هما ليوناردو دافنشي وميكل انج تصديا لهذا التيار

الفني : الأول بما قدمه من دراسات علمية وابحاث نظرية ، والثاني بالتراماته الاخلاقيـة الحازمة . والحق ان ليوناردو وميكل انجلو عالجا بصدق الأزمة الداخلية التي كانت تعانيها النزعة الانسانية ولكن عن طريق وضع مشكله الجمال والفن في في صيغة جديدة خارجة عن معنى التقليد والمحاكاة الشائع في الأسلوب القديم .

وبينما كان رفائيل يدعو الى الحرية الابداعية ، كان كورجيو يقيم دعائم الجمال التعبيري ، ويقيم مدرسة واقعية تعبيرية . وعندما اقام هانيبال كاراشيو دعائم المدرسة النهجية Manierisme كان هذا الاتجاه اول دلالة على تهـافت عصر النهضة ، فقد اتصل بفن الباروك الذي حمل لواءه النحات برنيني والمعـماري مورميني ثم انتهى بالروكوكو . ولم يكن هذا الاتجاه جديداً .

الردة الى الواقع وامراض الخيـال

في الوقت الذي بدا فيه عصر النهضة بمفهومه الجمالي العقلي الواضح منتصـراً بدون حدود ، كانت هناك بعض مصادر الابحاء المخالفة لمفهوم عصر النهضة تأخذ بالانتشار بسرعة . بل لقد كان عباقرة النهضة انفسهم يستسلمون احياناً لتأثيرات قلقة غريبـة ، وهكذا كان ليوناردو دافنشي نفسه واسطة للعودة نحو العدم ، ولقد اوحى بذلك من خلال تعبيراته عن منشأ الطبيعة ، وعن القوى الخفية كما في لوحته الطوفان . اما ميكل انجلو فلقد عبر عن هذا القلق في كل مرة كان يحـاول فيها تصوير الانسان الذي تخلى عنه الله . حتى رفائيل الذي كرس نفسه للالهيات فانه استوحى الكثير من عالم جيروم بوش Bosch المليء بالغيـلان والخرائق ومن محيطه ذاته ، وفي بعض رسـوم الحفر المحفوظة في اللوفر نرى ذلك واضحاً في أعماله .

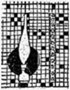
الاصلاح الديني والانصراف الى الطبيعة

ومن جهة اخرى فان الاتجاه نحو الاصلاح الديني البروتستانتي كان له تـأثيره على النفس ، فمنذ محاولة سافونارولا التعصبية في فلورنسا والتي ظهرت بوادرها في لوحة « الحكم الأخير » في مصلى السكستين لميكل انجلو ، فان الطـابع التقشفي في الدين كان ينتصب في وجه كاثوليكية عصر النهضة ، ثم يسيطر في المانيا على يـد لوثر داعيا الى راحة النفس بعـد طرد الشيطان من ارجائها . وقد بدا ذلك لاتجاه في الفن بمظاهر مختلفة ، منها الاكثار من الموضوعات الموسيقية كما في اعمـال جيورجوني وفيرونيز وحتى الى واطو ، ومنها ضبابية الشكل ، ولقد كانت البندقية نفسها هي البادرة الى هذا الاتجاه المتعارض مع

اصول فن النهضة . ونستطيع ان نوضح هذا الاتجاه بمقارنة اسلوب العمارة عند برامنت Bramante مع اسلوب العمارة عند باللاديو Palladio . وفي مجال التصوير فان تيسيان هو ممثل الاتجاه الجديد ثم كان تنتوريتو الذي جعل من التشكيلية الصلبة مزيجاً من شفافية الانطباعية ولا تحديد التعبيرية . ولقد اطلق الغريكو العنان لهذا الاتجاه في اسبانيا فكان بذلك جسراً بين معلمه تنتوريتو وبين فيلاسكس وبما أن الاصلاح الديني كان يهدف الى القضاء على الترف والطقوس الدخيلة وابعاد الدين عن الاستغلال السياسي

فقد ابتعد الفن في مواضيعه عن الطابع الرسمي الذي كان سائداً في عصر النهضة والذي كان يكرس موضوعات الفن اما للاحداث الدين أو رجاله وأما للسادة والأمراء ، ولقد كان التأثير هذه المرة أيضاً من الشمال الجرماني ، من بروغل Bruegel وتلاميذه الذين اعتنوا بتصوير الحياة الشعبية ثم انتقل التيار الشعبي الى ايطاليا فظهر عند كارافاجيو وكاراشيو كما ظهر في اسبانيا عند فيلاسكس وفي هولاندة عند رامبرنت .

وفي الواقع فان عصر النهضة كان ذا اتجاه ذهني ، وكان انسانياً أكثر منه دينياً ، ومثالياً أكثر منه صوفياً ، وعقلياً أكثر منه عاطفياً ، ولكن الطابع الروحاني الذي كان سائداً في القرون الوسطى عاد لكي يظهر من جديد بعد الدعوة الاصلاحية . فعادت الموضوعات التنسكية والتعبدية للظهور مجدداً في اسبانيا في اعمال زوربا والغريكو ، وفي فرنسا في اعمال جوفنيه ولينارد ودولاتور .



الانسان والغناء

بقلم حامد حسن

من المرجح، ان الانسان عرف الغناء — اصواتاً منغمة — قبل ان يهتدي الى الكلام، فعبر بهذه الأصوات البسيطة العفوية عما يجيش في صدره، ويعتمل في نفسه من دوافع اللذة والألم وميول الرغبة ومختلف النوازع.

ولا ادل على ذلك من الحركات والأصوات الرتيبة التي يحدثها الطفل في اشهره الاولى، وما تقوم به الحيوانات الدنيا من اصوات متناغمة، متساوقة، موسوقة، هي تعبير عن فرحها أو ألمها اوتكون استدعاء جنسيا.

وهناك دليل لا يقل عن هذه الأدلة، أو انه يفوقها اهمية، وصحة دلالة، وقوة برهان. وهو: ان مقاطع الكلمات في امهات لغات العالم كانت في الأصل اصواتاً مختلفة، ثم شكلت بنية الكلمة بعد ان تدرج الانسان في مراحل تطوره فالكلمة كانت — اول ما كانت — مقطعا صوتيا بدائيا ثم تدرجت بعد ذلك الى مقطعين واخيرا تحولت الى كلمة ذات مدلول.

ونطبق هذه النظرية على لغتنا العربية ولنأخذ هذا البيت:

أماني من ليلى حسان كأنما

سقتنا بها ليلى على ظمأ بردا

فانت تلاحظ هذه الأصوات المنسابة ذات المستوى الواحد في الألفات الساكنة المفتوح ماقبلها من الالفاظ التالية :

اماني — ليلى — حسان — كأنما — سقتنا — بها — ليلى — على — بردا — .

فهذه الأصوات الممدودة التي تحدث الارتياح في في النفس والارتعاش في المشاعر والاهتزاز في الأعصاب والانسياب في الأعماق هي — بحد ذاتها — اصوات بسيطة شكلت مع غيرها جسم الكلمة المعبرة ذات الدلالة المستقلة .

كما ترى في « التضعيف » الكائن في لفظي — اماني — كأنما — توقفا متغما معطشا لتقوية الاستثارة وتعميق الأثر .

وحس التأوه والألم يعبر عنها حرف اللين ـ الياء الساكنة ـ في كلمتي ـ ليلى ـ وحرف اللين هذا يستوعب توقفا زمنيا مهموساً يستهلك الرعشة التي احدثها هذا الصوت .

وهكذا نرى ان الأصوات المختلفة في بناء الكلم العربي مابين توقف وانسياب ، وهمس ولين وغنة تعبر تعبيرا طبيعيا عميقا عما في اغوار النفس من مكنونات وهي اسبق من الكلمات ذاتها .

وتشكل ذبذباتها خطا بيانيا متعرجاً تبعا لنوازع النفس ، وهي بالتالي تعبير اولي ساذج عرفه الانسان واعتمده قبل أن تأخذ الكلمة معناها الذاتي وشكلها الحالي .

ونريد من كل هذا أن نثبت ونقيم الأدلة على ان الانسان عرف الغناء ـ اصواتا بسيطة منغمة ـ قبل ان يضع للكلمة معنى مفهوما ، ومبنى مركبا .

ولما كان الغناء ـ تطربيا أو توجعا ـ اصيلا وطبيعيا في الانسان ، والكوائن الحية تهدهد به الآمال ، وتدهده الآلام كان لابد له ـ والحالة هذه ـ ان يتم عفويا ، ويطبع تلقائيا كما تتم حركات اليدين والرأس عندما تتحدث الى الآخرين مشاركة في تقوية التعبير ، وزيادة في الايضاح والافصاح .

السمفونية الطبيعية :

قيل : كل مافي الطبيعة منغم .

فالشلال في انثياله وارتطامه ، والعصفور في زقزقاته واغاريده ، والانسان في غنائه وبكائه وحركات قدميه ويديه ، والجدول في انسيابه وسقسقته وقهقهته ، والغدير في رقرقته وموجانه والنهر في خريره وهديره ، والبحر في صخبه وثوراته ، والرعد في دمدمته وهزيمه ، والزوابع في عصفها وعنفوانها ، والنسيم في حفيفه ورفيفه ، والحقل في تموجه وحفيفه ، والطبيعة بمجموعها تشكل « كلا » منغما .

أثر الغناء :

للغناء أثر بالغ على الأحياء ، وعلى رأس مجموعة الأحياء هذا الانسان .

فالثكلى التي فقدت وحيدها تجد في الغناء متنفسا لألمها وكربهـــا ، وتعزية لكلومها ، وهدهدة للوعتها ، واستغراقا مخدراً في النغم ينقلها ـ ولو لحظات ـ من واقعها ومرارته .

ويتغنى العاشق المتيم فيجد في انغماسه في النغم تسلية ، او ذكرى محببة .

وتقوم الندابات في المآتم بعملية نقل اهل الميت من واقعهم ، وصرفهم بواسطة الغناء عن هذا الواقع الأليم .

ويستعـــين الحواة على ترويض الأفاعي ، وقنصها وترقيصهـا بالغناء والموسيقى فتطرب وتستجيب وهناك نوع من النباتات الشديدة التأثر بالغناء فتتفتح أوراقها عند حدوث اصوات مطربة على مقربة منها وتتقلص وتنكمش اذا توقفت هذه الأصوات .

والزيز والصرصار والعصافـير وكثير من الحيوانات تستدعي اناثها بواسطة الصوت ونلاحظ ان الطيور غناء أو نواحاً .ؤلماً اذا اغتصبت فراخها ، أو خربت أعشاشها ، تعبيراً عن ألمها وحزنها .

الغناء كعلاج :

اذا كان الغناء يصرف الانسان عن واقعه بقوة تأثيره ، أو يغمسه في هـذا الواقع فان الطب الحديث أدخله كعلاج في كثير من الأمراض العصبية والنفسية ، وحالات الأرق المستعصية وغيرها .

وذكر المؤرخون ان الأطباء القدامى استعملوه في العمليات الجراحية قبل اكتشاف المخدر وانتشاره .

كما عرف الغناء والأنغام منذ القديم في الهياكل والمعابد لما يحدثه من تفتح النفس ، وما يوحيه من الجمال والجلال . والرهبة في نفوس الجماهير ، ولم تزل الصلوات والطقوس تسودها نزعة غنائية ترتيلية .

غناء الشعوب :

تغنت الأمم والشعوب عواطفها انغاما موسقة ، وصعدت رغباتها اصواتاً متساوقة ويختلف الغناء سموا ، وضعة ، وعمقـــا وسطحية باختلاف مصادره . فالشعوب البدائية مربوطة الى بدائيتها بغنائها ممثلة

أصدق تمثيل به ، وبطرق تأديته . وتعكس هذه الصورة الحية الصادقة شخصية هذه الشعوب ، وتبين مكانتها في سلم الحضارة ومدارج الرقي .

والشعوب الراقية تلت اغانيها لأنها تمكنت من صقل عواطفها ، وتهذيب ميولها وتنسيق رغباتها ، فجاءت اغانيها غنية بتجاربها طافحة بمكتسبات الحياة والحضارة زخارة بكنوز الفتنة والجمال وان انحرفت بالأمة او الشعب عن المعطيات الطبيعية واحلت مكانها مكتسبات حضارية .

وعلى هذا يمكننا القول : ان غناء امة من الأمم يصور لنا ـ الى حد بعيد ـ مدى التقدم والرقي فيها .

تقسيم العالم غنائياً :

يقسم العالم غنائياً ، وتبعاً لخصائص الشعوب ومقوماتها الى اربعة اقسام رئيسية :

١ — غناء الشعوب السامية .

٢ — غناء الشعوب الآرية .

٣ — غناء شعوب الطورانية .

٤ — غناء شعوب القطبين واواسط افريقيا .

والمعروف عند علماء الأقوام ان الشعوب السامية مطبوعة نفسيا وغنائيا بالطابع الروحي والانخطاف بالمجردات والتأمل . والاستغراق الصوفي والخيال ويظهر اثر الألم والشكوى والاستسلام في غنائها وتفكيرها .

ويمتاز غناء الشعوب الآرية عن غناء الشعوب السامية وغيرها بالواقعية والمادية والفرح والانغماس في الحياة ، وعمق الاحساس بها وتمجيدها .

اما غناء الشعوب الطورانية فهو مزيج من الغناء السامي والآري مع خصائص بيئوية محلية وعرقية . لان السامية والآرية تلاقتا وتفاعلتا — عبر التاريخ — في هذا المعبر — جبال طوروس — قبل ان يمخر الانسان عباب البحار ، ويكبح جماح المحيطات . فنشأ من هذا التلاقي خصائص ومقومات الغناء الطوراني واشتركت كل من السامية والآرية بنصيب وافر في تكوين هذا التراث .

وعلى هذا فالشعوب الطورانية كالاتراك والاكراد والارمن وغيرها من الاقوام الطورانية لها طابع غنائي مميز يجد فيه السامي ، كما يجد فيه الآري نفحة من روحه وقبسا من حضارته الفنية .

وهذه الخاصة — خاصة المزيج — تشترك فيها البلاد الاسبانية ، واجزاء من شرقي آسيا حيث تفاعلت حضارات اقوام وتزاوجت ثقافات شعوب متعددة فتركت اثراً ظاهراً في غناء هذه الأجزاء من العالم .

وهذا يفسر لنا بجلاء ووضوح لماذا تنصت نحن العرب باعجاب ، وتستجيب برغبة عميقة

ومشاعر متفتحة متيقظة الى الغنـاء والموسيقى التركية والاسبانية والهندية وتجدميلا روحياليها.

اما الشعوب القطبية وشعوب اواسط افريقيا، فلم يقوم اي دليل تاريخي على قيام شخصية غنائية وفنية مستقلة ، او متميزة عند هذه الشعوب ، وليست لدينا المقاييس العلمية الثابتة لتعين لها مكانتها بين الشعوب فنيا وغنائيا .

وكل مايمكن قوله : هو ان هذه الشعوب تقسم الى قسمين اثنين :

اولهما الشعوب المجاورة لأحد الشعوب الثلاثة السامية او الآرية او الطورانية ، فهذا القسم خرج من دائرته المغلقة بحكم التجاور والتحاك والاقتباس فاخذ واعطى وتفاعل مع هذه الشعوب النامية غنائياً وكون « طورانية » جديدة في نقاط التماس .

وثانيهما بقي مغرقا في بدائيته ، فشكل وحدة غنائية مغلقة .



من ادارة (المعرفة)

١ ــ اهداءات

ترجو ادارة المعرفة من اصدقائها الاساتذة الذين ترسل اليهم المجلة هدية في سورية أو في الوطن العربي او المهاجر أو البلاد الأجنبية ، ان يتكرموا باعلامنا كتابياً ، عن وصول المعرفة اليهم بانتظام ، وإلا فستكون الادارة مضطرة الى التوقف عن ارسال المجلة ، بسبب الشك في صحة العنوان المرسل اليه .

٢ ــ المقالات

لاترد المقالات الى اصحابها ومرسليها ، نشرت أم لم تنشر ونرجو مراسلينا قبول عذرنا .

الى المؤلفين وأصحاب دور النشر

ان تحرير (المعرفة) لن يقصر في أداء واجبه نحو المطبوعات العربية التي تصدر في أي بلد عربي ، ويسعده في كل حين أن يقوم بهذا الواجب الثقافي القومي خير قيام . على أنه من الواجب أيضاً أن ندعو الأساتذة المؤلفين وأصحاب دور النشر الى مساعدتنا وتذكيرنا بمؤلفاتهم ومطبوعاتهم ، واهدائها لمجلة المعرفة ــ اذا أمكن ــ ليتيسر لنا الاطلاع الكامل على النتاج العربي والمشاركة في تقييمه وتقديمه لقرائنا .

ــ مجلة المعرفة ــ دمشق

اللوحة :

« ام وطفلاها »

اللوحة عند فاتح المدرس كالنسيج المتكامل من الاحساس والعفوية .

ان الشكل عند فاتح المدرس مرتبط بالأرضية التي يرسمها ، وكلما كانت الأرض دافئة حارة انعكس ذلك على الوجوه والأشكال التي يقدمها الى اللوحة . حلوله حلول مبسطة فيها كثير من الجرأة والعفوية ، في الوانه فنان حار القلب .

والطفولة والأمومة اخذت من احساسه الشيء الكثير حتى ان البدائية التي يمارسها في رسمه لمثل هذه المواضيع انتقلت من حيث صدق الاحساس الى نفس البدائية التي رسم بها الأطفال انفسهم .



فاتح المدرس — ام وطفلاها

- كتاب المعرفة — الفكر الفلسفي الهندي
  ترجمة ندرة اليازجي
- مقابلات المعرفة — مع امين نخلة **من عصمت منلا**
- المكتبة العربية — من الأيام « مجموعة مقالات » للدكتور صبحي ابو غنيمة
  عرض وتحليل ناقد المعرفة الأدبي
  أدب المغتربين تأليف الياس قنصل
  عرض وتقديم ماجد صالح السامرائي
  قيم جديدة للأدب العربي
  للدكتورة بنت الشاطئ. عرض وتحليل عبد الله كنون
  زوربا اليوناني
  عرض وتحليل محي الدين صبحي
  القومية في القرن التاسع عشر
  عرض وتحليل عيسى فتوح
  المغالط الشائعة في اللغة «المنير العمادي»
- رسائل المعرفة — النشاط المسرحي في المغرب
  للدكتور سلمان قطاية
- كتب جديدة
- **اخبار الأدب والفن**
- **فنون**
- **مسرح** طرطوف — ندوة البيت الصاخب
- جولة **الشهر** مع تيارات الفكر العالمي (التخطيط الفرنسي)

كتاب المعرفة

الفكر الفلسفي الهندي

A Source Book

in

Indian Philosophy

تأليف

سارفبالي راداكريشنان (رئيس جمهورية الهند)

والدكتور شارلس ا. مور

Sarvepalli Radhakrishnan

Charles A. Moore *

ترجمة نده اليازجي

(*) آثرنا أن تكون ترجمة هذا الكتاب A Source Book in Indian Philosophy « الفكر الفلسفي الهندي »، بدلا من الترجمة الحرفية كما فضلنا ترجمته على ترجمة كتاب فريدريك ماكس مولر « الفلسفة الهندية » وذلك لأنه يشمل المدارس الفلسفية الهندية كما يقدم بعضاً من —

تطورت الفلسفة الهندية تطورا طويلاً ومعقدا ، وقد يكون تاريخ تطورها اطول من تاريخ اية اسطورة فلسفية اخرى . ومع ان النظرة التاريخية ذات أهمية كبرى لفهم اسطورة كهذه ، فإنه يستحيل تقديم دراسة تاريخية دقيقة لهذا التطور . ونتيجة لنقص التأريخ التاريخي لدى الهنود فقد ضاع الكثير من التفاصيل المتعلقة بالتتابع التأريخي للكتابات او على الاقل لم يحفظ لها سجل . لذلك يمكن كتابة الفلسفة الهندية في اشكالها العريضة فقط ، مع العلم ان فلسفة كهذه لاتكتمل بدون التعرف على الفلاسفة الذين كانوا مسئولين عن العقائد وعن تطور الفكر . وعلى كل حال ، نتيجة لتعمق الهنود في الفلسفة ، فإننا نعرف عن الفلسفات الهندية اكثر مما نعرفه عن الفلاسفة انفسهم ، ومع ذلك لانعرف سوى القليل عن فلاسفة الهنود الاقدمين ، بينما ظل عدد كبير منهم يتصف بالخرافة . فمن جهة ، نعرف بعض الاحيان مؤلف بعض القصائد لكن النصوص الأصلية غير متوافرة وتفاصيل المناهج مجهولة تماماً .

مرت الفلسفة الهندية خلال تطورها في اربع مراحل رئيسية انتهت عام ١٧٠٠ ب . م : مرحلة الفيدا التي يعتريها الغموض وتقع تقريباً بين عام ٢٥٠٠ و ٦٠٠ ق.م . في هذه الفترة استقر الآريون الذين أموا الهند من آسيا الوسطى وجعلوها موطناً لهم وتوسعوا وطوروا ثقافتهم وحضارتهم الآرية ، اما من الناحية العلمية ، فانه لايمكن تسمية هذه الفترة بعصر فلسفي وذلك لأن الدين والفلسفة والخرافة والفكر اتصلت ببعضها وعانت نزاعاً وانقساماً

= النصوص التي كتبها مؤلفوها او علقوا على نصوص قديمة ، بينما يعتبر كتاب ماكس موللر - على اهميته - دراسة فكرية عامة لاتساعد الدارس على ان يميز بين المدارس الفكرية بشكل واضح .

يعمل سر فباليرادا كرشنان (رئيس جمهورية الهند) والدكتور شارلزمور على ايضاح المبادىء الرئيسية للمدارس المختلفة التي تتدرج في الترتيب كما يلي : الفيدا ، الأوبانيشاد (الميها غفادغيتا) ، للها بهاراتا ، قوانين مانو ، ارثا ساسترا ، كارفاكا ، الجانسية ، البوذية ، نيايا ، فايسيسيكا ، اليوغا ، بورفاميما مسا ، الفيداناتا . ومن العصر الحديث : سري اوروبندو ، سر فبالي راو كرشنا .

ولكي نعطي فكرة وجيزة ودقيقة عن روح الكتاب فقد عملنا على تقديم المقدمة ، دون عرض دراسة خاصة عنه ، لأنها كافية لاظهار أهمية الكتاب . — المترجم —

شديداً ومستمراً . انه عصر تطور فلسفي على كل حال ، وتعتبر مبادئه التي عرضت في الاوبانيشاد لهجة العصر ان لم تكن النموذج الدقيق لتطور الفكر الفلسفي الهندي منذ ذلك الوقت .

تتضمن آداب هذه الفترة اربعة من الفيدا هي — رج فيدا ، ياجور فيدا ، ساما فيدا ، وأثارفا فيدا — ولكل منها اربعة اقسام تعرف بالمانتراس والبراهماناس والارنياكس والاوبانيشاد . وتشكل المانتراس (وهي اناشيد) خاصة الاناشيد الاخيرة من رج فيدا ، بداية الفلسفة الهندية . وفي انطلاقها من فكرة التعدد في الأجزاء الأولى من الفيدا الى التوحيد ، عبدت هذه القصائد والاغاني الطريق الى الميل للتوحيد في الاوبانيشاد . والبراهماناس هي مخطوطات دينية تتضمن طقوس وواجبات العبادة . والارنياكس والاوبانيشاد تشكل خلاصة البراهماناس وتبحث المسائل الفلسفية . وتطلب البراهماناس من رب البيت ان يقدم الاضاحي حتى اذا ماوصل الى الشيخوخة فان عليه ان يلجأ الى الغابة ليأخذ مكانه شخص آخر يقدم الأضاحي التي كان يقدمها هو سابقاً . والارنياكس ، التي تقع بين البراهماناس والاوبانيشاد ، تشجع الذين يعيشون في الغابة على التأمل . وتمثل الارنياكس هذه مرحلة الانتقال من طقوس البراهماناس وفلسفة الاوبانيشاد . وبينما تعتبر الاناشيد من ابداع الشعراء ، تعتبر البراهماناس من عمل الكهنة ، وتعتبر الاوبانيشاد حصيلة تأمل الفلاسفة . اما الاوبانيشاد ، فعلى الرغم من أنها استمرار لديانة الفيدا ، فهي احتجاج فلسفي قوي ضد ديانات البراهماناس . ونجد فيها الميل نحو التوحيد ، هذا التوحيد الذي يقوم على الحدس كمرشد للحقيقة المطلقة اكثر مما يقوم على العقل .

والفترة الثانية لتطور الفكر الفلسفي الهندي هي مرحلة الأناشيد التي تقع بين ٥٠٠أو ٦٠٠ ق.م الى ٢٠٠ ب.م . وتعرف هذه الفترة بكتابة القصائد الفلسفية في أدب غير منظم أو علمي ، ونخص بالذكر أناشيد رامايانا ومهابهاراتا وتشمل هذه الفترة أيضاً التطورات الأولى للبوذية والجاانية والسايفية والفشنافيسية . وتعتبر البهاغفاد - غيتا وهي من المهابهاراتا ، احدى النصوص الثلاثة الرئيسية للأدب الفلسفي الهندي . وعلاوة على هذا تعود بداية المدارس الهندية المستقيمة مذهبياً الى هذه الفترة . كما أن بداية المناهج تعود الى فترة ظهور البوذية ، وقد تطورت معها . أما الاعمال المنهجية للمدارس الرئيسية فقد كتبت بعد ذلك ، ولكن اصول معتقدات معظم المدارس كتبت أثناء (فترة) الأناشيد . وتعتبر هذه المرحلة من أخصب الفترات الفلسفية الهندية وغيرها من الفلسفات ، كاليونانية والفارسية والصينية . وقد أنتج عدد كبير من المواد الفلسفية وشبه الفلسفية في هذه الفترة ، وربما دلتنا معرفتنا بهذه الفترة على غنى وعمق وتنوع الأقوال الفلسفية . وقد وجدت في هذه الفترة فلسفات أخرى كمذهب الشك والمذهب الطبيعي

المادي الى جانب البوذية والجانية والمناهج الأخرى التي عرفت بعد ذلك بالمناهج الهندوسية المستقيمة مذهبياً . ومن هذه الثروة انبثقت المناهج الهندوسية المستقيمة مذهبياً والمناهج غير المستقيمة وتبلورت في مناهج منظمة .

وظهر في هذه الفترة الكثير من دارماستراس وهي مقالات في الأخلاق والفلسفة الاجتماعية . وتصنف هذه المقالات ، مثل غيرها من النصوص التي ظهرت في هذه الفترة ، كنصوص اسطورية (سمرتي) اذاقيست بآداب فترة الفيدا (سروتي) التي تعتبر مراجع ونصوصاً ملهمة . ودارماستراس هي مقالات منظمة تتحدث عن سلوك الآريين في حياتهم وتصف تنظيمهم الاجتماعي وأعمالهم وواجباتهم الأخلاقية والدينية .

والفترة الثالثة هي مرحلة سوترا التي تعود بتاريخها الى أوائل العهد المسيحي . وفي هذه الفترة كتبت الأبحاث المنظمة المدارس المختلفة وأخذت طابع المناهج التي حفظت حتى الآن . ووصفت عقائد كل منهج على صورة أقوال منظمة ، يعتريها الغموض بعض الأحيان ، على صورة عبارات تعتبر كتذكير لهؤلاء الذين يعرفون تفاصيل المناهج الفلسفية . وفي هذه الفترة تطور الموقف النقدي في الفلسفة الى جانب الموقف المنهجي أو المنظم . والسوترا ذاتها تحتوي على مفاهيم ايجابية وعلى نقد المناهج الاخرى . بينما لم يعتمد الفكر الفلسفي — في الفترة السابقة — على أساس نقدي . ونجد في السوترا فكرة ادراك الذات بما يفل الخيال الانشائي وأعمال البصيرة .

وتتشكل المناهج الهندية الست الموجودة في السوترا أثناء هذه المرحلة من ١ — نيايا أو الواقع المنطقي ٢ — فايسيسيكا أو التعددية الواقعية ٣ — سامكيا أو الثنائية المتطورة ٤ — اليدوغا أو التامل المنظم ٥ — بورفا ميامسا أو البحث المفسر للفيدا أو المتعلق بالسلوك ٦ — اوتارا ميامسا أو البحث المتأخر للفيدا أو المتعلق بالمعرفة . وتسمى اوتارا هذه الفيدانتا التي تعني « نهاية الفيدا » .

والفترة الرابعة ، وهي المرحلة المدرسية ، هي تلك التي كتبت فيها التعليقات على سوترا لأجل توضيحها وذلك لأنه يصعب فهمها بدون هذا التوضيح . ولم تكتب التعليقات على سوترا وحدها ، بل كتبت تعليقات على هذه التعليقات وتعليقات على تلك وهكذا . ومن الصعب ان تقدم تواريخ دقيقة عن هذه الفترة وتقع هذه الفترة بين زمن سوترا حتى القرن السابع عشر . وآداب هذه الفترة توضيحية كما ذكرنا ويرافقها جدل كبير وقد ناقشت جماعات من المدرسيين طويلاً واختلفوا بصدد تفاصيل العقائد الفلسفية . ونجد

بعض الاحيان ان المعلقين قد ادوا الى الغموض اكثر من التوضيح . وعوضاً عن التوضيح الصحيح للفكرة نجد المنطق الغامض يمثل مركز الفلسفة . وتعتبر النماذج الرفيعة من التعليقات مناهج جديدة . وسامكارا مثلا ، وهو كاتب احدى التعليقات الشهيرة على السوترا في منهاج فيدانتا ، يعتقد انه فيلسوف اكثر من بدرايانا ، صاحب الرؤيا ، الذي كتب فيدانتا سوترا (براهما سوترا) ذاتها . ان الفترة المدرسية هذه هي فترة توضيح لسوترا الاصلية ، ولكنها ، مثل أية فترة مدرسية خلقت مناقشات غير فلسفية وغير جديرة بالتقدير . ومن ناحية اخرى ، وجد في هذه الفترة اعظم فلاسفة الهنود . ومن بينهم ، بالاضافة الى سامكارا ، كوماريلا ، شريدهارا ، رامانوجا ، فاكاسباتي ، اوريانا ، باسكارا ، جايانتا ، فيجنيانبيكو وراجوناثا . وبالفعل كان هؤلاء مبدعي مناهجهم الخاصة . وفي لباس المعلقين ، عرضوا افكاراً جديدة تمت بصلة الى الافكار القديمة ، مثلاً الاشكال الثلاثة الرئيسية للفيدانتا ، تلك التي طورها سامكارا ورامنوجا ومادفا ، هي اشكال متميزة عن الفيدانتا سوترا على الرغم من صلتها بها . ويدل هذا على احترام الفلاسفة الهنود لفلسفاتهم القديمة وتعلقهم بها كما يدل على الابداع الفكري الذي يوجه تعلقهم وبصيرتهم .

استمرت الفترة المدرسية حتى وقعت الهند فريسة للعدوان الاجنبي في القرن السادس عشر . ولوقت طويل كان الهنود الذين يحصلون على ثقافة انكليزية يخجلون من اسطورتهم الفلسفية ، ويفتخرون ان يكونوا بتفكيرهم كالاوربيين وان يقتفوا خطى الانكليز في حياتهم . ان احياء الانكليز للثقافة لم يؤد الى احياء مماثل للفكر الهندي . وقد قامت في هذه الفترة حركات اصلاح وطنية ـ وكان على رأسها اناس مثل براهموساج وآرياساماج ـ لعبت دوراً هاماً في بعث نهضة فلسفية ودينية للهند . وفي العصر الحديث بعد قيام الحركة الوطنية وحصول الهند على استقلالها اعتبرت عملية احياء الفلسفة الهندية اعظم عمل قامت به الهند . وفي القرن العشرين تأثر الفكر الهندي بالفكر الأوروبي ، لكن هذا الاخير اخذ يتأثر ، اكثر من أي وقت آخر ، بالفكر الهندي من خلال كتابه وشعرائه وفلاسفته وقديسيه . ان احياء الوجدان الهندي والتعلق بعظمة فلسفته ادى ، منذ عهد قريب ، الى تطوير لهجة وطنية في الفلسفة والسياسة . أما ميل المتطرفين للحط من النتائج التي نجمت عن احتكاك الفكر الاوروبي والهندي يعتبر علامة سيئة . ونحن اليوم نرى ونفكر اكثر مما رأى ونكر اجدادنا . لذلك يجب أن نعتمد على الاسس القديمة ونقيم انسجاماً بينها وبين الاسس الحديثة ، وان تطور الفلسفة الهندية في المستقبل سيقترب من الفلسفة الاوروبية .

روح الفلسفة الهندية

الفلسفة الهندية معقدة للغاية . ومن خلال

العصور تعمق العقل الهندي في دراسة الأوجه المتعددة للتجربة الانسانية والعالم الخارجي . وعلى الرغم من ان بعض الطرق ، مثل الطريقة التجريبية للعالم الحديث ، كانت أقل تقدماً من غيرها، لكن النتائج التي وصلت اليها الفلسفة الهندية لمعرفة الحقيقة كانت عميقة ومتفرقة تماماً ، كالاساطير الفلسفية الاخرى . ان المناهج الستة الاساسية والمناهج الثانوية العديدة للهندوسية ، والمدارس الاربع الرئيسية للبوذية ، والمدرستين التابعتين للجانسية ، ومادية كارفاكا هي براهين على ان الفكر الهندي لايشك فيه . وهكذا ، يصعب ان نصف الفلسفة الهندية كـكل بصفات أو طرق معينة كما يصعب تطبيق كل المناهج العديدة والثانوية التي تطورت خلال أربعة آلاف سنة تقريباً .

ومع ذلك ، يوجد مانستطيع ان نميز به هذه الفلسفة . ويمكننا أن نوضح هذه الميزات باتجاهات العقل الفلسفي الهندي أو بوجهات النظر التي أوضحها الهنود في فلسفتهم :

١ ـ تتركز قيمة الفلسفة الهندية في التفكير الروحي . ويعتبر الدافع الروحي هاماً في حقلي الحياة والفلسفة . وتدرك الفلسفة الهندية الانسان روحياً في طبيعته وتهتم بمصيره الروحي ، كما تربطه بوجود روحي في جوهره ، ولاتنطبق هذه النظرة على مدرسة كارفاكا المادية . وماعدا هذه المدرسة المادية ، لايعتبر الانسان أو الكون ماديين في الجوهر ، كما أن نجاح الانسان وازدهاره لايشكلان هدفاً للحياة الانسانية . وترتبط الفلسفة بالدين وذلك باعتبار الدين مغامرة فلسفية ، ولأن الدافع الرئيسي للفلسفة والدين هو تحقيق الطريقة الروحية للحياة وخـلاص الانسان في علاقتـه بالكون . وهكذا تكون الفلسفة الهندية كلها من بدايتها في الفيدا الى الوقت الحـاضر ، قد جاهدت لتحقيق اصلاح اجتماعي ـ روحي في البلاد ؛ وقد اتخـذ الادب الفلسفي اشكالا عديدة ، ميثولوجية وشعبية وفنية وعلمية وذلك لكي يرفع من مستوى الحياة الروحيـة . ان المسائل الدينية كانت ولاتزال سبب عمق وقوة وغاية العقل والروح الفلسفية الهندية .

٢ ـ تلتقي الفلسفة الهندية من علاقة الفلسفة والحياة. ويوجد هذا التطبيق العملي للفلسفة في الحياة في كل مدرسة فلسفية هندية تقريباً . وعلى الرغم من أن غزارة الطبيعـة والازدهار المادي قد عبدا الطريق الى فكر فلسفي لكن الفلسفة لم تعتبر ـ مع ذلك ـ رياضة عقلية فقط . وقد برزت العلاقة الوثيقة بين النظرية والواقع ؛ بين العقيدة والحيـاة . وتبحث كل مدرسه فكرية هندية عن الحقيقة التي تجعل الناس احراراً ، الحقيقة لذاتها . ولايعني هـذا البحث شيئاً من الذرائعية لانها اعمق منها بكثير وأعظم. فالحقيقة لاتقاس بالواقع والعمـل فقط بل هي المرشد الوحيد للعمل ، والقائد الوحيد للانسان الذي يفتش عن الخلاص . وينطلق كل منهاج

فلسفي هندي من مشاكل الحياة الماسوية والعملية ويبحث عن الحقيقة لكي تحل مسألة تعاسة الانسان في العالم الذي يجد نفسه فيه . وهكذا لم تكن التعاليم الهندية مجرد كلمات مدرسية أو معتقدات . كل معتقد يعمل على أثارة قلب الانسان وتحويل طبيعته الشخصية . ففي الهند ، تعاش الفلسفة لأنها فلسفة حياة . وليس كافياً أن نعرف الحقيقة ، بل يلزم أن تعاش ايضاً . فليس هدف الهندي اذن ان يعرف الحقيقة المطلقة بل ان يحققها ويصبح واحداً معها .

ومايؤكد العلاقة الوثيقة التي تقوم بين النظرية والعمل ، بين الفلسفة والحياة ، هو التشديد على الطهر الاخلاقي كضرورة لطالب الفلسفة او الباحث عن الحقيقة . ويدعو سامكارا الى التمييز بين الابدي وغير الابدي ، أي أنه يعلم الباحث ان يتحلى بمزية التساؤل ويحثه على اخضاع الرغبات لثمار العمل في هذه الحياة أو في الحياة المقبلة كما يطالبه ان ينكر كل الرغبات البسيطة والدوافع الشخصية والاهتمام بالذات ؛ وينادي بالسكينة وضبط النفس ونكران الذات والصبر وهدوء العقل والايمان ، كما ينادي بالارادة لتسهيل الوصول الى الهدف الأعلى للحياة .

٣ - وتتصف الفلسفة الهندية بتوقفها وتقربها الباطنيين من الحقيقة . فالفلسفة هي معرفة الذات . وتنطلق هذه الفلسفة من العالم الخارجي أو من العالم الداخلي لطبيعة الانسان الفطرية ، أي من ذات الانسان . وفي سيرها لبلوغ الحقيقة ، تخضع الفلسفة الهندية لحياة الانسان الداخلية أكثر مما تخضع للعالم الخارجي وللطبيعة المادية . والعلم المادي ، على الرغم من تطوره في العصر الذهبي للحضارة الهندية ، لايعتبر طريق الوصول الى الحقيقة ، والحقيقة هذه لاتوجد الا في الداخل . فالفكر ، وليس الموضوع ، هو موضع اهتمام الفلسفة الهندية . وهكذا يعتبر علم النفس وعلم الاخلاق فرعين للفلسفة وهما أكثر أهمية من العلوم التي تدرس الطبيعة المادية فقط . ولا يعني هذا أن العقل الهندي لم يدرس طبيعة العالم المادية ، بل على العكس ، تفوقت الهند في بحوثها العلمية خاصة في العلوم الرياضية كالجبر ، والفلك والهندسة ، كما اشتهرت بتطبيق هذه العلوم الاساسية في مجالات عديدة من النشاط الانساني . وفي نفس الوقت عرفت الهند بتقدمها في ميادين علم الحيوان والنبات وعلم الطب . ولكن الهنود شعروا ، منذ وقت طويل جداً ، أن روح الانسان الداخلية هي المفتاح أو السر الوحيد لحقيقته وحقيقة الكون ، وهي ذات دلالة أكبر من العالم المادي أو الخارجي .

٤ - يقود هذا الاهتمام بالباطن الى المثالية ! وهكذا يكون معظم فلاسفة الهند مثاليين بشكل أو بآخر وتظهر مثالية الفلسفة الهندية ، وخاصة الهندوسية منها ، بميلها لمثالية التوحيد . وتعتقد هذه الفلسفة أن الحقيقة واحدة وهي روحية . ويبدو أن بعض المناهج قد تحدثت عن الازدواجية أو التعددية ، لكنها تتصف

بطابع الوحدانية . واذا ركزنا تفكيرنا على ماتحتويه الفلسفة الهندية ككل دون الانتباه الى فروعها المختلفة ، نجد أنها تشرح الحياة والحقيقة على ضوء مثالية التوحيد . ويعود هذا الى مرونة العقل الهندي والى مرونة وديناميكية مثالية التوحيد التي تأخذ أشكالاً عديدة وتعبر عن نفسها كوحدة حتى في العقائد المتنازعة . وفي الواقع لاتسمى هذه الوقائع متنازعة لكنها تختلف في التعبير عن وحدة أساسية للفلسفة الهندية ككل.

وقد لعبت المادية دورها في زمنها في الهند حتى عندما حاولت المدارس الروحية اسكاتها . وعلى كل حال ، لم تستطع هذه المادية أن تستمر وذلك لقلة تابعيها وضآلة تأثيرها . لقد عرفت الفلسفة الهندية النزعة المادية ولكنها تغلبت عليها وتقبلت المثالية وجعلت منها النظرة الوحيدة المسكنة .

٥ — تعتمد الفلسفة الهندية على الحدس كوسيلة وحيدة للمعرفة على الرغم من أنها تعتمد على العقل أيضاً .

فالعقل ، والمعرفة العقلية لايكفيان . والعقل لايقوم كلياً على الخطأ ، لكنه لايكفي . ويجب أن تكون لنا تجربة عملية للمعرفة الحقيقية . ففي الفلسفة الهندية لايعرف الانسان الحقيقة ، بل يحققها . ان الكلمة التي تعني الفلسفة في الهند هي دارسنا التي تشتق من كلمـــة درس التي تعني « الرؤيا » . و « الرؤيا » تعني ان تكون لنا تجربة حدسية مباشرة للموضوع ، وتعني أن تحقق هذه التجربة الحدسية في شعورنا واحساسنا لكي نصبح واحداً معه . وتستحيل علينا المعرفة طالما أن الفكر والموضوع مختلفان أو متباعدان .

وفي التطورات الاخيرة للفلسفة الهندية ، حتى منذ بداية المناهج ، اعتمد على العقل لاجل تشكيل منظم للعقائد والمناهج ، ولاجل التبريرات المنطقية لهذا التشكيل ، كما اعتمد عليه في النزاعات التي كانت تقوم بين منهج وآخر . ومـــع ذلك ، تعتمد كل المناهج ، ماعدا منهج كارفاكا المادي ، على وجود طريق عليا لمعرفة الحقيقة ، طريق أسمى من العقل ، وتعتبر الادراك المباشر والتجربة الحقيقة المطلقة التي لايمكن الوصول اليها بالعقل بأي شكل من أشكاله . يستطيع العقل أن يشير الى الحقيقة ، لكنه لايستطيع أن يكتشفها أوأن يصل اليهـــا . ويمكن أن يكون العقل وسيلة الفلسفة بمناحها الفكري ، ولكن الحدس هو الوسيلة الوحيدة لادراك المطلق . وهكذا تعتمد الفلسفة الهندية اعتماداً كلياً على الحدس ، وتعترف بفعالية العقل والذكاء عندما يطبقان ضمن طاقتيهما المحدودتين أو في مايناسبهما من وظائف .

٦ — هناك صفـة اخرى للفلسفة الهندية وهي تقبلها للمراجع القديمة .

وعلى الرغم من اختلاف مناهج هذه الفلسفة في مقدار عودتها الى سروتي القديمة ، لكنها تقف المستقيم مذهبياً منها وغير المستقيم ما عدا كارفاكا — موقفاً نبيلاً وتتقبل البصيرة الحدسية التي تحدث

عنها اصحاب الرؤى الأقدمون ، حتى ولو كان هؤلاء هندوسيين او كاتبي الأوبانيشاد ، بوذيين او ماهافيرانيين ، مؤسس الجانسية أو غيره. لقد أدرك الفلاسفة الهنود قيمة الاسطورة ، ولم يخرج الفلاسفة الذين يعودون للفترات المتأخرة عن كونهم شارحين او معلقين على الحكمة القديمة وعلى الرغم من التبدل الذي يطرأ على العقائد القديمة لكن روحها وافكارها الأساسية تحافظ على قيمتها من عصر الى عصر . ان احترام المراجع لا يقف حائلاً دون التقدم ، لأن استمرار الفكر ، ولو لم يكن على صعيد واحد ، لا يقضي على وحـدة المعتقدات ولا يناقض صفاتها الأساسية التي تقوم على الروحانية والباطنية والحدس والاعتقاد القومي بأن الحقيقة يجب ان تعاش لا ان تعرف فقط .

ان احترام الهنود الشديد لمفكريهم الاقدمين ، ولو انه يبالغ به ، ينبع من اعتقادهم بأن الذين يعرفون الحقيقة فعـلاً هم هؤلاء الذين يحققون الحقيقة ، ولذلك يوجهون انظارهم نحوهم . لقـد ابدعت الهند عقائـد كثيرة ومناهج فلسفية عديدة. وقد تم هذا الابداع على الرغم من احترام الهنود لحكمائهم الأقدمين . ويظهر احترام الهنود لمكتشفي الحقيقة الاقدمين وابداعهم المستمر على ان الفلسفة الهندية ليست معتقداً دينياً مذهبيا بل هي فكرة واحدة تـدرك من خلال مناهج عديدة . ويبدو تحرير هذه المناهج من الاسس الاسطورية القديمة ، في ان سامكيا لا يذكر شيئاً عن امكانية وجـود الله على الرغم من وضوح الفكرة في كتاباته؛ واليوغا والفايشيسيكا وخاصة الاولى ، تعترفان بوجود الله لكنهما لا تعترفان انه خالق الكون ، واماميامسا فانها تتحدث عن الله لكنها تنفي أهميته او تدخل فعاليته في النظام الاخلاقي للعالم . ولكي نفهم هذه الامور بشكل أوضح ، علينا ان نعود الى المناهج البوذية الأولية والى كارفاكا التي تنكر الله اللاشخصي . وهذا ما يدلنا على اعتماد الفكر الفلسفي الهندي على مقوماته الاولى والقديمة على رغم اختلافه معها.

٧ - واخيرا توجـد الاسطورة التي هي ضرورية لروح وطريقة الفلسفة الهنـدية. ويعود هذا القول الى رج فيدا عندما اعتقد اصحاب الرؤى ان الديانة الحقة تتضمن كل الديانات ؛ فالله « واحـــد لكن الناس يدعونـه بأسماء مختلفة » وتتصف الفلسفة الهندية بتقربها الفعلي من المظاهر المختلفة للتجربة والحقيقة . فالدين والفلسفة، والمعرفة والسلوك، الحدس والعقل ، الانسان والطبيعة ، الله والانسان ، الظاهر والخفي ، تنسجم كلها من خـلال الميل « التجمعي » للعقل الهندي . ويميـل الهندي للاعتقاد بأن كل المناهج الستة ، بالاضافة الى اختلافاتها ومناهجها الثانوية ، تنسجم مع بعضها في الرؤيا الكلية التي هي واحدة . ولدى مقارنتها بالفلسفة الغربية ، بموقفهـا التحليلي ، تكون الفلسفة الهندية «تجمعية» فالنصوص الاساسية

لهذه الفلسفة لا تهتم بمظهر واحد للتجربة والحقيقة بل تهتم بمحتوى الدائرة الفلسفية كلها . فالميتافيزيقا وعلم المعرفة ، والاخلاق والدين وعلم النفس والوقائع والقيم لا ينفصل احدها عن الآخر بل ان الفكر يتعامل معها في وحدتها الطبيعية كمظاهر لحياة وتجربة واحدة او لحقيقة واحدة .

هذه الرؤيا « التجمعية » للفلسفة الهندية هي التي حققت هذا المفهوم الديني والعقلي الذي نراه في الفكر الهندي خلال العصور . والمنازعات الحاضرة بين المجتمعات الدينية القائمة لاسباب سياسية ليست من فعل العقل الهندي بل هي خصم لدود لعبقريته الوحيدة للتكيف والتحسن والتي تجمع كل الفرق والمجتمعات ضمن حقيقة واحدة وحياة واحدة .

وبالاضافة الى هذه الصفات النظرية او العقلية التي نجدها في الفلسفة الهندية ، هناك وحدة فكرية متماسكة اساسية في الحقل العملي ، ولهذه الوحدة اوجه عديدة . ففي الدرجة الاولى ، تنبع مواضيع كل الفلسفات في الهند ـ هندوسية وبوذية وجانية وكارفاكا ـ من المسائل العملية لحياة الانسان ومن حدوده وآلامه والتي تتجلى بتحرره الكامل . وهي كلهـا ، بما فيهـا الكارفاكا ، يكون الموضوع فيها عملياً اكثر منه نظرياً ، لأن الكارفاكا لاتهتم بالنظري لذاته بل في عيش حياة اللذة وذلك لأنها "لاتبرر وجوداً آخر . ان هدف الحياة في الهندوسية والبوذية والجانية واحد في جوهره . ومفهوم التحرر (موكشا) هذا ، الموضوع الرئيسي في الهندوسية والجانية ، والنيرفانا هي هدف البوذية . واما المعنى الدقيق للتحرر فانه يختلف بين المدارس الهندوسية والبوذية ذاتها ، ولكن المعاني الأساسيـــة للموكشا والنرفانا هي التحرر والانعتاق من الشقاء والألم والتحرر من الولادة ثانية ، وفي بعض الاحيان ، يبدو الهدف سلبياً ، يعـــني فقط التحرر من الألم والتحرر من الولادة ثانية ، ولكنه في الواقع يعني العمل الايجابي لأجل حياة أغنى وأكمل ، والوصول الى السعادة الأبدية فالروح تعمل على تحقيق صفاتها الأصلي بعض الاحيان عندما تصبـح واحدة مع المطلق وبعض الاحيان بملاقتها مع الله وبعض الاحيان بمجرد الوجود الأزلي الروح النقية في فرديتها ، ولكنها في كل الاحوال تكون حرة من حدودها ومن سجنها في الحياة .

لمنـاهج ومدارس الفلسفة الهندية عقل واحد في مايتعلق بهدف الحياة وفي ما يتعلق بحياة صالحة على الأرض . ان الروح الاساسية لفلسفة الحياة في الهندوسية والبوذية والجانية هي عدم التهرب . وتعتبر هذه الفلسفة موقفاً عقلياً يحققه الفرد بواسطته وبالجزء المنوط به في الحياة . ويحيا وجوداً يومياً « عادياً » مع الناس الآخرين دون ان يتضايق من نتائج أعماله . فهو يصل الى نوع من التفوق الروحي والعقلي بالنسبة للمفاهيم الأرضية ولا تستعبده . ولايكون هذا الموقف سلبياً او تهرباً لأن الفرد يشارك في نشاطاته اليومية بما يتفق ومركزه في المجتمع . ويسمي هـــذا العمل العيش والعمل بدون

شعور التعلق بالاشياء في هــذا العــالم بدون أثرة .

تعترف الهندوسية والجانية والبوذية بعقائد كارما بالولادة ثانية . وتؤمن هذه العقائد ان الانسان يلزم ان يكتمل روحياً واخلاقياً قبل ان يحقق الخلاص . وتعتقد ايضاً ان العدالة هي قانون الحياة الاخلاقية تماما كما ان العلة والمعلول هما قانون العالم الطبيعي . وما يزرعه الانسان اياه يحصد . وبما ان العدالة والكمال الاخلاقي والروحي لاتتحقق في حياة واحدة لذلك تؤمن هذه العقائد بالولادة ثانية حتى تعطى فرصة للانسان لكي يتقدم اخلاقياً ولكي ينال الكمال . والفلاسفة الهندوس ماعدا كارفاكا ، منذ بدايات الفيدا حتى التطورات الأخيرة ، آمنوا بفكرة النظام الاخلاقي للطبيعة . فكارما والولادة الثانية هما الوسيلتان اللتان تحققان النظام الأخلاقي للكون في حياة الانسان .

هناك عامل آخر يوحد بين المدارس الهندية في الحقل العملي على الرغم من أن مدارس كارفاكا والبوذية والجانية لاتوافق عليه : **أن ندع الحياة الاجتماعية** والتي تقبل به المدارس، وهو تقسيم المجتمع الى اربعة اجزاء ، هي المراحل الاربع للحياة ، أي القيم الرئيسية التي يبحث عنها الانسان . ففي الهندوسية ينقسم المجتمع الى اربع فئات تتحدد بالوظيفة وهي : **الكاهن المعلم (براهمين) ، الملك أو القــائد السياسي الحربي (كساتريا) ، التاجر (فايسيا) والعامل (سودرا) .**

وتسمى الطبقات الثلاث الاولى المولودة مرتين ويعني بذلك انهم هندوس ، بينما لايقبل العامل في صفوفهم . وتشمل حياة المولودين مرتين المراحل الاربع وهي : **الطالب (براهما سارين) ورب البيت (غراستا) وساكن الغابة (فاناپراشا) والراهب المتجول (سانياسين)** . وفي هذا النظام الاجتماعي لايدخل الفرد حياة العزلة حتى يكون قد اتم واجباته نحو الناس كطالب وكرب بيت ، وفي المراحل المتأخرة من حياته يركز اكثر فأكثر على الناحية الروحية ويبحث عن الحقيقة لكي يتحرر . ان أهداف الحياة التي يتقبلها الهندوس هي الاستقامة أو طاعة القانون الاخلاقي (دهارما)، الثروة والتقدم المادي (آرثا) ، اللذة (كاما) ، والتحرر (موكشا) . وتسيطر دهارما على الحياة وهذا يعني ان تحقيق الثروة واللذة لايتم بكسر قواعد الاخلاق . وموكشا هي الهدف الاسمى الذي يرنو اليه الناس . ويتقبل الهندوس هذا التقسيم الاجتماعي بدون اي تعليق . ويبدو هذا التقسيم في آداب دهارما شاستراس ، ولكنــه لايوجد بشكل تبرير فلسفي في النصوص الفلسفية التقنية . ويساعد هذا المثال الهندوسي المجتمع على أن يوحد الحياة الاخلاقية والاجتماعية في البلاد ،

على الرغم من ان البوذية والجانسية، وهما الاقلية، لاتوافقان عليه تماماً .

قيمة دراسة الفلسفة الهندية

تعتبر دراسة الفلسفة مهمة من الناحية الفلسفية والتاريخية والسياسية أيضاً ان اسطورة الهند الفلسفية هي أقدم وأعمق تطور مستمر للبحث عن طبيعة الحقيقة ومكان الانسان بالنسبة لها . وقد بدأت هذه الاسطورة بداية الفيدا القديمة التي يمكن اعتبارها أقدم المخطوطات التي وصلتنا عن العقل الانساني ، والتي استمرت ، عصراً بعد عصر في تقدم فلسفي مزدهر جاهدة أن تفهم الحيـــاة والحقيقة . ودرسنا لهذه الاسطورة لايكون عملية استفهام عن شيء مضى . وعلى الرغم من أننا نحترم ونقدر الماضي ، فقد اهتم المفكرون والهنود خلال كل العصور بالحقيقة المطلوبة التي لاتخضع لزمان أو مكان . كذلك يجب أن لاندرس الفلسفة الهندية كمجرد دراسة اقليمية لبلد ماحاول أن يصل الى الحقيقة . وعلى الرغم من اتهام بعض النقاد الغربيين للفلسفة الهندية باهمالها للطريقة العلمية ، فان المفكرين الهنود لم يكونوا ضد التجربة ولم يهملوا الطبيعة في دراساتهم للحقيقة ، حتى في دراستهم للانسان، لم يقتصروا على صفات الانسان الهندي . ان التركيز الهندي على دراسة طبيعة الانسان الداخلية هو دراسة الانسان بشكل عام .

كانت تعاليم فلاسفة الهنود ولا تزال مفاهيم للفكر الانساني . ولم تكن كل الافكار وكل المناهج الفلسفية الهندية عميقة وذات دلالة ، لكن العمق والعلو اللذين وصل اليهما المفكرون الهنود وأصحاب الرؤى يشيران الى عمق القوى التي يتحلى بها العقل الانساني . ان الفلسفة الهندية هي : عقل الانسان وروحه في أوج قواهما في الحقلين الديني والفلسفي .

ومن الناحية الفلسفية تعـــد دراسة الفلسفة الهندية هامة في البحث عن الحقيقة ، فيجب أن تشتمل الفلســـفة على كل أنواع البصـــيرة وكل التجارب في تمامها ، وللفلسفة الهندية أثر واضح في هذا المجال . والمسائل الرئيسية في الفلسفة الهندية هي تلك التي يواجهها الانسان منذ ان بدأ يتساءل عن الحياة والواقع ، ولهذا فلسفة مسائل اخرى هي ـ مساهمة الهند بمعرفة الحقيقة ، هذه المعرفة التي هي جوهر الفلسفة . ان حاجة الفلسفة في الوقت الحاضر هي ان تلم بكل الاعمال الفلسفية العائدة لكل الأساطير العالمية الكبرى . فالهدف ليس ان نتبنى فلسفة فريدة تقضي على الفوارق في الرأي بل هو الاتفاق على قيم مطلقة تعتبر اساسية لكل الفلسفات . وان فلسفة عالمية كهذه تتضمن البصيرة الروحية التي تميز بها اصحاب الرؤى والمفكرون الهنود الذين قادوا اوارشدوا البحث الفلسفي الهندي لعصور عديدة .

ويعتبر من الاهمية السياسية بمكان ان يقدم الغرب على دراسة الفلسفة الهندية . ان المناداة بـ « عالم واحد » لايتحقق الا من الناحيـــة السياسية . ويستحيل تحقيق الوحدة السياسية بدون تفاهم فلسفي . فالاتفاقيات ، والاسباب

السياسية ، والفوارق تعتبر ثانوية بالنسبة لتفكير الانسان . وتعتمد الاحوال الاجتماعية والسياسية في المناطق المتعددة للعالم على الفكر الفلسفي والروحي وعلى مثاليات شعوب العالم . ومن المهم ان يعمل الانسان على تقريب شعوب العالم من بعضها في مودة وتفاهم وفي انسجام روحي وعقلي . وبدون هذا الانسجام والتقارب تستحيل الوحدة السياسية اوغيرها . ان مستقبل الحضارة يعتمد على عودة الادراك الروحي الى قلوب وعقول الناس . وقد ساهمت الفلسفة الهندية في تطورها الطويل الذي ركز على الناحية الروحية ، مساهمة لايستغنى عنها ابداً .



مع أمين نخلة

جائزة رئيس الجمهورية اللبنانية ١٩٦٥

بيروت — من عصمت منلا

في خزانة كتبه التي تضم حوالي عشرين الف كتاب ومجلد، قابلت أمين نخلة، موفداً من «المعرفة»، وحاملا تهاني وتحيات رئيس التحرير الى المفكر العربي الكبير، بمناسبة حصوله على جائزة رئيس جمهورية لبنـــان التقديرية، خلال مهرجان الكتب الذي اقامته رابطة اصدقاء الكتاب:

كان لقاء طويلا بيننا، بدأه استاذنا الكبير بالاعراب عن شكره لرئيس الجمهورية على توجيهه الجائزة لشخصه، حيث وقع نبأها في نفسه خير وقع، خاصة وانه صديق شخصي للرئيس الاستاذ شارل حلو، ورفيقه القديم، مع الصداقة الوثيقة التي تربطـــه برجال جمعية اصدقاء الكتاب.

وتحدث أمين نخلة عن الفكر العربي المعاصر، عن الادب، والشعر والفن، وكان في حديثه صريحاً، شاملاً .. قال:

— ان الأدب المعاصر على العموم في تراجع عن الفصاحة العربية، والتفات كثير الى آداب الأجانب، وتقليـد

لأذواقهم . ويارب شعر أو كتابة أطالعها فكأني أطالع مثلاً شعراً لشاعر فرنسي ، أو كتابة لكاتب رومي .. لهـم الله ! يلبسون ثياب الناس وهي غير مفصلة على قدهم . وأين روح لغتهم ولكل لغة روح، واين ذوق بني قومهم ولكل قوم ذوق !

أما رأيي في الشعر .. فقول قديم وجديد لامعنى له عندي . والمدار في الأدب عامة هو على الجودة ، فالذي كان من الشعر جيداً أيام ابي الطيب مثلاً ، كان جيداً أيام شوقي ، ولا يزال جيـداً في أيامنا ، والعكس بالعكس . واعتقد أن الكتابة التي لاوزن فيها ولا قافية اسمها : كتابة ، لا أقل ولا أكثر .. كما أن الكلام الذي يستند الى الوزن والتقفية اسمه : شعر . واذا جاء النثر وكان قوامه الخيال والعاطفة والفصاحة ، وطاب لنا ان نقول له « الشعر المنثور » او « النثر الشعري » فلا بأس علينا في هذه التسمية . فاما ان نقول انه شعر فلا !

قلت لشاعرنا الكبير :

● **إذن فأنتم ترون لزوم الوزن في الشعر ؟**

— طبعاً ، ياصاحبي ، فان الموسيقى شرط في الشعر كما أن الايقاع ، أي اتفاق الأصوات وتوقيعها ، شرط في الموسيقى .

● **وما رأيكم في القافية ؟**

— رأيي في لزوم التقفية كرأيي في لزوم الوزن ، فهي من التوقيع المطلوب أيضاً . وان القافيـة ما أعاقت فحول الشعراء عن الاتيان بالاجادات من طوال وقصار ، حتى نأتي نتطلب اليوم تركها ! أترى ان القافية أعاقت قديماً ابن ابي ربيعة عن نظم طويلته الرائية «أمن آل نعم» ؟ وهل أعاقت في زماننا شوقي عن نظم طويلته الهمزية « همت الفلك واحتواها الماء » ؟ أو أعاقت مطران عن نظم طويلته الرائية « نيرون » وهذه لعمرك في نحو من ٥٣٠ بيت شعر ؟

ذلك والقافيـة عربية ، ماعرفها اليونان ولا اللاتين . وهـذه الكتب العبرانية القديمة ، وعلى الخصوص كتب « العهد القديم » لا أثر فيها للقافية . أما السريان فلا أثر لهـا أيضاً في دواوين شعرائهم الا بعد تصرم القرن العاشر ، وقد أخذوها عن العرب . وعن العرب

أخذها الأفرنج . وكان أولهم في ذلك الايطاليون والاسبانيون والفرنسيون ، ثم عمت القافية شعر الشعوب المتمدنة .

فلا أدري لماذا يراد منـــا أن نهدم بأيدينا هذا المجد الذي لنا في آداب الأمم!

● **ماذا تحبون في أدب الغـــرب والشرق ؟**

— جمال الديباجة وقوة المعنى .

● **من هم الكتاب والشعراء العرب القدماء الذين احببتموهم ؟**

واجاب امين نخلة :

— من شعراء العرب أحببت المتنبي ، وابن ابي ربيعة ، والشريف الرضي ، وأبا نواس ، والبحتري ، وابن الرومي . ومن كتّابهم ابن المقفع ، والجاحظ ، والامام علي . أما القرآن وبلاغته وطرب الفصاحة في فرائده وجمله فمن ولوعي بذلك حدّث ولا حرج !

وأضيف على اجابتي بأني أحببت من الكتـــاب الأجانب وشعرائهم كلا من شكسبير ، وفرجيل ، وراسين ، ولامرتين ، واوســـكار وايلد ، وبول فاليري ، والفونس دوديه ، وشارل موراس ، ومونتين ، وفولتير . ولقد أحببت سانت اكزيبري في كتاب واحد هو « الامير الصغير » ، كما أحببت جيد في كتاب واحد أيضاً هو « صورة دوريان غراي » .

وسألت استاذنا :

● **ما أحب مشاهد الطبيعة الى نفسك ؟**

واجاب :

— البيوت البيض في الحدائق الخضر ، والجبل الأجرد فوق الوادي الأخضر .

● **وأحب الألوان الى نفسك ؟**

— الاحمر الملتف بأبيض .

● **وأحب الأزهار لقلبك ؟**

— الورد الأبيض .

● **وماذا تحب من الموسيقى الأجنبية ، والعربية ؟**

— أحب من الموسيقى الأجنبيــة « الكلاسيك » أي الأصولية ، ويالله ما اكره « الجاز » ، أي موسيقى العبيد ! وأحب من الموسيقى العربية الأصولية المكيفة على الذوق العصري ، شرط أن لا يدخلها صوت النحاس .

● ومن الغناء العربي .. ماذا تحب ؟

— الذي تتمثل معاني الألفاظ في انغامه . واني لا أطيق سماع الغناء الذي تكون فيه الألفاظ غربية والنغمة اجنبية . أما رأيي في صوت أم كلثوم .. فكأنه بلبل افلت من الجنة ...

وعدت اسأل امين نخلة :

● وفي الرسم ماذا تحب ؟ وما رأيك في بيكاسو ؟

— أحب في الرسم الطريقة المعروفة عند الرسامين « بالرينسانس » اي طريقة النهضة . واكره طريقة بيكاسو المعروفة « بالعصرية » فانما هي جنون في ريشة الرسام ...

● ماتحب من الخطوط العربيـــة باعتبارك فنان خط معروف أيضاً ؟

— في التزيين احب « الفارسي » و « الثلثي » واكره « الديواني الجلي » و « الرقعي » وللخط العادي أحب « الرقمي » . وعندنا في البلاد العربيـة اليوم خطاطون تقر العيون ببراعاتهم . ولي في استانبول صديقان خطاطان هما أستاذي حامد ، والاستاذ كاظم ، وهيهات أن يكون قد رزق ابن مقلة من الاجادة مارزق الواحد منهما . ويطيب لبني قومنا طبعاً أن يعلموا أن في استانبـول من لايزال يعنى بالخط العربي وفنونه !

● هل تذكر لنا ماذا درست على الاستاذ حامد ، وهل كانت تلمذتك عليه في زمن الشباب ؟

واجاب مفكرنا الفنان :

— درست عليه فن الشكل في الخط الفارسي . وكان ذلك منذ بضعة أعوام ، أي يوم كلفتني الحكومة اللبنانية مراجعة الوثائق السياسية بين لبنان والدولة العثمانية في محفوظات استانبول .

● بالمناسبة ، من كان استاذك في الموسيقى أيضاً ؟

— الأستاذ نجيب شلفون استاذي في « العود » ، والاستاذ وديـع صبرا في « البيانو » .

● وفي الرسم ؟

— الاستاذ توفيق طارق .

● ماهي الشهادات العلمية التي نلتها ؟

- الليسانس بالحقوق من الجامعة السورية ، وشهادة الحقوق الادارية من معهد الحقوق الفرنسي في بيروت .

● ترى هل احببت المحاماة التي تعاطيتها لسنوات طويلة ؟

واجاب أمين نخلة رجل القانون الكبير :

- لقد احببت المحاماة فنا ، وكرهتها حرفة .

قلت له :

● شعوك في ابنك وابنتك مشهور متداول .. فهل لي ان اسألك اي ولديك تحبه اكثر من الآخر ؟

وابتسمت نظرات الأبوة الحانية في عيني أمين نخلة .. وسألني :

- وأنت .. أي مقلتيك تحبها اكثر من الأخرى ؟..

● لماذا الفت كتابك في الفقه «احكام الوقف» واخترت هذا الموكب الصعب ؟

- لأنه لا يوجد في العربية كتاب عن أحكام الوقف عصري الأسلوب ، وعلم الوقف كما تدري بحر لا ساحل له . فرأيت ان اجهد في تأليف كتاب فيه اجمال للتفصيل والشروح الضافية بأسلوب عصري .

● ما احب كتبك اليك .. وما هو موضوعه ؟

- « ذات العماد » وهو يدور على المسائل الخلافية في الأدب ، وعلى الدقائق اللبنانية في اللغة ، وعلى ما مجد به لبنان في « الحديث النبوي » ، وفي « الآثار » ، وفي الأدب العربي القديم .

● ما آخر نتاج فكري مطبوع لكم ؟

- المجموعة الثانية من شعري ، وهي « الديوان الجديد » .

ثم سألت أديبنا الكبير :

● ماهي مشاريعكم الأدبية للمستقبل ؟

وكانت الاجابة :

- اخراج الجزء الأول من فصول « في الهواء الطلق » وهو كتاب تذكارات ونجاوى ، وكتاب « أوراق مسافر » وهو واردات يومية من خواطر كانت تسنح لي في موضوع السفر وأهله وأنا على سفر في بعض البلاد على الخليج العربي . والمجموعة

الثالثة من شعري واسمها « ليالي الرقمتين » ثم « الحيثة الأندلسية في لبنان » وهو في أخبار جماعة من الأندلسيين عاشوا بعد الجلاء عن الأندلس في ناحية « بجدل معوش » المقاطعة المارونية في بلاد الشوف ولم يبق من آثارهم في زماننا هذا الا قبر متهدم للامام علي بن ميمون المغربي الغماريّ التباسي ، وأسماء تقع على بعض الرجال وبعض القرى والأراضي ، ثم كتابان : الأول مختارات من الشعر العربي ، والآخر مختارات من النثر العربي . وكتاب في فصول لي متفرقـــة من الأدب والنقد ، وكتاب « اساتذتي » ، وهو في الذين وقفت بين يدي كتبهم موقف التلميذ ، وكتاب « تأريخ الزجل » ، وهو يتناول تأريخ هذه الفنون العامية منذ أوغل الأدوار في القدم الى اليوم . وكتاب « أمثال الانجيل » ، وقد عربت هذه الأمثال ، وهي لبّ لباب الانجيل ، بلغة بعيدة عن اللغة الانجيلية المعروفة .

قلت لأمين نخلة :

● بماذا توصي الأدباء الناشئين ؟

— من النصيحة لهم أن يعملوا على التوفيق بين الفكر وأخته اللغة . وذلك لا يقع الاّ بطول المطالعة لآثار الأدباء من اهل الطبقات العلى .

● من هم الكتاب المعاصرون الذين طالعت لهم كثيراً واحببتهم كثيراً ؟

— السباعي (الكبير) وعبد العزيز البشري ، وولي الدين يكن ، وحافظ ابراهيم في الجزء الاول من « البؤساء » ، وخليل مطران في كل ما نشر له من النثر ، والمـــازني ، وأحمد شاكر الكرمي ، والأمير شكيب في ماخرج به عن السجع ، وقد حذرني والدي في صغري من مطالعة كتابات جبران والمنفلوطي ، فانه قال : « لا تفعل فان الأول يفسد عليك أسلوب الفصاحة ، ويفسد عليك الآخر أسلوب التفكير ! »

قلت :

● بعد حصولكم على جائزة الرئيس .. هل تفكرون في الترشيح لجائزة نوبل ؟

— ان هذه الجائزة هي « لهم » .. وليست « لنا » ، وجوائزنا تكفينا .

وفي ختام مقابلتي مع مفكرنا العربي امين نخلة ـ ٦٦ سنة ـ سألته :

● **كيف تستطيع الجمع بين الأدب، والسياسة ، والمحاماة ، والصحافة ، والفنون ؟**

أجابني :

ـ ان النفس كهذه المناضد الأميركية ذات الأدراج الكثيرة ، تفتح درجا منها .. فتنغلت بقية الأدراج ... وهكذا شأني في ماعددت من شواغل نفسي .

قلت له قبل أن أغادره وفي نفسي بقية لهفة للحصول على أجوبة كثيرة تتردد أسئلتها في ذهني لولا أن أزف الوقت .. وقت سفر أمين نخلة مع السيدة عقيلته الى روما حيث دعي بحضور قداس تطويب الأب شربل في الفاتيكان .. قلت :

● **هل أنقل عنك لقراء « المعرفة » ذكرى لاتنساها من دمشق ؟**

وأجابني أمين نخلة الانسان .. بأن نصفه لبناني ونصفه شامي ، لكنه أشار علي بأن اكتب :

ـ لعلها التي تذكرني قول ابن الأحنف :

لأخرجنّ من الدنيا وذكركمو

خلف الجوانح لم يشعر به أحد ...

من الأيام

مجموعة مقالات للدكتور صبحي أبو غنيمة

عرض وتحليل ناقد المعرفة الأدبي

من عرف الدكتور ابوغنيمة معرفة قريبة ، يشعر أن مقالات (من الأيام) هي امتداد لأحاديث الطبيب في جلساته الخاصة مع اصدقائه . ولعل اكبر ميزات هذه المجموعة من المقالات التي كانت نشرت تباعاً في جريدة (الأيام) في دمشق ، أنها مطبوعة بطابع الصدق ، وعدم التكلف ، حتى ليشعر كل قارىء أن الدكتور يخاطبه شخصياً ويتبسط معه في جلسة ادبية ودية خاصة .

ان هذه العفوية والصدق في أدب الدكتور ابوغنيمة نابعان من كونه أديباً ، ومن كونه عالماً ، فالدكتور طبيب ، ومؤلف في علم الطب ، والدراسات النفسية التي تنبثق من علم الجسد وأحواله ، ويعرف القراء العرب كتابه الكبير (نظرة في اعماق الانسان) . كذلك فهو اديب ، عرف في الثلاثين الأولى من هذا القرن كاتب قصة وناقداً ومحللاً نفسانياً . وعندما اختار دمشق سكناً له

منذ عام ١٩٣٠ كانت دمشق الأدبية تلتف حول الطبيب الأديب ، رجل فكرة ، وصاحب علم وأدب .

ويتميز كتابه الجديد (مع الأيام) بأنه مجموعة ذكريات ، وانطباعات ، وتأملات وشوارد افكار ، ورصد تاريخ ، بأسلوب قصصي جذاب ، لايخفي شخصية المالم الأديب الذي يتحدث الى الناس ، الى العدد الأكبر من على منبر جريدة يومية .

بل إن الطابع الخاص في هذه المقالات أن صاحبها لاينقل ماقرأ ، أو يعطي من ثقافته فحسب ، شأن كل مثقف بل هو يعطي من ذكرياته التي عاشها ، ومن الشاهد التي تحرك فيها ، فتزداد بالمؤلف انساً ، لانه يحدثك عن حياة وتجارب في الحياة ، لاعن كتب ، وحديث عن الكتب . وهذا جانب آخر من جوانب الصدق التي لايلبث أي قارىء أن يأنس بها ويقبل عليها .

قد يوافق القارىء على بعض الآراء في هذه المقالات — سياسياً وتاريخياً — او لايوافق ... وقد يحب بعض الاشخاص ، احياء واموانا ، ممن اورد الدكتور ذكرهم ، اولا يحبهم . فتلك آراء وأمزجة ، وشؤون جدلية . ولكن الابقى فوق هذا وذاك ، بعيداً عن الأشخاص والأمزجة والنظرات السياسية ، تلك النزعة الأدبية الانسانية التي لاتشع في أدب الدكتور أبو عنيمة فحسب بل تطبع حياته كلها ، وصلاته الاجتماعية ، بصفة خاصة ، يضاف اليها ذلك الانشاء القصصي ، المتسلسل بمنطق علمي ، والتدفق من ينابيع ثقافية غزيرة .

تأليف الياس قنصل

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

عرض وتقديم ماجد صالح السامرائي

في وقت كان فيه أدباؤنا وشعراؤنا في الوطن العربي يتلهون بزخارف الكلام ، ويمضغونه باعادة ممجوجة ، ويستحلبون أجواءمن سبقوهم بقرون ليظهروها لنا على أنها « بنت عصرها» بينما هي أعتق من عظـــام أولئك « المساكين » الذين عاشوا ظروف عصرهم ، وكتبوا وفق ماساده من مقاييس . . عواطف باردة ككومة من جليد .. كلمات محنطة . عبارات خربة كأنها ركام جزيرةمهجورة .. تجارب بليدة لايدق في رأسها نبض ، أو يسير في جسمها نسغ الحياة . . ولاغرو ، فقد كانوا يتنفسون عفونة أقبية لاتنضح غير ملح راحوا يجترون رشحه ...

في هذا الوقت ومن مثل هذا الواقع المنهك الرازح تحت وطأة قيم التحجر والجمود ، ومن مثل هـذه الحياة البليدة الضامرة ، انطلقت موجة شقت البحار لتلقي مرساتها في مرفأ « عالم جـديد » تتنفس فيه عبير الحرية ، التي طالما أوصدت الأبواب دون شمسها في الوطن ، وتنشد مجالاً للعيش الحر الكريم ، بعد أن ذاقت طعم الفاقة والعوز ، وتجرعت كؤوس الانهاك .

ومن هناك ، انطلقت الينا بشائر نهضة فكرية جـــديدة ، أوقد شعلتها

الادباء الذين حلوا في تلك البلاد النائية ، فرضموا ثقافتهم ، ورحبوا أفق تفكيرهم ، وفتحوا أحاسيسهم على معطيات ثرة أصيلة ، فكان لنا من ذلك « أدب المهجر » . هذا العطاء الفذ الذي هو مفخرة أدبنا المعاصر .

« وما الأدب المهجري الا هذه الدفقات الجديدة من الحياة التي انبثقت في شرايين الادب العربي العام . فساهمت في نقله من حالة الجمود التي كان يتخبط فيها ، الى ما هو عليه الآن من الحيوية » . (ص ٣٦) .

ومن حسن الحظ أن يتفتح أدباء الوطن العربي الرازحون تحت « سطوة التقليد » على معالم هذا الأدب ، ويتفحصوا دقائقه ، فمنهم من سار تطوره ، وهفا صوب التجديد ، ومنهم من أشاح بوجهه عنه ، مولياً شطر « موضوعات » لم تكن كتابته فيها سوى شق كفن عن رمم بالية .

وكان للاهتمام الذي لقيه أدب المهجريين العرب صداه الكبير في دنيانا العربية ، فتوجه صوبه نفر من الأبناء ، وعقدوا حوله الدراسات ، مشيدين بالمآثر التي أسبغها على ادبنا الحديث ، شعره ونثره .

وعلى كثرة ما كتب عن هذا الأدب فاننا لم نزل نفتقر الى ما يكتبه أبناء المهجر أنفسهم ، لأنهم أدرى بمعالم الحياة هناك ، وأعرف بماهية أدبهم ؛ وطبيعة أدبائهم .

وقد بدا هذا الاهتمام منهم في الآونة الأخيرة ، فرأينا بضع دراسات تطالع النور لتلقي الأضواء على معالم الحياة والأدب في المهجر ، ولتبحث بعض شؤونه وقضاياه . ومن ذلك كتاب « أدب المغتربين » للأديب الياس قنصل .

انطوى الكتاب على عشرة فصول ؛ استغرقت حوالي مائة صفحة ، وهي :

« المغتربون الأوائل » .. حاول فيه المؤلف أن يستقصي آثار الهجرة ، ويضع تاريخاً لها ، ولو على وجه التقريب . وأبان باقتضاب أسباب الهجرة ودوافعها .

والفصل الثاني ، كان عن « الصحافة » المهجرية ، تحدث فيه المؤلف عن أولى الصحف التي صدرت في المهجر ، ومدى

حالاقته من صعوبات وعراقيل اعترضت سبيلها. وكشف عن أهمية الصحافة التي أستطاعت أن تكون العامل الأولي الفعال في الاحتفاظ بالنفس العربي، وبين كثير من أبنائهم الذين رأوا النور تحت سماوات البلدان العربية» [ص ٣٤]، فقد ساهمت الصحافة المهجرية في ظهور النهضة الفكرية، وتعزيز روابط الفكر بين المهجر والوطن، ولولاها «لما غمرت أنوار هذه النهضة الأدبية المهجرية أنحاء الدنيا العربية بسرعة تكاد تكون نورية..» [ص ٢٧]

وتحدث في الفصل الثالث عن «الرابطة القلمية» التي كانت «غايتها السعي لبثّ روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي، وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فعالة في حياة الأمة..» [ص ٣٢]

أما الفصل الرابع فقد عقده عن «العصبة الأندلسية» التي تكوّنت في (سان باولو) بالبرازيل عام ١٩٣٣، وتحدث عن مراحل نموّها وتطوّرها، وعن أهمية الادب الذي أنتجه أعضاؤها، ومدى مساهمتهم في تجديد الادب العربي.

وكرّس الفصل الخامس للحديث عن «الرابطة الادبية» التي أنشئت في الارجنتين لينضوي تحت لوائها أدباء المهجر هناك.

وعقد في الفصلين السادس والسابع حديثاً مقتضباً عن «أدب الشمال» و«أدب الجنوب»، فبيّن الخطوط التي يلتقي فيها الأدبان، والسمة التي طغت على كل منهما.. معززاً ذلك بنصوص لأبرز أدباء المهجرين، الشمالي والجنوبي.

ويأتي بعد ذلك «في سبيل العيش» و«جزاء الأدب»، وهما الفصلان الثامن والتاسع.

على أن أهمّ فصل في الكتاب، على ما أرى، هو الفصل الأخير الذي ينضوي تحت عنوان «مصير أدب المغتربين».

فهذا الأدب الذي بدأ شامخاً، حتى كان قمة ضاربة في أدبنا المعاصر.. منه انطلقت ومضات الحداثة والتجديد، وأدباؤه أوّل مَنْ وضع لبنات البناء الادبي المتطور.. أصبح اليوم مهدداً.. فهناك

كثير من العوامل التي تقف مجتمعة لتقوّض اركان هذا البناء وتقضي على القلم العربي هناك .

كان الجيل الاول من المهاجرين قد تلقى نصيباً وافراً من الثقافة في الوطن الذي نزحوا عنه ، وعندما حلّوا في مهاجرهم راحوا يطورون معطيات ثقافتهم ويكتبون نتاجاتهم باللغة الأم . . فنشأت هناك صحافة عربية ضخمة ، كانت أعظم وسيلة في حث الاقلام على الانطلاق ، ونفض غبار الخمول عنها .

ولكن بمرور الزمن وتتالي الايام نشأ جيل جديد هناك .. جيل فتح أبصاره على معالم حضارة تختلف عن حضارة الآباء والاجداد .. ونشأ في بيئة غربية لاتربطها ببيئة الآباء والاجداد الاولى أية رابطة .. وبحكم ذلك تلقى ثقافة غريبة ، فاذا هو مقطوع الصلة بالتراث العربي ، وبالمحيط العربي ، وحتى باللغة العربية !.. وهذه هي الظاهرة التي تشكل اولى علامات الخطر التي اضحت تهدد الادب العربي في المهجر بالمحق والزوال ، بزوال الجيل الاول ...

وهذا الجيل الجديد الذي نشأ في تلك البلاد الجديدة ، بحكم نشأته وطبيعة الحياة المحيطة به ، ينصرف الى الادب الذي يعبّر عن حياته ، والذي هو اقرب الى طبيعته التي كونتها بيئته ، وأكتسبها من نشأته في البلاد الجديدة .

وهذا الامر وحده يفضي الى دفن الادب العربي هناك ، وطمس معالمه . . فان النور يخبو تدريجياً ، واصداء الكلمة العربية تضمحل شيئاً فشيئاً . فما هو الحل السليم لضمان ديمومة الادب العربي هناك ، وانتشاله من هذا الخطر ؟

لم يوفق المؤلف في وضع حل لهذه الأزمة التي تجتاح أدبنا هناك ، والتي تهدد اللسان العربي بالاندثار ، واللغة العربية والأدب العربي بالتلاشي والاضمحلال ... فقال انذلك يتم بعودة الأدباء الى اوطانهم ليواصلوا فيها مابدأوه [ص ٩٧] ... ولكنه عاد فعارض هذا الحل عندما طرح الكثير من الأمور التي تحول دون تحقيق ذلك .

وفي الواقع ، ان هذا الموضوع ، مصير أدب المغتربين ، موضوع على جانب كبير من الاهمية والخطورة في وقت

واحد ، ويتطلب دراسات جدية ، يسهم المغتربون أنفسهم في وضع الحلول الناجعة لها ، ومعالجتها على ضوء الحياة التي يعيشونها هناك .. لتكون حلولاً سليمة منبثقة عن وعي وإدراك لمجريات الامور ، بعيدة عن شطط الخيال والتصور .

ملاحظات :

وقعت في الكتاب بعض الأخطاء النحوية والاملائية ، أذكر بعضها هنا ، وآمل أن تكون أخطاء مطبعية :

١/ص ٢٢ : « هنا الجهاد ليس من ورائه إلا الخسارة والخذلان . » والصواب : « ..من ورائه ... » .

٢/ص ٢٢ : « .. ولا تدعمها أي قوة.. » والصواب : « .. اية قوة » .

٣/ص ٢٦ : « .. واتحاف العالم العربي بالروائع التي فتحت آفاق طريفة من الخواطر والأساليب » والصواب : « آفاقا طريفة .. »

٤/ص ٣٠ : « وكانت إدارتها ملجأ لشوارد آرائنا وجواً فسيحاً يمترج فيه هزئنا بجدنا . » والصواب : « آرائنا » و « هزؤنا » .

٥/ص ٣٢ : « يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهواءها . » والصواب : «هوائها» .

٦/ص ٤٢ : « دون أن يكون لهذه الهيئة الادبية أي صبغة سياسية . » والصواب : «اية صبغة .. »

٧/ص ٥٢ : « .. ولم تكن الاجتماعات تتخذ اي صبغة رسمية . » والصواب « اية صبغة . »

٨/ص ٥٤ : « .. ويتوقع من اعضاءها . » والصواب « ... اعضائها . »

٩/ص ٥٦ : « .. دون ان تثير اي ضجة » والصواب « اية ضجة .. »

١٠/ص ٦٨ : « كان لشعراء المهجر الجنوبي وكتابه آراءهم الصريحة . » والصواب : « .. آراؤهم » .

١١/ص ٧١ : « .. والحماس الوطني القومي الذي امتاز بـه الأدباء الجنوبيين » . والصواب : « .. الادباء الجنوبيون » .



للدكتورة بنت الشاطىء

عرض وتحليل عبد الله كنون

طنجة — المغرب

عرفت السيدة الدكتورة بنت الشاطىء بالشخص في صيف سنة ١٩٥٧ وذلك بمكتب الاستاذ الكبير عادل الغضبان في دار المعارف ، وكان قبل حضورها بقليل قدم لي نسخة من رسالة الغفران بتحقيق الدكتورة في طبعتها الثانية التي صدرت عن الدار في ذلك الاسبوع ، وقد راج في ذهني بعد التعارف الذي تم بواسطة الصديق عادل أن اطلب منها توقيع النسخة بحكم أنها المؤلفة ولكني أحجمت عن ذلك لان هذا كان أول لقاء منها ، وهو وان كان لقاء مشجعاً بما رأيته من حسن محضرها ولطف حديثها الا أني لم يغب عن بالي انها سيدة في عصمة رجل من رجال العلوم والادب يحظى باحترام كبير .

وانا رجل مهما تعلقت بهذا الادب ووغلت على أربابه ، لا انسى ان ادبي الاول كان هو السنة النبوية وان دراستي الرسمية كانت دراسة دينية وعلى المنهج المأثور ، فلا أكتم أن مانعي الحقيقي من أن اطلب توقيع الدكتورة هو استحضاري لواقعة حال شبيهة بحالي ، وهي تتضمن سلوكاً ما كان لمثلي الا أن يتقيد بـه وأعني حديث النبي (ص) عن عمر فيما رواه البخاري : اطلعت في الجنة فـاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب فذكرت غيرته ، فوليت مدبراً ، فبـكى عمر وقال : اعليك أغار يارسول الله ؟ ولا يفوتني أن اقول انني اذا لم اتجاوز الحد في طلب التوقيع ، فقد تحدثت الى

الدكتورة حديث المعجب بأدبها وعلمها وانصت اليها وهي تتحدث عن اشتغالها برسالة الغفران وما بذلته من جهد في تحقيقها ، وسألتها هل يعينها الأستاذ زوجها في أعمالها الادبية فقالت أن الأستاذ هو الآخر مشغول بأعماله الكثيرة لا يفرغ الى مثل هذه المعونة . وزادت تقول انها ترزح تحت اعباء ثقيلة من الأشراف على تدبير البيت وتربية الأولاد ، والتدريس ، فزاد اعجابي بهذه البطلة ، وعند الانصراف تفضلت فوصلتني الى الفندق الذي أنزله في سيارتها التي تسوقها بنفسها فودعتها وحملتها تحياتي الى الاستاذ زوجها .

والمقصود القول ان الانسان لا يترك شيئاً بنية حسنة وأدب جميل الا عوضه الله خيراً منه، فقد تكررت زيارتي للقاهرة بعد ذلك، وتكرر لقائي للسيدة الدكتورة وحدها ومع زوجها العلامة امين الخولي، واذا بكتبها تتواتر الي ، مع عبارة الاهداء والتوقيع المرغوب ، ومنها كتاب قيم جديد (للأدب العربي) الذي يساق الكلام اليه .

وقد خصصت هذا الكتاب من بين كتبها بالحديث لانه دراسة طابعها التجديد ومحاولة ناجحة لوضع قيم حقيقية للأدب العربي لا جديدة فقط ، لان الجديد قد يبلى والحقيقة ثابتة لا تزول ، فقد تنبهت الدكتورة الا ان هذه الصورة الرسمية التي يقدم بها الادب العربي منذ عصر الجاهلية الى العصر العباسي ليست هي الصورة الحقيقية لهذا الادب ، وان خطأ رفيعاً يفصل بين مهمة الادب الاولى وهي الأدب للحياة وبين ما حاولت تلك الصور الرسمية بتواطىء النقاد القدماء ان تجعل مهمة الأدب الوحيدة ، هي الادب للبلاط ان صح هذا التعبير ، فاخضعت جميع نصوص الأدب العربي أو على الأصح جميع تراثنا الشعري لهذا الاعتبار وحكمت عليه وعلى عامة شعرائنا بمقاييس مستوحاة من جو السياسة والحكم ومحيط ذوي النفوذ والسلطان ، فكل من ركع بين يدي ملك أو خليفة رفعته الرسميات الى الطبقة الأولى من فحول الشعراء ، وصار هو الشاعر الطليعي لجيله ، وآثاره هي النماذج المختارة لعصره . فالنابغة في

الجاهلية ، وجرير في العصر الاموي ، ومروان بن ابي حفصة في العصر العباسي واضرابهم هم الشعراء القدمون على من سواهم من شعراء عصورهم .

وقول الاول يخاطب النعمان :

فانك كالليل الذي هو مــدركي
وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول الثاني يمدح المروانية :

ألستم خير من ركب المطــايا
وأندى العالمين بطون راح ؟

وقول الثالث يحتج للعباسيين على العلويين :

أنى يكون وليس ذاك بكائن
لبني البنات وراثة الأعمــام ؟

وأمثال هذه الاقوال ، هي النماذج الرسمية في الدراسات الادبية الى عصرنا هذا .

فهل هذه هي حصيلتنا من الادب العربي طوال قرون ؟ وهل حقا ان أولئك الشعراء المتملقين هم النخبة التي تمثل الشعر العربي في عنفوان مجده ؟ ألم يقل العلماء ان الشاعر كان للقبيلة بمثابة القائد والزعيم يدافع عن احسابها ويخلد مآثرها ؟ وان تكسب النابغة والاعشى بالشعر غض من قدرهما ونال من شرفهما ؟ ومعنى ذلك ان للشعر رسالة في الحياة ، وانه فن قبل ان يكون حرفة ، فهل يصدق ذلك على الشعر العربي في ادواره المختلفة ؟ وهل قام شعراؤنا الأقدمون بما يطلب منهم في هذا الصدد ؟ .

ذلك هو ماتجيب عنه الدكتورة في كتابها قيم جديدة للأدب العربي ، وتثبته بالأدلة والشواهد ، فتبين كيف انحرف فهم النقاد القدماء لتراثنا الادبي ، وكيف ضلت المقاييس التي وضعوها لوزنه وتقديره ، وتجعل من المعارك التي خاضهـا الشعر في الجاهلية والاسلام لمقاومة التسلط والطغيان واقامة موازين الحق والعدل قواعد ومقاييس لنقده وتقييمه ، فتعيد للأدب العربي اعتباره ، وترفع بين الآداب الانسانية مناره ، واستمع الى قولهــا في ذلك :

« ومستقبلنا بلا شك معركة فكرية ، بعد ان انقضى عهد الاستعمار العسكري ، ولا مفر لنا من خوض هذه المعركة لأن وجودنا الكريم لا يحميه الاصون لمقوماته المعنوية . وهنا يأخذ الأدب دوره في نضالنا

الجديد، حارساً لمنوياتنا. وكما لاذ اسلافنا باستنقاذ تراث العربية الأدبي والفكري في صراعهم مع الشعوبية، وكما حموا به العربية ديناً ودولة في مهب الاعصار التتري نلوذ به اليوم لحماية وجودنا في مهب تيارات الغزو الفكري.

ولن ينهض الأدب بهذا الدور الجليل في المعركة ما لم نتحرر من الرواسب التي شوهت تراثنا الأدبي، وما لم ننسج في تذوقنا له من سيطرة الاذواق التي ورثناها من مخلفات عهود الضعف والانحطاط بل لن تقوم للأدب العربي فينا قائمة ما لم نلغ الاسوار التي عزلت ابناءنا واجيالا قبلهم من اجمل ما لنا من تراث فني، ولم نمسح الظلال التي حجبت عنهم بهاءه حين فرضت عليهم نماذج بعينها من الشعر راجت في ظل الطغيان وأشخاصاً بـذواتهم من الشعراء والكتاب يدينون بشهرتهم وذيوع صيتهم لتعلقهم بركاب الحكام، أيام كانوا في عزلة عن الشعوب ... »

اني أهنىء السيدة الدكتورة بتوفيقها في هـذه الدراسة القيمة وأتمنى لو تتسع فيها وتستمر حتى تشمل العـالم العربي بجناحيه وتصل الى ما بعد العصر العباسي من عصور حكم عليها ظلماً بالعقم والضحالة اذ كان النظر اليها انما يقع من هذه الزاوية التي ازدادت ضيقاً بحكم تسلط الاعاجم على بلاد العرب واستغنائهم عن الشعر والشعراء فاستغنى النقاد القدماء منهم والمحدثون عن النظر في تراثنا الفكري الجديد لما سار لا يمت الى حياة البلاط بصلة، وطويت صحف كثيرة كان يمكن ان يكون لها صدى ودوي في حياتنا الادبية لو وجدت العزائم النافذة والاقلام السيالة التي تنخلها وتبرز للناس ما فيها من ذخائر وكنوز.



زوربا اليوناني

تأليف نيكوس كازانتزاكي
ترجمة جورج طرابيشي
عرض وتحليل محيي الدين صبحي

في القرن العشرين ، بل كلما تقدم الزمان ، يزداد الانفصال عن الطبيعة عمقاً في الحياة الانسانية ، وتتنوع مظاهر الفكر والاعتماد عليه ، وتجريده من الملابسات ، ليشمل أكبر حيز في حياتنا. في هذا الوقت تنطلق صيحة تحذير ، انذارا يوجهه الكاتب اليوناني نيكوس كازانتزاكي مدينا الحياة والفكر المعاصرين ، داعيا للرجوع بالفكر الى جذوره في الحياة .

والرواية ليس فيها كثير من الحوادث لأنها تعتمد على عرض شخصيتين اساسيتين قدمها الكاتب كنموذجين للحياة : نموذج الانسان الاوروبي المثقف بهموم الفلسفة والذي يعيش للتأمل ، ويدعونه «المعلم».

نموذج زوربا ، الانسان الذي يعيش على الطبيعة. إن زوربا رجل فطري يمتاز بالشجاعة والذكاء وسعة القلب ، كمعظم بسطاء الارض وإن كانت بساطته لم تنبع عن سذاجة ، بل جاءت عن خبرة عميقة ، وروح شفافة تتقبل الحياة على علاتها دون تزويق ولا مبالغة. ان زوربا يمثل التفاهم بين الانسان والطبيعة ، فهو لا يصاب بالاشمئزاز ، ولا يتبلد تجاه العادات ، بل يظل شعوره حياً نضراً يدفعه الى التساؤل عن جواهر الأشياء ومشكلات الكون دون أن يصاب بالشلل أو الرعب ، نتيجة عيه عن الجواب .

بدأ زوربا حياته بوعي التناقض بين

الفطرة والقيود الاجتماعية ، فأنفق حياته في التحرر منها وتحطيمها . لقد تزوج ، لكن هموم الأسرة حالت بينه وبين ممارسة هوايته المفضلة، العزف على «السانتوري»، فهاجر . وشعر أن رغباته تقيده ،فأشبعها الى حد التخمة « عندما أرغب في شيء آكل منه حتى التقزز كي أتخلص منه ، ولا أفكر به مطلقـــا ، أو أفكر به باشمئزاز . فالانسان يتحرر بأن يشبع من كل شيء ، لا بأن يزهد فيه ويبتعد عنه . هذه هي الحرية : أن تهوى شيئا ، كأن تجمع قطع الذهب ، وفجـــأة تتغلب على هواك وتلقي بكنزك في الهواء . أن تتحرر من هوى كي تخضع لهوى آخر أكثر نبلاً . »

ومن أجل الوطن ، قاتـــل زوربا وناضل « بالنسبة للوطن ، لقد رغبت فيه، فأكلت منه حتى شبعت » ! وهو يعي التناقض بين متطلبات النضال القاسية وبين أهدافه: « فتلك المجازر التي ارتكبناها جاءت بالحرية . انه أمر محير . »

ومن أجل الرزق عمل زوربا في كل المهن : قالع حجارة ، عامل مناجم ، بائع متجول ، فخار ، عازف ، حداد ، وقاطع طريق ... الخ .

لكنه يأمل برحمة الله ، لأن ما فعله اضطرته اليه الظروف ، أما هو فانه لا يكن إلا الرثاء لبني البشر ، لأنه يرى أن الانسان « حيوان مفترس يأكل البشر » .

إن زوربا يمثل التفاهم بين الانسان والطبيعة . ولو عاش في عصـور بدائية لكان رئيس قبيلة أو شاعراً . وهو يبلغ الجوهر عن طريق تحطيـــم المنطق والأخلاق . وفضيلته الوحيدة هي طبعه الملحاح والحاجة تطلعه الى آفاق جديدة ، ولو كانت مهلكة . لقـــد كان الكون بالنسبة لزوربا ، كما كان بالنسبة لأوائل البشر : رؤية ثقيلة وكثيفة . فالنجوم تنساب عليه ، والبحر يتكسر على صدغيه وهو يعيش في الأرض والماء والهواء دون تدخل العقل المشوه الأمور . وقد استطاع بمفرده في حياته التي حارب فيها وقتل وأحب ، أن يحل كل المشكلات التي يطرحها الضمير والمجتمع ، دونما رجوع

الى الورق والحبر ، مثلما فشل وفشـل ، المفكرون المسمرون على مقاعدهم .

أما المعلم ، فهو نتاج الثقافة الأوروبية وحضارتها . اختـــار البوذية كطريق للخلاص الفردي ، وآمن أن كل مخلوق وتجربة هما جزء من الطبيعة ، وحين يصل المرء الى مرحلة الاندماج بالكون والتحرر من الذات ، يكون قـــد بلغ مرحلة النيرفانا وحصل على هدوء الروح.

وقد بدأ المعلم رحلته الى كريت بعد أن فقد قناعته بالطريقة البوذية ، وعجز عن التخلص منها . فلم يجد بداً من العودة إلى الناس ، يستقرىء ضمائرهم ، فتعرف الى زوربا ، وتملأ من تجربته وعرضها الى جانب التجارب الأخرى ، وهي :

١ ـــ التجربة البوذية .

٢ ـــ التجربة الرهبانية .

٣ ـــ التجربة الثقافية الأوربية .

٤ ـــ التجربة الزوربوية ، او تجربة التفاهم مع الطبيعة . وعلى ذلك فان المعلم في الرواية هو الباحث عن الحقيقة .

جاء المعلم الى كريت وهو زاهد بالطعام والشراب والجنس ، ميت الجسد، قلق الروح ، يجاهد أن يحول كل شيء الى روح وتأمل . وهذا ماجعله مشلولاً شارداً مخدراً . لكن زوربا لم يكن يتركه في سكون ، فجعله — بشهيته وتلذذه — يؤمن « أن الأكل عمليـــة روحية ، وأن اللحم والخبز هي المواد الأولية التي تصنع منها الروح » .

ثم بدأ ينعى عليه أنه لايعرف كيف يستخدم جسده وحواسه « سأدرب حواسي الخمس ، جسدي كله ، كي يتمتع ويفهم . سأملأ روحي بالجسد وأملأ جسدي بالروح . سأوفق أخيراً في نفسي ما بين هذين العدوين الأبديين . » ولم يتوصل المعلم الى هذا التفكير بدافع اقتدائه بزوربا ولا بدافع الطبيعة الخلاقة لأرض اليونان فقط ، بل تعرض لمحنة اغراء أرملة شديدة الاثارة كانت في القرية . وكان على المعلم لكي يصل اليها أن يتخلص من العفة النفسية التي نشأت لديه من دوام انفصال التفكير عن العمل ، أي أن يتخلص من البوذية الـــتي توهمه بأنه لايحتاج الى شيء في هذه الدنيا . لكنه

يظل ملتزماً بها ، ويضيف عليها العودة الى التراث الأوروبي ، فيحاول أن يهدىء عواطفه بقراءة مالارميه ، غير أن نداء اللحم يعلو على كل صوت : « لقد بدا لي كل هذا فقيراً من اللحم ، منعدم الرائحة والطعم والجوهر الانساني .. ان الانسان الأخير – الذي تخلص من كل ايمان ومن كل وهم ، والذي لم يعد يأمل شيئاً ولا يخاف شيئاً – يرى الطين الذي صنع منه وقد استحال الى فكر . وليس للفكر مكان يلقي فيه جذوره ليمتص ويتغذى . ان بوذا هو الانسان الأخير ، وهو الروح الصافية التي تجوفت . انه العدم » وتأتي الحياة لتطيح بكل تأمل ، اذ ينهار نفق في منجم الفحم الذي استأجره المعلم ، وتتهدد حياته ، فيعي الانذار الرهيب بأنه ليس للانسان غير هذه الحياة وأن كل ما نتمتع به ، فانما نتمتع به هنا ، على هذه الأرض ، وليس في الأبدية ،

وهكذا يرفض المعلم بوذا وأوربا لأن طريقتيهما تؤديان به الى نفي الحياة ، ويشق المعلم طريقه الى الحياة الطبيعية مرة أخرى ضارباً عرض الحائط بالتناقض المزعوم بين الروح والجسد .

ان القصة بسيطة ، فقد استأجر المعلم منجماً للفحم في كريت ، واستخدم زوربا رئيساً للعمال . وغرق زوربا في أنفاق الفحم ، كما غرق المعلم في أنفاق العقل ، لكن النفق تهدم ، مثلما تهدمت النظريات البوذية . فكأن المؤلف يريد أن يقول ان الجهد الانساني كله عبث . وأن القيم الأخرى الروحية والحضارية ليست الا شراكاً لاصطياد الانسان . وأن المشاكل الغيبية لا موقف ازاءها سوى التسليم بها ، وأن الحرية الحقيقية هي في الحياة حسب الطبيعة ، وأن الحقيقة لا تستخرج بالتأمل ، بل بالرجوع الى الناس .



القومية العربية في القرن التاسع عشر

تأليف الدكتور توفيق برو
عرض وتحليل عيسى فتوح

بالرغم من تعدد الكتب التي تتحدث عن القومية العربية في القرن التاسع عشر . فاننا قلما نعثر على كتاب افرد دراسة مسهبة للقومية العربية واظهار العوامل التي أثرت في التفتح القومي ، وساعدت على ابراز النهضة من جميع نواحيها السياسية والفكرية والاجتماعية والأدبية والعلمية والفنية ..

لقد كنا نطلع على هذه العوامل مختصرة في مقدمات الكتب التي الفت في عصرنا الحديث .. فهي تمرج على ذكرها لأنها اساس لفهم الناحية التي يعالجها المؤلف ، يطيلها احياناً او يختصرها تبعاً لثقافته ، أو أناته في الرجوع الى دواوين الشعراء ، ومؤلفات الكتاب الذين لمعوا في القرن التاسع عشر ، وبرزوا على مسرح النضال في سبيل احياء القومية العربية التي حاول العثمانيون طلبها .. لقــد جند هؤلاء الكتاب انفسهم واقلامهم ، ونذروا مواهبهم لخدمة القضية العربية يوم كان الجهر بها ، لمن يتحدث ، دونه الموت الزؤام !

قلت هذا لأصل الى كتاب الدكتور توفيق برو « القومية العربية في القرن التاسع عشر » واشير الى ان هذا الكتاب على صغر حجمه ، وقلة عدد صفحاته — ككتاب يؤرخ لعصر بكامله — قد حقق الهدف ، وأصاب المرمى ، ووفى الغرض الذي وضع من أجله ، وهذا يعود لقدرة الباحث الذي استطاع أن يلم بجزئيات الموضوع ، دون أن يقحم نفسه بدراسات جانبية قد لا تساعد على ايضاح الفكرة الأساسية التي بني عليها الكتاب .

ولا ننكر أن عملية الاصطفاء التي قام بها الدكتور برو كانت تقتضي منه القيام بأكثر من عملية تنسيق وغربلــة وصرف النظر عن المعلومات التي يمكن أن تبلبل ذهن القارىء ، دون أن توصله الى النتيجة ، ألا وهي تسليط الاضواء على هذه

الحقبة التاريخية التي مرت بها امتنا العربية ، وذكر من حملوا مشاعل النور ، ومهدوا الطرق التي نسلكها نحن اليوم راضين مطمئنين .

ان من يطالع كتاب القومية العربية في القرن التاسع عشر ، لابد أن يقف وقفة طويلة ، يسائل نفسه : كم وكم عانى المؤلف من جهد ومشقة في الرجوع الى هذه المصادر المتعددة من عربية وأجنبية - انكليزية وفرنسية - ناهيك عن المجلات الادبية ، حتى استطاع ان يخرج لنا كتاباً من هذا النوع الجامع الذي تفتقر اليه مكتبتنا العربية كل الافتقار ، وتسهل مراجعته بيسر زائد ، دون أي تكلف أو عناء ؟!

واحسن من هذا كله ان الكاتب اتخذ شخصية المؤرخ المدقق . ولبس لبوس الباحث العلمي الموضوعي فلم ينزلق في مهاوي الضلال ، ولم ينحرف متعماً هدى نفسه ، ولم يجر وراء عاطفته إلا في بعض القضايا التي تحتاج ان يعالجها الباحث بشيء من الحماسة ، خاصة من يكتب تاريخ وطنه المملوء بالصراع والاشلاء ودماء الضحايا ...

ولعل هذه العاطفة هي أساس الاقبال على قراءة مثل هذه الابحاث التي تصور جانباً من تاريخنا الذي كتبناه بدماء الشرايين وذوب الأرواح .

ويظهر انصافه عندما يتعرض لبحث عوامل الوعي ، فحفظ لكل ذي حق حقه ، ولم يغمط حتى الارساليات التبشيرية ، فضلها في نشر العلم والنور والمعرفة . بما فتحت من مدارس ، وأسست من معاهد ، كانت لها اليد الطولى في تفتح بذور الافكار العربية التي ظلت مدفونة تحت مطاوي الظلم والضغط والارهاق الذي ألحقه العثمانيون بأبناء هذه الأمة ، يوم كانوا يتطلعون الى النور ، ويرنون الى الحرية بأعين ظامئة فكانت عاقبتهم السجون والمنافي !

يقول الدكتور برو : « وقد تخرج من هذه المدارس العالية ، وبخاصة منها المدارس الوطنية ، أعظم واشهر من عرفهم الشرق في الحياة الادبية والسياسية والادارية ، وهم الذين رسموا طريق الاحياء ، ومهدوا للنهضة العربية ، وعملوا على تفتيح الأذهان ، فبدأت الامة العربية تستيقظ من رقادها ، وتشعر بحقيقة وطأة الظلم والاستبداد ، ومن يومها ظهرت طلائع الحقد ضد الترك » .

وعندما تعرض لذكر هذه المدارس الوطنية التي كان لها الفضل الأكبر في بعث النهضة العربية عدد منها المدرسة الوطنية لبطرس البستاني ، والمدرسة البطريركية للروم الكاثوليك . ومدرسة الحكمة للمارونية ، والكلية العثمانية الاسلامية ، وفاته أن يشير الى مدرسة « عين ورقة » التي كانت ديراً فأمر البطريرك يوسف اسطفان بتحويلها الى مدرسة سنة ١٧٨٩ ، واذا قارنا هذا التاريخ مع تواريخ افتتاح المدارس السابقة الذكر ، وجدنا أن مدرسة عين ورقة أقدم المدارس الوطنية أو « أم المدارس

الوطنية في هذه البلاد ، على حد قول أحد المؤرخين .

ولم ينس هذه المدرسة نحسب بل نسي مدرسة (الثلاثة أقمار) للروم الارثوذكس التي أسست في سوق الغرب بلبنان سنة ١٨٦٥ ، ثم نقلت الى بيروت بعد سنة من تأسيسها ... واستغرب أن يكون وقع مثل هذا الاختلاف الكبير في تاريخ تأسيس المكلية العثمانية الاسلامية في بيروت الذي يجعله سنة ١٨٧٦ أي بعد اعلان الدستور العثماني (١) بينا يجعله حنا الفاخوري (٢) سنة ١٩٠٨ . فهل يعقل ان يكون الفرق بين مؤرخين اثنتان وثلاثون سنة !

وفي كل مرة كان يشير الى هذه المدارس أو الجمعيات الأدبية أو الصحف ، أو التأليف الوعي كان ينثني على اديبين كبيرين بل عملاقين من عمالقة الفكر والقومية هما المعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي اللذين كانت لهما اليد الطولى في ارساء قواعد النهضة الحديثة ، وتدعيم أسسها ، وقد جاءت بعدهما قافلة من الكتاب الاحرار ممن اذكوا لهيب شعلة القومية ، وزادوه تأججاً وضراماً ، من هؤلاء ابراهيم اليازجي والكواكبي واديب اسحق ورزق الله حسون وفرنسيس مراش وجبرائيل الدلال ، وبخاصة الأربعة الأخيرون الذين أقاموا في أوروبا ، وتشبعوا بمبادىء الثورات فيها .

ومن عوامل النهضة التي ذكرها المؤلف . الى جانب المدارس والجمعيات والصحف ، المسرح والطباعة والاستشراق ، والمكتبات والقصص ، والرواد الذين نهضوا بأعباء هذه الفنون ، وكرسوا انفسهم لخدمة امتهم العربية ، ومكافحة الاستعمار العثماني البغيض ، عن طريق نشر هذه المقومات ، وتنميتها وتغذيتها بكل مايلزم من وسائل مادية ومعنوية .

حبذا لولم يقصر الدكتور برو بحثه على القرن التاسع عشر ، بل استمر في دراسته لهذا الموضوع الشيق حتى نهاية الربع الاول من القرن العشرين ، أو جلاء المستعمرين عن الاراضي العربية ، لأن شعلة القومية لم تنطفىء ولم تخب في نهاية القرن التاسع عشر ، لذلك كان أولى به أن يتابع هذا المد القومي المتقد في سيره ، ويلاحق تياره الزاحف يخطو حثيثة ، مادام هناك عرق ينبض بالثورة ، وقلب يختلج ، وعصب يتوتر .

ان المد الفكري لايحدد بالسنوات الزمنية ، بل كثيراً ماتتداخل العصور أدبياً واجتماعياً ، دع أن الحناجر الصارخة لم تسكت في مطلع القرن العشرين ، بل استمرت ترسل نداءاتها شفاهاً وخطابة وكتابة ، تحرك العزائم ، وتوقظ الهمم حتى جاء يوم الاستقلال ... فمن يراجع

---

(١) القومية العربية ص ١١٩

(٢) تاريخ الأدب العربي ص ٩١٢ — الطبعة الثانية .

مجلة (العروس) الآنسة ماري عجمي التي أنشأتها سنة ١٩١٠ لمناهضة الاحتلال العثماني والفرنسي بعده ، يجد صفحات هـذه المجلة عامرة بالنفثات المحمومة ، زاخرة بالشعر والنثر الداعين الى التمرد والثورة والنقمة ... مما أدى الى اغلاق هذه المجلة وتعطيلها اكثر من مرة .

فعسى أن يكون هذا الكتاب هو المرحلة الأولى في تأريخ حركة القومية العربية ، ونرجو ان يتبعه المؤلف بكتاب آخر يكون تتمة لهذا الجزء النفيس ... يؤرخ فيه للقومية العربية حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين .



نقد في اللغة

لمنير العبادي

ونبدأ أول مانبدأ من تفصيل هذه «المغالط» بالكلمة التي احتلت الصدارة حتى لقد ساغت، وشاعت في ما يجري على أقلام الكتاب والمؤلفين وألسنة الخطباء والمذيعين، ولقد توهم هؤلاء، وأكثرهم مقلد مسير بـ «لاشعورية»، «ملقت عليهم» كأنهم رجع الصدى، حتى ألفتها أذهانهم وأذواقهم، على أنها صحيحة، فسرت بهم، أو سروا بها، الى حيث لا يحمد السرى.

أما أولى هذه المغالط فهي، «لم يعد»، من عاد اليـــه يعود عودة، وعَوْداً: رجع، كما في اللسان وأنشد لمالك بن نويرة

جزينا بني شيبان أمس بقَرْضهم

وجئنا بمثل البدء، والعود أحمد

أي وعدنا بمثل البدء، وقد عاد له بعدما كان أعرض عنه.

ونعرض الآن بعـــض مايقولونه ويعتمدون في صوغ البيان الذي يحشرون فيه «هذا» الفعل» وتشقيقه، قالوا:

لم أعد أخشى الغوص، ماعاد يستطعم أو يبتهج لترفيه، لم يعد الواحد يستطيع تحمل الآخر، لم أعد أقوى على حمـــل سلاحي — من قصيدة من الشعر الحر! — لم تعد البحار كما كانت من قبل، لم يعد يوسع الملكة، كثيرون من البيض لم يعودوا يخشوا «كذا» الدفاع عن الزنوج» نادي الذرة لم يعد بالنادي الارستوقراطي

القديم ، ماعدت أذكر والحرائق في دمي ، لم يعد لي مكان .

ونعرض مرة ثانية ، فنضع « رجع » في مواضع « عاد » للجمل التي استشهدنا بها آنفاً ، لنقول لم أرجع أخشى الغوص ، مارجع يستطعم ... ، لم يرجع الواحد يستطيع ... ، لم أرجع أقوى على ... ، لم ترجع البحار ... لم يرجع بوسع الملكة ... لم يرجع لي مكان ..

اذن فان استعمال « عاد » فيما يصرفونه غلط وفاسد بعيد عن النهج القويم ، ومع ذلك فانا نستطيع أن نقوم الكلام مع استعمال « عاد » فلا نخطىء الغرض ولا نتقدم من الزلل ، ونأمن على سلامة البيان من الخلل .

فنقول ، عدت لا أخشى الغوص ، وتقديره كنت أخشى الغوص وعدت لا أخشاه ، وعاد لا يستطعم ، وعاد الواحد لا يستطيع ... ، وعدت لا أقوى ... ، وعادت البحار الى غير ما كانت عليه .. ، وعادت الملكة لا يسعها ... وعاد الكثيرون من البيض لا يخشون .... وعاد نادي الذرة غير النادي الذي ... ، وعدت لا أذكر والحرائق في دمي ، ولم يبق لي مكان ... وبذلك يكون حظ البيان سالماً وافراً ، حسن الطلاوة ، بين الجلاوة وأدل على القوة .

وتأتي في المرتبة الثانية من الشيوع كلمة « طالما » وهذه منتشرة كذلك ، فلا نكاد نسمع مذيعاً ، أو نطالع مقالاً أو موضوعاً من الموضوعات أو مجلة الا نجدها موردة غير مواردها ، فيختل المبنى ، ويفسد المعنى .

وقبل أن نأتي على ما يقتضيه البيان السليم باستعمال « طالما » كما يجب ، نذكر هنا بعض حالات تصريف حرف « ما » وهي كثيرة ، منها مايكون بمعنى الاستفهام والخبر بمعنى الذي ، والجزاء والمصدر والنفي ، وزائدة كافة عن العمل ، وغير كافة ، وفي اقترانها بـ «طال وقل وكثر » إما أن تكون كافة عن فعل ، واما مصدرية ، وفي هاتين الحالتين لم يسمع دخولها على أن ، وتعني «طالما» في الجمل التي نستشهد بها فيما يلي مدة البقاء ، وأن « دام » تؤدي هذا المعنى .

يقولون ، طالما ان الصين بقيت بعيدة عن الامم المتحدة ، طالمـــا ان مشكلة كشمير بدون حل فان باكستان .. الخ طالما انها كانت يتناول يدها ، وطالما انه كان يصنع كذا ، وما إلى ذلك من الصيغ التي على هذا النمط غير المتناسب ، واذا حلت « دام » محل « طال » هنا ، فأن المعنى يتسق ويصح ، فنقول ما دامت الصين بعيدة عن ... وما دامت مشكلة كشمير بدون ... وما دامت يتناول يدها وما دام يصنع كذا ... ولبعض الشعراء ابيات ، يقول :

فلما كتمتُ الحب قالت ، لطالما
صبرتَ ، وما هذا بفعل شجي القلب (١)

ومحل « ما » هنا مع طال ، زائدة .

وهناك عدة كلمات غلبت في مجرى استعمالها ، تتعسف بغير هداية ، فان الكثيرين يحلّونها ، خطأ ، في مواضع يفسد معها البيان ، مثل فشل وزادوا فشققوها ، فقالوا ، تفشيل ، وافشال .

الفَشِل : الرجل الضعيف الجبان ، وفشِل الرجل فَشَلاً : كسل وضعف وتراخى وجبُن ، وكذلك تعني الفزع ، ورجل فشيل ، وقد فشِل يفشَل عند الحرب والشدة : اذا ضعف وذهبت قواه ، الانسان .

ويصيب الكتاب وغيرهم اذا احلّوا « اخفق » او « خاب » محلها ، فيقال اخفق في العمل او في المهمة أو خاب في ما سعى اليه .. الخ

وقالوا شجب ، فان شجَب يشجُب ويشجَب شجوباً فهو شاجب وشجِب ، حزن او هلك ، وشجبه الله يشجبه شجباً أي اهلكه ، والشَّجب العنت يصيب الانسان من مرض او قتال وافضل

---

(١) يحسن أن نذكر الأبيات التي استشهد ببيت منها بهذه الكلمة ، فانها رقيقة وعذبة قال الشاعر :

شكوتُ فقالت ، كل هذا تصنّعاً — بحبي ، أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت ، لطالما — صبرتَ ، وما هذا بفعل شجي القلب
وأدنو فتقصيني ، فأبعدُ ، طالباً — رضاها ، فتعتدُّ التباعد من ذنبي
فشكواي تؤذيها ، وصبري يسوءُها — وتجزع من بُعدي ، وتنفر من قربي
فيا قوم هل من حيلةٍ تعرفونها — اشيروا بها واستغنموا الأجر من ربي

وروي موضع تصنعاً ، تكلفاً ، وتبرماً ، وتكلف ، وتبرم ، وكله جائز .

ما ينبغي ان يُستعمل مكانها فيما يكتبون ويخطبون ويذيعون ، استنكر أو أنكر عليه ، ولا يجوز بحال ان يقال شجب العمل الفلاني ، فاستنكر او انكر عليه العمل او القول الفلاني يؤدي الى البيان الصحيح .

ويقولون القى عليه ضوءاً ، ونحسب انهم لو قالوا ألقى مكان القى لكان القول اكثر صواباً .

ويقولون نُـــدوة بضم النون خطأ والصواب بفتحها ، ويقولون ثلّة بفتح الثلاثة خطأ والصواب بضمها ، وقالوا لا زال – وهذه دعائية – والصواب لا يزال .

ولا بأس ، وعلى سبيل المثال ، في ان نقص ما وقع لنا مع احد المذيعين منذ اكثر من سنتين ، قال المذيع ، ان الوزير الفلاني توجـــه الى حمص فاستقبله ثلّة « بالفتح » من اهل المدينة ثم قصد الى المكان الفلاني فعقد ندوة « بالضم » ، وقد ألم به وعكة فالتزم المنزل وهو لا زال مريضاً .. الخ

فتناولت الهاتف ، وخاطبت المذيع ، فقلت ياصاحبي ، ان قولك ندوة بالضم خطأ فذلك يعني موضع شرب الإبـل والصواب بالفتح أي بفتح نون « ندوة » وهذه تعني مجلس القوم ومتحدثهم وكذلك النادي والمنتدى والتندى ، وقولك الثلة بالفتح يعني جماعة الغنم ، أو القطيع من الضأن خاصة ، اما بالضم – ضم الثلاثة وتضعيف اللام المفتوحة – فتعني الجماعة من الناس ، والثُلّة : الفئة من الناس .

وقولك لازال مريضاً خطأ والصواب لايزال ، وكأنك بهذه الصيغة تدعو عليه بأن يظل مريضاً ، بعد أن استقبله جماعة من الغنم أو النعاج وقد حل في الموضع الذي تشرب منه الابل ، وكأني به وقد سمع مني مايعنت له، قد أسأت به أوسؤته فتذمم ، وكاد أن يشتم ، اذ كيف يجوز أن يراجع وأن يرمى بالخطـأ وهو من تسمعه الملايين من البشر من وراء مذياعـــه !!

ويقولون ، زيادة الحجم التجاري ، ولطالب الوظيفة حجم استعداده للمسابقة ،

زيادة حجم القوة العسكرية الى فيتنام ، والحجم الأمثل للسكان .

واستعمال ال « حجم » هنا وفي مثل هذه الصيغ ، خطأ . فأن، حجم كل شيء ملمسه الناتىء تحت يدك ، وقيل ليس لمرفقه حجم : اي نتوء. وكذلك وجدانك مس شيء تحت ثوب .

والصواب ان يقال ، زيادة نسبة التبادل التجاري ، وحالة استعداده اوكفاياته للمسابقة ، وزيادة القوى العسكرية ، والنسبة المتوسطة في عدد السكان وما الى ذلك ، فان حشر الحجم في مثل ذلك لامعنى لها .

ويقولون ، وردية طقم « اوطاقم » الظهر ، وكلتا الكلمتين خطأ ، اولاً ان كلة وردية ممسوخة عن ورديان ، وهذه معربة عن « gardien » الفرنجية ،وتعني الحارس أو المناوب للحراسة ، ولا تزال بعض العائلات تحمل اسم « ورديان »التي طرأت علينا منذزمن ابراهيم باشاالمصري، ثانياً ، طقم وهذه كلمة تركية تعني طائفة أو مجموعة أو بدلة .

وتُحل محل وردية ، نوبة ، فنقول نوبة الظهر او نوبة جوق الظهر،ونقول ، طائفة السفينة ، وطائفة الطائرة ، عوضاً عن طقم الطائرة ، ونقول بدلة اسنان .. عوضاًعن طقم أسنان فنؤدي بذلك المعنى المقصود .

ويقولون،طوابير العرض، اوطوابير الناس ، وهذه كذلك كلمة تركية ، مفردها طابور ، تعني كتيبة ، وهي بالتركية خاصة بالجيش ، فلو قالوا كتائب لكان عربياً صحيحاً .

ويقولون فلان اخطأ وعليه تحمل المسؤوليات ويعنون بذلك أن يتحمل تبعات خطأه ، وإذن فان تبعات أدل على الفصاحة من المسؤوليات .

وهناك هنيات عديدة سنعرض لها في كلمات تالية .

النشاط المسرحيّ في المغرب العربيّ الكبير

لموسم ١٩٦٤ - ١٩٦٥
رسالة من الدكتور سلمان قطاية
- الدار البيضاء -



- من مسرحية هزلية للطيب الصديقي -

اقتصر نشاط مسرح محمد الخامس في الرباط طيلة الموسم الماضي على تقديم مسرحية واحدة . ولم تعلن ادارته حتى اليوم عن اي نشـــاط بالنسبة للموسم القادم .

كانت المسرحية ، كالعـــادة ، اقتباساً عن مسرحية « أميدي أو كيفية التخلص منه» ليوجين يونيسكو، اقتبسها واخرجها ومثل الدور الأول فيها الطيب الصديقي وقدمها تحت عنوان« مومو بو خرصة » . ولكن الاقتباس حوّر الكثير من محتويات ومضامين هذه الرائعة الطليعية بحيث جعلها ترمز الى الاشكالية الشديدة الانتشار بين المغاربة ، ولمح في مواقف قليلة وبرموز صعبة الفهم الى التأخر في المجتمع المغربي . وكان نجاح المسرحية تاماً وجماهيرياً ، وباعتقادي أن نجاحها يرجع الى شخصية الصديقي الهزلية . وان الجمهور كان يضحك لكل حركة لهذا الممثل الكوميدي الموهوب ولكل كلمة له ، وليس لأنه استطاع أن يدخل اجواء المسرحية ويتفهم كل خلجة وفكرة فيها .

والمعلوم ان المسرحية تعرض وضع كاتب مسرحي لايزال منذ خمسة عشر عاماً يردد جملة واحدة دون ان يستطيع ان يكتب أخرى ، ويعيش مع زوجته في عزلة تامة عن العالم حتى أنه حينما جاءه ساعي البريد ليقدم له رسالة ارتعش وتردد ولم يقبلها ، ولكن مصيبته الكبرى هي أن في منزله جثة تكبر فتكبر حتى تدخل الغرفة الوحيدة التي يعيش فيها مع زوجته ضمن فوضى لاحد لها . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ان الدوراً ساعة أصبحت تنبت في هذه الغرفة الصغيرة واخيراً وبعد مناقشات طويلة يقرر « حميدة مومو بو خرصة » أن يتخلص من الجثة ، وفي الفصل الثالث نراه يجرجرها في شوارع الدار البيضاء ولكن اهالي البلد ، بما فيهم الشرطي ، لايرون تلك الجثة ، إلا جندي أمريكي سكران هو الوحيد الذي يتفهم مشكلة حميدة ويساعده في جرّ الجثة ! ؟ !

المسرحية كما ترى مليئة بالرموز . ولكن المقتبس والمخرج الطيب الصديقي يرفض أن يدلي علانية بما عناه فيها ويكرر ان المسرح عالم تام يجد فيه كل امرىء ما يبغيه ويبحث عنه . فكانت المسرحية بذلك فرصة للنقاد فكثرت المقالات المنشورة حول المسرحية ل كرس فيها احد الكتاب الشباب في مجلة « اقلام » (العدد الثامن والاخير) بحثاً خاصاً لتفسير معنى الجثة .

ثم قامت الفرقة بجولة عرضت خلالها هذه المسرحية في البيضاء والجديدة وآسفي وخريبقة واليوسفية . وعندما زار جلالة الملك الحسن الثاني تونس صحبته الفرقة فقدمتها على خشبة المسرح البلدي .

في المغرب عدد كبير من فرق الهواة يختلف مستواها الفني من واحدة الى اخرى .



أحمد الطيب العلج
فرقة مسرح محمد الخامس ـ الرباط

ولقد ساهمت هذه الفرق بجهود مشكورة خلال الموسم المنصرم .

فقدمت فرقة « اصدقاء المسرح الدولي » مسرحية « رجل في المصيدة » لروبير توماس في قالب مغربي أعدها واخرجها الصديق الصديقي (شقيق الطيب) وقامت الفرقة بجولة في عدة مدن لتقديمها . والمسرحية بوليسية من النوع المتوسط وهي أجود ما كتبه توماس الممثل الفرنسي اذ لم تنجح مسرحياته الأخرى ولقد لاقت مسرحيته الأخيرة هذا العام في باريس فشلا ذريعاً مما دعى مدير المسرح الى ايقاف عرضها .

بينما قدمت « فرقة العروبة » مسرحية « بيت الجيران » لعبد اللطيف هلال وهي عرض واقعي لبعض المشكلات الواقعية عن الحب والزواج ومشاكلها في الوسط الاجتماعي المغربي ثم قدمت الفرقة مسرحية « الجدار » اقتباس هلال السرغيني عن قصة جان بول سارتر المعروفة ومثل فيها : خديجة مجاهد ، محمد العلوي ، عبد اللطيف هلال .

وفي فاس (مدينة جامعة القرويين) قدمت فرقة الطليعة مسرحية شكسبير « عطيل » ترجمة خليل مطران وقام بالدور الرئيسي محمد الزكي العلوي بينما قامت خديجة العلوي بدور ديدمونة .

والجدير بالذكر انها من المسرحيات النادرة التي قدمت بالمغرب بلغة عربية فصحى وفصيحة .

وفي البيضاء نشطت فرقة « الجيل الحديث » اذ قدمت مسرحية « التائبون » التي اشتركت فيها في « مهرجان فاس المسرحي » الذي عقد من ١٥ الى ٢٥ نيسان ١٩٦٥ ، وهي بقلم مرشد ادريس . وبعد هذا المهرجان قدمت مسرحية « ضحايا العنكبوت » تأليف محمد المنوفي واخراج عقبة البوسفي ، وهي تعرض مشكلة زواج المغاربة من الفرنسيات وما ينجم عنه من مساوىء ومخاطر وكانت المسرحية بالعربية الفصحى . شاركت فيها الفرقة بمهرجان طنجة لفرق الهواة الذي عقد من ٢٥ الى ٢٦ ايلول ١٩٦٥ ولفتت المسرحية انظار النقاد .

والفرقة تستعد لتقديم عدة مسرحيات للعام القادم منها : قاضي الوثواق ، والفقيه المخنث .

والى جانب هذه الفرقة قدمت فرقة «الأخوة العربية» مسرحية المعذب تأليف عبد العظيم الشناوي واخراج رئيس الفرقة وهي من النوع الاجتماعي الميلودرامي .

أما فرقة «العهد الجديد» التي يديرها عبد القادر بدوي فقدمت عدة مسرحيات وهي : «حورية» مقتبسة عن مسرحية «حرية المرأة» لتوفيق الحكيم ، و «في انتظار القطار» مقتبسة عن «في انتظار جودو» لبيكيت ، ومسرحية «المرشح» لتوفيق الحكيم «والماطلون» تأليف البدوي . وكلها ذات مغزى نقدي اجتماعي مأساوي ضمن اخراج وتمثيل ميلودرامي .

في بيضاء معهد بلدي لتدريس التمثيل ، ويشرف على ادارته فرنسيون الى جانب بعض المغاربة . ومن عادته تقديم مسرحية في نهاية كل عام يشترك فيها الطلبة . فقدمت هذا العام مسرحية «زواج بالاكراه» اقتبسها عن موليير احمد الطيب العلج واخرجها هو نفسه واشترك فيها : الباطول الساطي ، ومصطفى الزناكي .

ولقد نظمت عدة مهرجانات وطنية مسرحية في المغرب ، الى جانب اشتراك بعض الفرق بمهرجان أفينيون الذي يعقد كل عام في فرانسا .

وقد اقيم مهرجان فاس لفرق الهواة لأول مرة هذا العام واشترك فيه كل من :

فرقة الطليعة بفاس فقدمت : عطيل

وفرقة الجيل الحديث بالبيضاء فقدمت : ضحايا العنكبوت .

وفرقة الكوميديا المراكشية فقدمت حاكم الطا الى جانب فرقة الفصول المكناسية وفرقة مدينة الحسيمة وهذه اول مرة تشترك فيها مدينة صغيرة في مهرجان مسرحي .

كذلك نظم مسرح محمد الخامس مهرجاناً مسرحياً في شالة قرب الرباط اشتركت فيه فرقة الطليعة بعطيل . وفرقة المسرح الجامعي فقدمت مسرحية انتيجونا لسوفوكل باللغة الفرنسية أخرجها فريد بنمبارك .

الفرقة القومية للفنون الشعبية ـ الجمهورية العربية المتحدة

المفروض ان يلمس المرء من خلال الفنون الشعبية على اختلاف انواعها الروح الشعبية الأصيلة ، ويجد فيها زبدة حضارات قرون طويلة . الا اننا بكل اسف لم نلمس هذا الشيء فيما قدمته هذه الفرقة في حفلاتها في المغرب في شهر تموز الفائت . كنا نرى من آن الى آخر ومضات تستشم منها عبير شعب النيل الطيب ، ولكن الاسلوب غير من جوهر الرقصات والحركات التعبيرية .

والسبب في هذا الشعور هو اقتناع المسؤولين عن هذه الفنون الشعبية انها «بدائية» وفي حاجة الى مسرحة وتطوير بل لنقل بكل صراحة الى «تمدين» . ومصدر هذا الشعور في رأينا

نابع عن مركب النقص لا يزال يعانيه العربي ازاء العالم الغربي. وهكذا فهو عندما يرى حفلات « فرقة البريوسكا » أو فرقة موسييف يداهمه الاعتقاد بأن هذه الفرق هي المثل الاعلى الذي يجب ان يحتذيه ويقلده. وعندما بدأ الاهتمام بالفنون الشعبية عهد بأمر تكوينها وتدريبها الى بعض الهواة غير الاكفياء فلم يلبث هؤلاء بعد فترة من الزمن ان برهنوا على فشلهم عندئذ احضر المسؤولون خبراء من الاتحاد السوفياتي او الدول الاشتراكيـــة الاخرى لتدريب الراقصات والراقصين واخراج هذه الحفلات فجاءت النتيجة خليطاً عجيباً من رقصات شبه عربية لكنها روسية بشكل لا يدع مجالا للنقاش ولنضرب مثلا حركات اقدام والقفزات وحركات الرؤوس بل والغناء المزدوج وترجيعه. وتعدى الامر حدود التقنية الى حدود التقليد كرقصة الحصان فما اشبهها بحفلات الصين الشعبية مع الثعبان. كذلك هي الحال فيما يخص الملابس التي بدت مزركشة تذكرنا بوضوح بمـــا نراه في اوكرانيا او جيورجيا وليس في الصعيد او الوجه البحري من اعمال مصر.

وخلاصة القول يخيل للمتفرج ان ما يراه امامه هو الا تقاسيم محرفة لقطعة موسيقية سوفيتية.

والواقع ان هذه الفنون الشعبية قد تطورت مع الزمن اثناء انتقالها من جيل الى جيل، فكل منهم اضاف عليها ما وجده متناسباً مع الحركات وطورها بشكل يتلاءم ايضا مع الحياة الاجتماعية نفسها.

وهي ليست بحاجة الى تمدين بل الى توضيب مسرحي فقط، فهي تقدم عادة في ساحات القرى وميادين الاحياء الشعبية الشيء الذي ربما لا يلائم متطلبات خشبة المسرح.

والمؤلم ان بعض المشرفين على هذه المؤسسات ينظر الى الفنون الشعبية نظرة السائح الى الكارت بوستال الملون فتجذبه الالوان الفاقعة البراقة والغرابة في التصميم، ولا يدري ان هذا ليس سوى تعبير قوي ومتين عن صميم الحياة الاجتماعية والمفاهيم الفلسفية النفسية القائم عليها. فنظرته اذن نظرة « من الخارج » الى السطح وليست « من الداخل » نحو الاعماق.

واغلب الفنانين من اعضاء هذه الفرق من الهواة الذين لا علاقة لهم بالحياة الشعبية الحقة وان وجدت هذه العلاقة كانت جانبية هامشية، لذا فان في حركاتهم الكثير من الافتعال والبرود والجمود الشيء الذي لا نراه قطعاً عند الفلاحين مثلا حينما يقومون برقصاتهم تلك لانها نابعة من اعماق انفسهم وتعبر عن شيء كمين في حياتهم يطلقونه ويفجرونه اثناء هذه الحفلات.

وانه لمن الافضل لمن يريد فعلا ان يطلع على هذه الفنون على حقيقتها وجوهرها ان يحضر حفلاتها في الارياف من ان يرى هذه النسخ المشوهة لها.

ولا زلت اذكر خريف عام ١٩٦٢ حفلات مهرجان القطن في حلب في سورية اذ حضرت فرق شعبية حقيقية لتقديم رقصاتها فكانت تبهر الانظار وتشاق القلوب وتتمتع بكل العناصر المسرحية الفنية التقنية لا ينقصها شيء. وكان من

بينها رقصة السيف ، قدمها لفيف من الفلاحين بثيابهم المزركشة وحركاتهم الرشيقة واجسامهم التي تنضح رجولة وقوة فشمرت حيالها بما لم اشعر به قط حيال تظاهرة مسرحية . وفوجئت عشية اليوم نفسه برؤية « الفرقة القومية الشعبية » تقدم الرقصة ذاتها في المسرح بشكل « ممدن » !! أفقدها كل حيويتها وبدت كجسد ميت .

وقد لاحظ هذه العيوب عدد من النقاد وكان اقتراحهم ان يوفد بعض الفنانين الى البلاد المتمرسة بهذه الفنون لدراستها ثم العودة لتأليف فرق من ابناء الشعب ممن عرفوا بمهارتهم وقدرتهم الابداعية في هذا المضمار ، ويكون دور الفنان حين عودته للعمل معهم دور المنظم وليس دور « الممدن » اذ عليه ان يخضع هو لهذا الفن لا ان يخضعه لذوقه الشخصي او لما تبقى في ذاكرته من معلومات حصل عليها خلال دراسته .

وعلى كل فقد استقبل الجمهور المغربي هذه الفرقة بحماسة شديدة وسرور بالغ واقبال اضطرت ادارة اغلب المسارح ان ترفض الكثيرين من المتفرجين لامتلاء القاعات ، مما يبهج النفس ويزيد من عزيمة الحكومات العربية على بذل اكبر الجهود لتبادل زيارات الفرق الفنية لان الفن خير رسول بين الشعوب .

« اليانصيب »

ساهم المسرح المغربي خلال انعقاد مؤتمر القمة العربي الثالث في الدار البيضاء بعدة حفلات مسرحية قدمتها فرقة الاذاعة والتلفزة وفرقة مسرح محمد الخامس وفرقة المسرح البلدي .

ونتناول منها بالبحث مسرحية « اليانصيب » تأليف أحمد الطيب العلج تقديم فرقة مسرح الخامس .

اليانصيب مسرحية هزلية قصيرة ذات فصل واحد تعرض قصة التاجر الفاسي (عمور) الذي اعتاد ان يعامل خادمه محمد القنوني (العلج) معاملة السيد للعبد ، ولكنه يكتشف ذات يوم ان القنوني قد اشترى ورقة يانصيب وان هذه ربحت اثني عشر مليونا ، فيهرع الى الخادم ويتودد اليه ويغدق عليه الالقاب والنعم بغية الحصول على الورقة والاحتفاظ بالمبلغ لنفسه خاصة وان القنوني لم يكن يعلم بربحه ويقع الخادم في دهشة عظيمة تكاد ان تصبح لوثة عقلية عندما يعرض عليه التاجر ان يزوجه ابنته ربيعة (فاطمة الركراكي) بعد ان كان يرفض ان يزوجه حتى الخادمات وبعد ان رفض تزويج ابنته الى ابن اخيه بسبب الفلاسه رغم انه يحبها وتحبه ، ولكن عندما يبحث الخادم عن الورقة لا يجدها ثم يتذكر انه اعطاها الى ابن اخ التاجر ، عندئذ ينقلب الموقف رأسا على عقب ، ويعود الخادم كما كان بينما يسرع السيد الى ابن اخيه فيلاطفه بل يزوجه ابنته في الحال ! وعندما يطالبه بورقة اليانصيب يكتشف انها لا تزال في حوزة الخادم الذي نسي انه وضعها في جيب صدريته الصغير ، فيثور التاجر الجشع ويأسف لانه زوج ابنته « الورقة الخاسرة » بينما يسترد الخادم حريته بحوزته لذلك المبلغ الكبير .

والواقع ان العلج استطاع من هذه الفكرة

البسيطة ان يخلق مسرحية متكاملة ناجحة ، فالحوار سلس انيق طبيعي ، رغم البلاغة والفصاحة التي لوحظت في كلام الخادم الامي البسيط. ورغم التكرار في بعض المواقف خاصة عندما يفتش الخادم عن الورقة فتارة يكاد يجدها وتارة اخرى لا يعثر عليها.

اما اللغة فهي الدارجة المغربية ما عدا التاجر الذي كان لوحده يتكلم باللهجة الفاسية ، دون اخيه او ابن اخيه او ابنته . وربما كان ذلك لان الممثل عمور هو فاسي ومن السهل عليه ان يتكلم بها بطلاقة بينما يتطلب ذلك من الممثلين الآخرين مراناً صعبا وطويلا . واختيار التاجر الفاسي عائد الى ان اهل فاس اشتهروا بالتجارة وبتلك الطباع .

واستغل المؤلف بمهارة بعض المواقف لينتقد الاقطاع وتحكم اصحاب رأس المال في الشعب (اي الخادم) وتحكمهم في مصيره ومقدراته والمتاجرة بالمبادىء والدين والكلمات الرنانة .. بل حتى ببناتهم اذ يبيعونهم كالسلع او العبيد في سوق النخاسة .

وفي بعض المواقف كنا نشتم رائحة ثورة مكبوتة لدى الخدم ضد السيد ، كل هذا في قالب مضحك موفق للغاية .

اما التمثيل فقد كان موفقاً على العموم واخص بالذكر حادي عمور الذي تقمص شخصية التاجر الفاسي بشكل رائع أخاذ يساعده على ذلك تكوينه الجسماني الضخم وحركاته العصبية المعبرة امام العلج في دور الخادم المسكين المغلوب على أمره ..

ولم تسمح الادوار ، لقصرها ، للآخرين باظهار براعتهم في فنهم وان كنا قد لمسناها بوضوح .

واستطاعت براعة التمثيل ان تغطي عيوب الاخراج والاغلب انه لم يكن ثمة مخرج نظراً لقصر التمثيلية واعتياد الممثلين على هذه الادوار.

مسرحية سلطان الطلبة

كان الصديقي مديراً فنياً لمسرح محمد الخامس في الرباط ، ثم صدر امر ملكي بتكليفه ادارة المسرح البلدي في الدار البيضاء بدلا عن السيد محمد عفيفي . فأسس الصديقي فرقة محترفة وهي فرقة المسرح البلدي ، واستهل نشاطها لهذا الموسم بمسرحية « سلطان الطلبة » .

كان مشروع تقديم هذه المسرحية يدور في رأس الصديقي منذ عامين تقريباً ويعود سبب اختيار موضوعها الى دوافع شتى . فهو من المؤمنين بان المسرح فن شعبي وجماهيري ، وان في المغرب اشكالاً مسرحية عديدة من الجدير بالفنانين الشباب ان يعودوا اليها ليأخذوا عنها اصول فن مسرحي حديث بحيث يصبح فنا مسرحياً وطنياً هاماً .

ومن جملة هذه الاشكال : سلطان الطلبة ، اذ ان مؤسس الدولة العلوية الحاكمة الآن في المغرب هو : مولاي الرشيد . ولقد استولى الرشيد على الحكم بانقلاب دبره ضد الطاغية اليهودي ابن مشعل . وكان هذا قد استولى على عدة مدن في المغرب واخضعها لحكمه ومن جملتها : فاس .

وزاد في طغيانه ففرض على اهل فاس ان يقدموا له كل عام فتاة بكراً ليتزوج بها . ثم قرر ذات مرة ان تكون هذه الفتاة « شريفية » اي من العائلة العلوية الشريفة بانتسابها الى علي بن ابي طالب ، والتي جاءت من الحجاز الى المغرب فاستوطنته وعرف رؤساؤها بعلمهم وحكمتهم وتقواهم . عندئذ بلغ السيل الزبى وبدأت بوادر ثورة ضد ابن مشعل تزعمها طلاب جامعة القرويين ومن بينهم مولاي الرشيد فتنكر هذا بزي الفتاة الشريفية ودخل على ابن مشعل فقتله وتولى الحكم فوحد المغرب واسس الدولة العلوية واعترافا بفضل طلبة القرويين سمح الرشيد لهم كل عام بانتخاب سلطان يتولى زمام الحكم عنه طيلة اسبوع تقام خلاله الحفلات والافراح ولا يرد السلطان الحقيقي اي رجاء او طلب للسلطان الزائف الذي يدخل فاس ويطوف بها بملابس السلطنة وعلى جواد الملك محفوفا بالحرس الملكي.

وكانت آخر حفلة من هذا النوع عام ١٩٥٧.

ولكن سرعان ما تدخلت عوامل شخصية وانتهازية مادية جعلت مطاليب سلطان الطلبة تخضع للرشوة والمزايدة العلنية حبا بتحقيق رغبات لا يفيدمنها سوى البعض . أخذ الصديقي الحادثة وقطعها الى مشاهد ثم تناولها احد المثقفين المغاربة عبد الصمد الكنفاوي فوضع حوارها .

والمسرحية مؤلفة من قسمين في خمس عشرة لوحة يدوم عرضها حوالي الساعتين والنصف .

القسم الاول يعرض الحادثة والقسم الثاني يعرض حفلات سلطان الطلبة . ولقد لوحظ التناقض الواقع بين القسم الاول الذي غلب عليه الطابع التاريخي الفكري المسرحي بينما كان القسم الثاني يعج بالحركات والرقصات وبكثير من المواقف الاعتباطية والنكات السهلة .

ولا بد ان نشير الى ان المسرحية قدمت شخصية مولاي الرشيد عاطلة من هالة قدسية وبعدته كثيرا عن اجواء الاحاسيس السياسية . ففي المشهد الذي يدخل فيه الرشيد على ابن مشعل في زي فتاة ، يبدو لنا وكأن الرشيد يقوم بلعبة او بدور لطيف مما يفعله الشباب الجامعيون في ايامنا ، وليس لكي يحقق اغتيالا مدروسا مع موافقة كبار شيوخ وفقهاء القرويين وزوايا المؤمنين . ثم يحمل الى العرش ويدفع اليه دفعا وكأنه لم يصمم بعد الاشتباه من ابن مشعل على أن يأخذ مكانه ويسير الجيوش لتمكين سلطانه . وهنا التساؤل عن السبب الخفي والحقيقي لرسم هذه الصورة الغريبة لمولاي الرشيد ؟

أراد الصديقي ان يحيي مسرحاً شعبيـاً مغربيا وان يساهم في خلق مسرحي مغربي فح ولكنه لم يفعل سوى ان يعيد على خشبة المسرح ما يرى في شوارع وساحات فاس اثناء احتفالات انتخاب سلطان الطلبة . فاذا كان الهدف هو « الخلق » فالمفروض ان يعتمد الفنان على روح هذا الفن الشعبي وهيكله فيصب في قالبه معطيات ومكتسبات الفن المسرحي العالمي ليطلع علينا بفن جديد أصيل كل الاصالة ، وهذا ما لم يفعله الصديقي الذي اكتفى باعادة حادث تاريخي ومهرجان شعبي ضمن مفهوم « المسرح التام » الأوروبي ، الذي يدافع عنه اليوم الكثيرون

من رجال المسرح المؤمنين بالمسرح الشعبي ، ولقد تأثر الصديقي بهذه الافكار اثناء دراسته المسرحية في باريس .

إلا أن المسرحية تحتوي عناصر فنية هامة . فهي تعود الى التاريخ القومي لتقدمه في اطار فني مسرحي حديث، وتأخذ عن الفنون الشعبية الكثير من الجيد الأصيل لتغني مواقفها ومشاهدها وهي مسرحية حسنة الحبك ، جيدة التقديم ومثل واقعي ممتاز لتعاون المخرج مع المؤلف لتخطي مشكلة النص بالنسبة للبلاد المتخلفة. وهذه المحاولة جديرة بالثناء والاطراء . خاصة وان الصديقي قرر الامتناع عن تقديم المسرحيات المقتبسة أو المترجمة ، لاعتقاده ان لافن قومي إلا بالابداع وان هذا لا يتحقق ، حاليــاً ، إلا بتضافر الجهود الفنية،وربما يظهر الكاتب الجيد.

والفرقة مؤلفة من فنانين شباب أغلبهم من الهواة ممن ان لهم عملا آخر الى جانب التمثيل وكان مستوى التمثيل يتراوح بين المتوسط والرديء . خاصة وان المسرحية لا تحتوي على دور بطل أو بطلة ، بل كانت الأدوار متعددة وموزعة على عدد كبير من الشخصيات مما اضطر المخرج الى تكليف كل ممثل القيام بدورين او ثلاثة مستعيناً بالماكياج والملابس لاخفاء ملامحهم كي لا يتعرف عليهم الجمهور كل مرة . ورغم ذلك فقد بدت بعض المشاهد هزيلة تحتاج الى عدداً كبير من الممثلين خاصة في المشاهد الأخيرة.

والعيب الكبير الملاحظ لدى معظم ممثلي وممثلات شمال افريقيا،هو رداءة النطق والالقاء بحيث يتعذر فهم الكلام ولو كان عربياً صرفاً .

والصديقي كمخرج ، كافلت ، يحب « المسرح التام » لذا فقد أدخل في المسرحية كل العناصر الفنية الممكنة من رقص وغناء (أناشيد شعبية، موشحات اندلسية ، أغاني دينية) الى جانب اسقاط الصور على شاشة بالفانوس السحري . على أنــه يختلف مع المخرجين الذين اشتهروا باستعمال هذه الطرائق كارفين بيسكاتور مثلا ، في انه يعتقد بأن المسرح عيد شعبي وعليه ان يتخذ مظاهر هذه الاعياد وان يكون مرتبطاً مباشرة بالحياة الاجتماعية الشعبية لذا فهو يعتمد لتقديم هذه المسرحية في الهواء الطلق كما سبق له ان فعل في مسرحية « معركة وادي المخازن » التي قدمها في ملعب الفتح في الرباط صيف عام ١٩٦٤ واستعمل فيها عدداً غفيراً من الممثلين .

اما الديكور والملابس فقد كانت من تصميم الصديق الصديقي ، وكانت انجح ما في المسرحية فبرغم العدد الكبير للمشاهد كانت هــذه تتغير بسرعة اذ ابتكر الصديق حيلة فقسم المنظر الى لوائح كبيرة تجري على قضبان حديدية وتتغير بسرعة فائقة . وامتاز تصميم المنــاظر بالبساطة والمحافظة على روح العصر . اما الملابس فقد كانت أمينة للملابس المعروفة في المغرب الغني بتراثه الحضاري ، دون ابتكار أو تجديد .

والمهم في المسرحية كعمل فني هو الجهــد الصادق لدفع عجلة المسرح المغربي نحو الفن بمعناه الحقيقي اي الابداع وذلك بالاستعانة بأكبر عدد ممكن من الفنانين ولتوحيد الجهود والتعرف من التاريخ والتراث القوميين .

* في العدد القادم تتمة رسالة الدكتور قطاية عن المسرح في الجزائر والمسرح في تونس .

- شتاء البحر اليابس والعالم من قبل ومن بعد .. لوليد اخلاصي
- الأدب المسرحي في سورية .. لابن ذريل
- مقالة في العقل والنفس والروح .. لندره اليازجي
- التفجر المدرسي .. ترجمة أحمد القادري والدكتور الياس فرح
- حكايا جوقة التماثيل .. لسعد الله ونوس

شتاء البحر اليابس.. العالم من قبل ومن بعد

صدر للأستاذ وليد اخلاصي رواية (شتاء البحر اليابس) وكتاب (العالم من قبل ومن بعد) صدرت الرواية ضمن (منشورات عويدات بيروت) ، وقال فيها الروائي السوري الدكتور عبد السلام العجيلي : « أنا واثق بأن الأصالة في التعبير وشاعرية الصور وتأثيرات الأسلوب والوقائع الغريبة ستحتل مكاناً كبيراً في نفس القارىء وتثير فيه الاعجاب بشتاء البحر اليابس » . أما الكتاب فقد صدر عن (الفن الحديث العالمي) بدمشق ، ويضم مسرحيتين : الأولى (طبول الاعدام العشرة والثانية (للتعة ٢١) .

الأدب المسرحي في سورية :

صدر عن (دار الفن الحديث العالمي) كتاب (الادب المسرحي في سورية) للأستاذ عدنان ابن ذريل . ويقع الكتاب في ١٦٧ صفحة ويتحدث عن المسرحية الغنائية السورية ، (أبو خليل القباني ، وتلاميذه) ، ثم النوادي الفنية وأثرها في ظاهرة المسرح ، ثم التجديد والمسرح الجديد في سورية (معروف الأرناؤوط وعبد الوهاب أبو السعود وفؤاد الخطيب وخليل الهنداوي وغيرهم) ، ثم الاتجاهات الحديثة من انسانية وذهنية وواقعية وغيرها ، يدلل عليها

بأمثلة مختلفة لمراد السباعي وحسيب كيالي ووليد مدفعي وعلي الجندي وسعد الله ونوس الخ ... والكتاب تاريخي أدبي ، التزم النهج التحليلي ، وفيه نفحات نقدية تظهر قيمة هذه النماذج والأمثلة التي يؤرخ لها ، ويسد فراغاً في مكتبتنا المسرحية.

مقالة في العقل والنفس والروح :

أصدرت دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر كتاب (مقالة في العقل والنفس والروح) للأستاذ ندره اليازجي ، يقع الكتاب في ١٢٢ صفحة وتسعة فصول ، وهو محاولة قائمة على التأمل وعلى الشعور ، محاولة للوصول الى أعماق الحقيقة الانسانية بالتأمل ودراسة النفس فقط ، تنتهي الى الايمان بوحدة الانسان « الذي يتصف بجوهر واحد رغم أنه مؤلف من روح ومادة. وعندما نتحدث عن الانسان لانذكر أنه منقسم بل نتحدث عن قدرته وطاقته . ان طاقته هي التفكير ، فهو اذن وليد التفاعل بين عنصرين : الروح والمادة » .

التفجر المدرسي :

كتاب L'explsion Scolaire للخبير الفرنسي في شؤون التربية لويس كروس Louis Cros ، قام بترجمته الى اللغة العربية تحت عنوان (التفجر المدرسي) الدكتور الياس فرح أستاذ التربية في جامعة دمشق والاستاذ أحمد القادري المفتش الاول للفلسفة ، نشرت الكتاب مجلة (المعلم العربي) يتناول الكتاب ثلاث مشاكل :

١ ـ زيادة السكان المستمرة التي تنعكس على تضخم عدد الطلاب في الصفوف .

٢ ـ التطور في البنية الاقتصادية الذي يتطلب ربطاً محكماً بين مناهج التعليم وطرقه وبين الاطارات الاقتصادية وحاجات التقدم الاقتصادي.

٣ ـ المفهوم الحديث لديموقراطية التعليم الذي يتضمن نظرة جديدة الى مشكلات التربية .

حكايا جوقة التماثيل

صدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي كتاب « حكايا جوقة التماثيل » للاستاذ سعدالله ونوس .

والكتاب مجموعة مسرحيات تضم أربعة اعمال قصيرة هي على التوالي «لعبة الدبابيس ، الجراد، جثة على الرصيف ، المقهى الزجاجي »والمسرحية الطويلة (حكايا جوقة التماثيل) ، التي تتدرب عليها الان فرقة المسرح القومي لتقدمها خلال الفترة الثانية من موسمها الحالي . وتتميز مسرحيات المؤلف بطابع التجريبي يحاول ان يطوع الشكل لمقتضيات المضمون ، مع الحرص على استنطاق شخصيات محلية ، وطرح المشاكل التي يعانيها الانسان في بلادنا .. وربما ظلت تكوينات الشكل هذه الحقيقة أحيانا ، الا ان الاتجاه العام انما هو نقيض البدهية ، ومحاولة جادة لبلوغ مرحلة فنية سمتها الوضوح ، وتجاوز الانفصال بين الشكل والمضمون ..

• افتتح الفريق محمد أمين الحافظ رئيس مجلس الرئاسة أسبوع العلم السادس بكلمة قال فيها للعلماء: « ان أمتكم تحتاج اليكم في حربها ضد التخلف والحرمان، تماماً كما تحتاج اليكم في حربها ضد الصهيونية والاستعمار، لأن العلم هو سلاح من أسلحة الحرب، ولأن عدونا يحاربنا بالعلم كما يحارب بالسلاح والعتاد. فاستمروا على ماعزمتم عليه وضاعفوا من جهدكم وحققوا ماتعقده عليكم أمتكم من آمال، فأنتم من خيرة بنيها وفي طليعة بناتها وفي صدر معركتها » :

قال الأستاذ سليمان الخش رئيس المجلس الأعلى للعلوم وزير الثقافة والارشاد القومي: « يسعدني أن أعلمكم بأن المجلس الاعلى للعلوم يقوم دوماً بتشجيع كل حركة علمية فردية كانت أم جماعية، وهو في أسبوعه العلمي السادس قد أتاح الفرصة لكثير من المشتغلين في البحث العلمي كي يسهموا في البحوث المقدمة لنيل جوائزه التشجيعية التي استحقها أربعة من خيرة علماء هذا البلد. » قدم السيد الوزير الجوائز الى الدكتور أدهم السمان الفائز بجائزة الفيزياء النووية، الدكتور عبد الحليم منصور الفائز بجائزة الكيمياء، الدكتور عارف الملهايني الفائز بجائزة العلوم الهندسية، حفظت جائزة الفيزياء للدكتور طاهر تربدار حتى عودته من مهمته العلمية، ألقى عدد من العلماء العرب والأجانب، في أسبوع العلم، محاضرات في العلوم الأساسية والطبية والهندسية والزراعية والحيوية.

أقامت فرقة أمية القومية للفنون الشعبية حفلة سمر للسادة العلماء عرض فيها فيلم (سورية) وهو من انتاج المؤسسة العامة للسينما . اختتم الأسبوع باحياء ذكرى مرور ألف عام على ولادة العالم العربي الحسن بن الهيثم ، بمحاضرات عن بحوثه في الطب والفيزياء والرياضيات ألقيت على مدرج بجامعة دمشق الكبير فألقى الدكتور عزة مريدن رئيس لجنة القرون محاضرة الحسن بن الهيثم العالم الطبيب وألقى الدكتور أحمد شوكة الشطي الاستاذ في كلية الطب محاضرة الحسن بن الهيثم العالم الفيزيائي وألقى الاستاذ صلاح الحريطلي المدرس في التعليم الثانوي محاضرة الحسن بن الهيثم العالم الرياضي .

وفي جلسات العلوم الأساسية على مدرج الحسن بن الهيثم ، قدم الدكتور مرسيل دافر الاستاذ المساعد في كلية الهندسة في جامعة حلب بحثاً عن الاحساسات اللونية والمؤثرات الضوئية الوحيدة اللون على طول الطيف ، وتحدث الدكتور حسن كبيش المدرس في كلية العلوم في جامعة دمشق عن انتشار الامواج النيوترونية ، وقدم الدكتور راتب محلجي الاستاذ في كلية الصيدلة في جامعة دمشق بحثاً عن الملونات الآزوتية المستعملة في تكوين الأغذية والطرق الكيمائية الحديثة لكشفها والمحاذير والاخطار الصحية الناجمة عن استعمالها . والدكتور هاني خليل بطيخ المدرس في كلية العلوم بجامعة دمشق عن تأثير شوارد المعادن النادرة في تبدلات البنية في جنين الطيور مع تطبيق لطريقة التصوير الذاتي .

وفي جلسات العلوم الطبية في يوم كلية الطب شرح الدكتور كنعان الجابي الاستاذ في كلية الطب بجامعة دمشق دورنا في مكافحة السرطان . وتحدث الدكتور موفق سفا امبتي الاستاذ المساعد في كلية الطب في جامعة دمشق عن تشخيص معالجة سرطان الثدي في سورية . وعرض الدكتور فرزت اتناوي رئيس قسم الجراحة البولية في مشفى دمشق تجاربنا في معالجة سرطانات المثانة . وتحدث الدكتور شمس الدين الجندي نقيب أطباء دمشق عن الالام وجراحته والدكتور سري رستم المدرس في كلية الطب بجامعة دمشق عن الفتوق الاربية عند الاطفال . والدكتور وجيه المسلم المدرس في كلية الطب بجامعة دمشق عن التخدير الواعي . والاستاذ بول مبليه الاستاذ في كلية الطب بباريس عن تصلب الشرايين ودراسة عن أوجاع الكلي المتزايدة . وقدم الدكتور إدوار لحام الاستاذ في كلية الطب بجامعة القديس يوسف ببيروت بحثاً عن الوسائل التشخيصية لدراسة المقم عند الذكور استند فيه الى اختباراته الخاصة . وقدم الدكتور حنين سياج الاستاذ في كلية الطب بجامعة دمشق بحثاً عن الافرنجي وتظاهراته الحالية في سورية وقدم الدكتور عدنان صبري الاستاذ في كلية طب الاسنان بجامعة دمشق بحثاً عن آلات الحفر المنفية الحديثة في طب الاسنان . وقدم الدكتور عبد الله عيسى رئيس شعبة جراحة الصدر في

مشفى دمشق بحثاً عن تنظير القصبات واستطباباته وقدم الدكتور فيصل الصباغ الاستاذ في كلية الطب بجامعة دمشق بحثاً عن أمدام الدماغ في سورية . وقدم الدكتور محمود سعدة وكيل كلية الطب بجامعة دمشق بحثاً عن التقيحات الرئوية الزحارية ، وقدم الدكتور منذر الدقاق رئيس شعبة الامراض الباطنية في مشفى دمشق بحثاً عن المعالجة الطبية لانسداد البواب في المعدة . وقدم الدكتور مدني الخيمي الاستاذ في كلية الطب في جامعة دمشق بحثاً عن فرط التوتر الشرياني في سورية .

وقدم الدكتور راتب كحالة الاستاذ المساعد في كلية الطب بجامعة دمشق بحثاً عن نسبة حدوث الادواء اللمفية في سورية . وقدم الدكتور نجيب سورة الطبيب في مستشفى امراض العيون بحثاً عن الزرق (غلوكوم) . وقدم الدكتور سهيل بدورة الاستاذ في كلية الطب بجامعة دمشق بحثاً عن الخلل الاغتذائي في سورية . وقدم الدكتور رشاد العنبري المدرس في كلية الطب بجامعة دمشق والدكتور بديع حمودة رئيس مصرف الدم والمخابر بمشفى دمشق بحثاً عن فاقات الدم الانحلالية عند المولود الحديث .

وقدم الدكتور ادوار حواويني الاخصائي بأمراض الاطفال بحثاً عن الأعراض السريرية لالتهاب العضلة القلبية عند الرضع والاطفال الذين لم يبلغوا الثالثة من العمر .

وفي كليـة الهندسة عقدت جلسات العلوم الهندسية ، فقدم فيها الاستاذ ج . سوفاج دوسان مارك الاستاذ في المدرسة القومية العليا للقوى المائية وفن الكهارب في غرونوبل دراسة عن الجريان الجوفي بالاستناد الى النماذج . وقدم الاستاذ رعون كومولبه استاذ ميكانيك السيالات في الصوربون بحثاً عن التغيرات النوعية في عرض الصفات المميزة للآلات المنفية ودراسة عن التحليل الفراغي والتشابه . وقدم الدكتور جان خوري رئيس مكتب المياه الجوفية في وزارة الاشغال العامة بحثاً عن مصادر الثروة المائيـة وتنظيم استغلالها في حوض دمشق . وقدم الدكتور احمد يوسف الحسن عميد كلية الهندسة بجامعة حلب بحثاً عن التطور الحديث لمناهج التعليم الهندسي في العالم .

وقدم المهندس ميشيل خوري مدير الابحاث الجيولوجية والتعدينية في وزارة الصناعة بحثاً عن النضار في الجمهورية العربيـة السورية . وقدم الدكتور محمد عارف المهايني الاستاذ المساعد في كلية الهندسة بجامعة كانساس دراسة عن سلوك بلاطة قشرية أسطوانية خفيفة الانحناء بعد التحنيب . وقدم المهندس في مؤسسة معامل الدفاع مصطفى اللجمي دراسة عن محرك وينكل . وقدم المهندس عبد النعم علاف مدير البرامج وتتبع التنفيذ بوزارة التخطيط بحثـاً عن القدرة الجيوحرارية وامكاناتها في اعمال الاستثمار المنجمي .

وقدم مهندس المنشآت النهرية والمحطات الكهرمائية عبد الرزاق الحسين دراسة لمدرج كهرمائي في موقعي الحصرة والطبقة في مشروع الفرات .

وعقدت جلسات العلوم الزراعية والبيولوجية

في وزارة الزراعة . فتحدث المهندس الزراعي سداد قطنا مدير المركز الرئيسي للبحوث الزراعية في وزارة الزراعة عن اليات الشتوي لدودة القطن الشوكية واهميتها الاقتصادية في سورية . والدكتور شفيق قعوار الاستاذ في معهد الزراعة بالجامعة الامريكية ببيروت عن استعمال الكروماتوغرافيا الغازية لتحليل بقايا مبيدات الحشرات . والدكتور عبد الرحمن الصغير الاستاذ في معهد الزراعة بالجامعة الاميركية ببيروت عن مكافحة الاعشاب الضارة في زراعة البصل . والدكتور مرتضى المالكي الاستاذ في معهد الزراعة بالجامعة الامريكية ببيروت عن التركيب الكيمائي لأنواع مختلفة من عصير البرتقال والتبدلات التي تطرأ عليه تبعاً للتعليب والحفظ في درجة حرارة الغرفة الطبيعية . والدكتور نزار حمد الدرس في كلية الزراعة بجامعة دمشق فيزيائية وفيزيوكيميائية لمعقدات البكتين مع الفليسويدات الاحادية . والمهندس الزراعي سليمان المصري المتدرب في كلية الزراعة بجامعة دمشق عن أنواع الدقيق والخبز المستهلك في سورية . والدكتور عادل بازرباشي الاستاذ المساعد في كلية الزراعة بجامعة دمشق عن انتخاب سلالات متنوعة من الشعير السوري . والمهندس الزراعي فارس الخوري رئيس شعبة الدواجن بوزارة الزراعة عن الاغنام العواس باعتبارها ثروة قومية . والمهندس الزراعي محمد فؤاد الرباط المعيد في كلية الزراعة بجامعة دمشق عن النظائر المشعة وتطبيقاتها العملية في الابحاث الزراعية والحيوية .

والقيت في اسبوع العلم محاضرات ثقافية حسب الترتيب التالي :

١ — النواحي الاقتصادية لمشاريع تحلية المياه — المهندس نزار المير رئيس دائرة الدراسات والتصميم في مؤسسة المشاريع الكبرى .

٢ — احتشاء القلب ، الجلطة — الدكتور مدني الخيمي .

٣ — تصور ترتيب متعدد الاهداف لحوض كبير — الاستاذ سوفاج دوسان مارك .

٤ — الريف بين الاقطاع والنظام الاشتراكي — العقيد عبد الكريم الجندي وزير الاصلاح الزراعي .

المهرجان السينمائي والمائدة المستديرة :

مثل سورية في المهرجان السينمائي الدولي الخامس في بيروت كل من ناظم الحافظ عن وزارة الثقافة ، ومحمد شاهين عن مؤسسة السينما .

وكان الوفد السوري الى مؤتمر المائدة المستديرة مؤلفاً من موفق الخاني مدير عام مؤسسة السينما ، والدكتور نجيب حداد ، والدكتور ابراهيم الكيلاني . وحضر فؤاد الشايب عن (المعرفة) بعض أيام المهرجان والمائدة .

تكلم الوفد السوري في المهرجان الى ممثلي الدول والمسؤولين في ضرورة منع (الافلام الدعائية) من أي نوع كانت ، من العرض في المهرجانات الدولية استغلالاً لهذه المناسبة . ولعل منظمة اليونسكو تتلافى الامر في مهرجانات قادمة .

● افتتح الاستاذ سليمان الخش وزير الثقافة والارشاد القومي في مركز الفنون التشكيلية بحماه معرض انتاج طلاب مراكز الفنون التشكيلية في سورية . ثم ترأس السيد الوزير مؤتمر الرؤساء هذه المراكز .

● افتتحت وزارة الثقافة معرض فن الحفر الـوفيتي لمجموعة من الفنانين الشباب في صالة الفن الحديث . كما افتتحت معرض فن التصوير البولوني المعاصر في قاعة المتحف الوطني بدمشق . بعد افتتاح هذا المعرض ، دارت ندوة فنية حول

الفن البولوني خلال السنوات العشرين الاخيرة .

● ألقى الاستاذ شاكر مصطفى محاضرة موضوعها (نحو فكر ثوري) في المركز الثقافي العربي بدمشق.

● أقيمت ندوة شعرية في المركز الثقافي العربي بدمشق ، اشترك فيها كل من الشعراء سعاد وقاف وناديا نصار وصالح عضيمة وابن الشاطئ. حضر الندوة جمهور غفير من الادباء والشعراء يتقدمهم الدكتور يوسف شقرا الامين العام لوزارة الثقافة .

● ألقى الاستاذ نذرة اليازجي محاضرة موضوعها (العلاقة بين العلم والفلسفة) ، في المركز الثقافي العربي بدمشق .

● ألقى الاستاذ أحمد القتيبي محاضرة موضوعها (تجديد التاريخ العربي) في النادي العربي .

● ألقى الاستاذ طارق الشريف محاضرة حول (الفن التجريدي ماله وما عليه) ، في حلقة التكامل الاجتماعي والفنون .

● ألقى الاستاذ حسام الخطيب محاضرة (الطريق الى بئر السبع وندوة الثورة الفلسطينية) في كل من المركز الثقافي العربي باللاذقية والمركز الثقافي العربي بطرطوس .

● عقدت في المركز الثقافي العربي بدمشق ندوة اشترك فيها السيدة ألفة الادلبي بقصة (حمام السوق) والأستاذ نجاة قصاب حسن ببحث في (الادب الشعبي) .

أمين الريحاني الصغير

في العدد الماضي من المعرفة ، حيث أورد المحرر بعض تفاصيل مهرجان الريحاني في بيروت، فات المحرر ان يذكر بأن كلمة آل صاحب الذكرى ، القاها في ختام حفلة التكريم ، الاديب الشاب السيد امين الريحاني ابن شقيق الريحاني الكبير . وكانت كلمة امين ، ابن الاستاذ البرت كلمة الشاب الملهم بروح عمه ، فقيد العروبة والأدب العربي.

حبيب كحالة

نعي في دمشق، في الشهر الأخير من عام ١٩٦٥ الكاتب ، والصحافي، ورجل النضال الوطني ، الأستاذ حبيب كحالة ، صاحب مجلة (المضحك المبكي)، فتوارى وجه مشرق من الوجوه الدمشقية التي لا تنسى . وذكر الجميع له خدمات المواطن والنائب والصحافي الجريء الذي ابدع بالمضحك المبكي ، جواً خاصاً من الأدب والنقد والسياسة ، تتفرد به خلال نصف قرن . رحمه الله رحمة واسعة .

ماري عجمي

ونعيت في دمشق ، خلال الأسبوع الأخير من عام ١٩٦٥ اديبة الشام ، ورائدة الأدب الجديد ، في الوطن العربي ، ماري عجمي ، وكانت المرحومة قد اقعدها المرض منذ عشرة اعوام ، فاعتزلت ، وتركت القلم الذي كانت سيدة ميدانه نثراً وشعراً طوال الربع الاول من هذا القرن ، طيب الله ثراها .

يقدمها
غازي
الخالدي

تحية الى أدهم اسماعيل :

قبل عامين ، وفي (٢٥) كانون الاول ، وبعد نضال استمر حوالي نصف قرن ، مضى فنان عربي الى لقاء ربه بعد أن ملأ رحاب الفن في هذا البلد بالشيء الكثير .. الكثير من قلبه ، وروحه ، وفكره ، واحساسه .

عاش أدهم اسماعيل في محبة الناس ، والارض واللون ، والخط .. عمل طوال حياته صامتاً ، هادئاً ، ينصت فقط الى انات القلوب المعذبة ، والى لهاث الحس الصادق ، والى همسات الطبيعة الغناء ، والى اصداء الفن الخالد .

لم يقل أدهم كل ماعنده قبــــل أن يموت ، فالتجارب التي قدمها طوال المدة التي عاشها بيننا كانت تبشر بأشياء كثيرة كان سيقدمها في يوم من الأيام .

ومذكراته ، وقصاصاته ، ويوميـــاته ، ودراساته الأولية ، كلها كانت تؤكد ولادة تجارب جديدة تغني الفن العربي وتؤكد اصالته .

بشر بتجربة الخط العربي ، والحرف العربي ، واستعماله في مجال التشكيل الفني وبشر بفن الملصقات ، وبشر بفن الأرابيسك المتطور ، ولكنه لم يكمل التجربة .

قال رأيه في مجموعة كبيرة من اللوحات ، استطاع محبوه أن يجمعوا ثلاثمائة لوحة فقط عرضت في معرضه الاول الذي لم يحضر حفلة افتتـــاحه .

. كم نحن بحاجة الى أمثاله ، وبوادر حركة فنية حقيقية تأخذ أبعادها في بلادنا .. كم نحن بحاجة الى وفائه للفن ، واخلاصه للعمل ، وايمانه بالتجربة الجادة ، وتواضعه ، ومثابرته ، وصدقه .

تحية له في مثواه ، ولكن التحية العاطفية وحدها لا تكفي ..

ماذا فعلنا من أجله ، أين القاعة التي يمكن ان تخصص لاعماله في متحفنا الوطني الحديث ، على غرار ما يجري في معظم دول العالم التي تحترم الفنان وتحترم انتاجه ، وتعتبره وثيقة هامة من وثائق تطور الحركة الفنية في البلد ، والا سيكون مصير لوحاته تماماً مثل مصير لوحات غيره يتوزعها الاصدقاء والاهل ، وتغوت اللوحات صامتة حزينة مصلوبة على جدران الصالونات .. أو في مستودعات الوزارات .

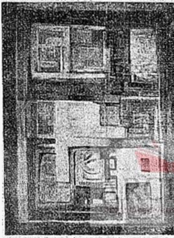
ان اعمال ادم اسماعيل مهما اختلف النقاد في تقييمها فانها ولا شك تبقى تجربة خاصة به ، وجزءاً هاماً من تراثنا الفني المعاصر لابد من الحفاظ عليها ، والاستفادة منها .

ونحن عندما نحفظ اعماله لا نكرمه هو ، وانما نكرم انفسنا ، ونكرم الفن والفنانين في هذا البلد .

حتى بعد الموت الا يأخذ الفنان العربي في بلدنا مكانه الحقيقي ..؟

معرض الخريف في بيروت :

أبرز ظاهرة في معرض خريف بيروت الذي يقام حالياً في متحف نقولا ابراهيم سرسق في بيروت ان (٥٦٠) عملا فنيـاً (٩٢) فناناً من مثالين ومصورين قدم الى لجنة العرض ، رفض من هذه الاعمال المقدمة (٤٨٤) عملا فنياً لستين فنانا !



موضوع شرقي — لمنير نجم

من هذه الخطة المتبعة في انتقاء اللوحات والاعمال الفنية يمكن ان نحكم على مستوى المعرض بشكل مبدئي وهذا بالتالي اكبر دليل على ان « الكم » ليس مهماً من اجل اقامة معرض عام ، وانمـا « الكيف » هو الاساس في انجاح اي معرض ، خاصة وان اللجنة المحكمة في هذا المعرض مؤلفة من فنانين لبنانيين وفنانين عالميين بحيث كان الحياد التام في التقييم هو الاساس الاول ، والعمل الجيد فقط هو الذي يعرض ، دون اي اعتبارات خاصة

او مجاملات شخصية ، في مثل هذه الحال يمكن لمعرض الخريف اللبناني ان يقف امام اي معرض عالمي دون اي حرج .

اما الاعمال المعروضة فقد وزعت على قاعات وشملت اكثر من خامة : كالحجر ، والجص ، والحديد ، والخشب ، والخزف ، والرخام ، والالوان المائية ، والالوان الزيتية .

الطابع العام لهذا المعرض هو التجديد ، والتجديد هنا لايقصد به مجرد التجديد ، انما هو البحث عن قيم تشكيلية جديدة بخامات متعددة كما رأينا .

وأكثر الاعمال المعروضة وخاصة الفائزة بالجوائز تمتاز برؤية شخصية ، وطابع فردي يوضح تجربة الفنان في بحثه عن نفسه بصدق واصرار ، فكل فنان ذهب الى خامته التي اختارها وبدأ يبحث من خلالها عن علاقات تشكيلية سواء في الكتلة أو في السطح .. فذاتية الفنان هنا ظاهرة لايمكن تجاهلها ، والحرية التي يمارس بها هذه الذاتية واضحة لكل ذى عينين ، لذلك جاءت التجارب متنوعة ، وجديدة ، وذات شخصية خاصة بكل فنان .

اما عملية « الوحي » تلك الاسطورة التي كان يتغنى بها الشعراء الاقدمون فلم تأت في هذا المعرض من احلام سندبية أو من قصائد شعرية أو من حوريات الجنة ، وانما جاءت من ادوات وأشكال ومعطيات متوفرة أمامنا ونراها كل يوم . فالعمارة الحديثة صارت مصدر وحي للفنان التشكيلي ، وبالعكس العمارة الحديثة استوحت اشكالها وتنوعها من المفهوم الحديث للفن التشكيلي ، وبذلك التقت العمارة بالتشكيل بشكل عفوي وتلقائي كما حدث عند الفنانين عارف ريس (الجائزة الاولى في النحت) وسلوى روضه (الجائزة الثانية بالنحت) فقد استفادا من علاقة الكتلة بالفراغ الى حد بعيد كما ان عارف ريس اضاف الى عمله خشونة الملمس فجاء نصبه الطيني معبراً جداً ، خاصة وان النسب التي لجأ اليها نسب غريبة ، وذات رشاقة خاصة ، وقد عمد ايضاً الى التضاد في الكتلة الجوفاء والصماء ، مسخراً الظل والنور لابراز جميع التجاويف في الشكل .

وهو كما يبدو رسام قبل ان يكون نحاتاً ،



نحت حديث — عارف الريس

وهذا واضح من لوحته « تكريم لبساط الريح » حيث نال الجائزة الاولى ايضاً بالرسم ، وقد بسط في الساحات اللونية الى ابعد الحدود .

● اما حسين ماضي (الجائزة الثالثة الرسم) فقد قدم تجربة جديدة للحرف الكوفي المستوحى من الخط العربي الكلاسيكي القديم ، وهكذا بدأت تتبلور فكرة الاستفادة من الامكانية الشكلية للحرف والكلمة العربية في اكثر من بلد عربي ، في سورية ومصر والعراق ولبنان والسودان ، الا أن المعالجة بالنسبة لمنير لم تكن مترابطة من حيث علاقة الحرف بالحرف ، وانما ربطها بالارضية اللونية ، تاركاً الاحرف تسبح في مساحة لونية حرة على طريقة الكتابة الصينية .

● اما الفائز بالجائزة الثانية الرسم فهو ابلي كنعان ، فقد قدم مجموعة الوان مختلطة ، ومتداخلة على طريقة الوحشيين ، دون التركيز على شكل معين ، تاركاً الحركة للون وحده ، ومعطياً اياه كل طاقته .

بقيت بعض الاسماء التي فازت بدرجة الشرف وهم « ناديا صيقلي » اعتمدت على خشونة الملمس مع لون حار متداخل ، وارضية غنية بالاحساس المتغير من مساحة الى اخرى .

« منير نجم » قدم مجموعة مربعات متداخلة على طريقة الحلزون ، مع الايهام بالبعد اللوني ، واللوحة متشابكة على طريق العمارة الحديثة .

هذا وقد اشترك في هذا المعرض عدد كبير من الفنانين المعروفين في لبنان امثال عادل الصغير (لوحة مائية) وميشال بصبوص (نحت حجر) ، والفرد بصبوص (نحت حجر) ، وناديا خالدي (الكرسي) ، ومحمد صقر (شمس الهاوية) ونال مرتبة فخرية .

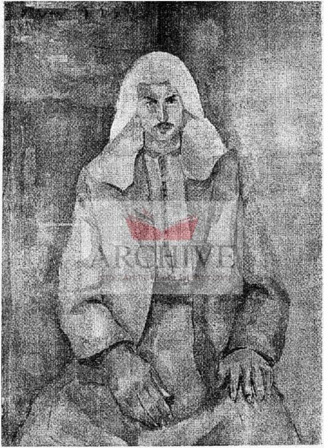
والمعرض بشكل عام ، معرض جيد وله مستوى واضح ، ويمثل نشاط الفنانين اللبنانيين المتازين .

معرض المراكز الفنية في حماه

مهما قيل في هذا المعرض ، الا انه بادرة طيبة جمعت نشاطات المراكز الفنية في سورية (اللاذقية حلب ، حماه ، حمص دمشق) وقدم كل مركز اعمال طلابه الذين عملوا في مجال الرسم والنحت والحفر خلال ستة اشهر .

المهم في هذه المعارض انها تعرف الطلاب على اعمال زملائهم في كافة المحافظات ، وتكشف لاساتذة المراكز والقائمين عليها النقاط التي يجب تداركها في الدورات التعليمية المقبلة .

فمثلا مركز دمشق اهتم بالناحية الواقعية من خلال دراسة نماذج بشرية ومركز حمص اهتم بالمناظر الطبيعية ، والطبيعة الصامتة باسلوب مبتكر ومعالجة جديدة . اما مركز حماه فقد جنح الى التجديد ، حتى وصلت بعض الاعمال الى ابواب المدرسة التجريدية ، ومركز حلب يعيش طلابه في تخبط حيث ان المركز لم ينتظم بعد ، فالتجارب والاعمال التي قدمت متنوعة وغير متكاملة ، وبقي



فلاح — وليد عزت

(مركز دمشق)

مركز اللاذقية الذي يعتبر مركزا جديدا ناشئا ، وتجربته لاتزال في اول الطريق .

بقي سؤال : هل من الضروري ان يكون التوجيه الفني واحدا بين جميع المراكز ؟ أم يترك الامر للاساتذة المدرسين حيث يمارسون حرياتهم المطلقة في التعليم ...؟

اتصور ان الحرية هي مفتاح الفن الحقيقي .



رأس طفل ـ لشكري حوا
(مركز حماه)

معرض الحفر السوفييتي المعاصر

فن الحفر يعتمد على اكثر من خامة صناعية ، كالزنك ، والجلد ، والزجاج ، والخشب ، والليتوليوم ، وهوفي جوهره خبرة تقنية بتصرف بمعطيات هذه الخامات بشكل يخدم التعبير الذي يريده ، دون ان يترك الصنعة تطغى على الاحساس

وما ان يستغرق الفنان في البحث وراء طرافة الصنعة . يضيع منه الاحساس وتبقى العملية بعيدة عن الفن الصحيح . والفنانون السوفييت الشباب الذين اجتمعوا في صالة الفن الحديث بدمشق قدموا تجاربهم الخاصة من خلال وجهات نظر مختلفة ، فتارة نرى اعمالا فيها رأي شخصي واسلوب خاص وتفكير جديد ، وتارة اخرى نرى لوحات عليها طابع الاعلان السياحي وتفتقد الى الاحساس الخاص بالتجربة الشخصية ، وتارة اخرى نرى لوحات تعتمد على مفهوم اللقطة الفوتوغرافية والنظرة المغرقة في الواقعية .

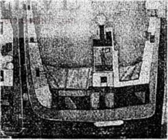
اما الالوان المستعملة فاكثرها صريح أو صارخ ، وغير مركب ، خاصة في معالجة مواضيع الطبيعة الصامتة . اما المناظر الطبيعية ، فاغلبها عن الغابات والثلوج ، لعل اجملها المنظر الثلجي الابيض الذي استغل فيه الفنان لون ارضية الورقة لتأكيد صفاء لون الثلج على الجبل الاشم .

وثمة تجربة جديرة بالاحترام وهي لوحة « ابريقان ورمان » استعمل فيها الفنان تكوينا مترابطا بين الارضية وبين الابريقين المتضادين في اللون ، واحد ابيض والآخر اسود ، وفي أرض اللوحة وضع ثلاث رمانات بلون قرمزي صريح ثم أخذ من الارضية اللون الرمادي واعطاه للاجاص فجاءت اللوحة موزونة ومترابطة ، نصفها رمادي ونصفها ابيض وموزعة على هاتين المساحتين

الابريهين والاجاص والرمان . . اما تحليله للاشكال فقد جاء تحليلا زخرفيا اعتمد على الخط المتكسر .

هذه اللوحة . ومثلها عدد قليل جدا في المعرض عليه طابع التجربة الشخصية ، والمحاولة الفردية لخلق ألوان واشكال وعلاقات جديدة .

ان الفنان في الاتحاد السوفياتي يعيش في صراع دائم بين احساسه ورأيه الشخصي وبين ماعليه عليه النظام القائم . . لذلك لا نكاد نرى محاولة جديدة في الفن سواء من ناحية الموضوع اومن ناحية المعالجة الا وأمامها تيارات من الواقعية الفوتوغرافية كأنما يريدون التأكيد أن مثل هذه التجارب الجديدة هي من باب المحاولات الشخصية جداً ، وهي لاتمثل فن الاتحاد السوفيتي في شكل من الأشكال .



منظر طبيعي – لنولوشيلسكي

المعرض البولوني المعاصر :

قسم سروكوفسكي الاستاذ البولوني الزخرفة في كلية فنون دمشق في ندوة اقيمت في المتحف الوطني مع المعرض الاعمال الفنية البولونية المعروضة في متحف دمشق الى خمسة اتجاهات : الواقعية الاشتراكية ، فنانو مابعد التأثيرية ، التعبيريون ، التجريديون ، الفن الفولكلوري .

وهذا التصنيف ينطبق الى حد بعيد على الاعمال المعروضة ، ويسهل الى حد كبير رؤيتنا لها . الا أن الامر الهام الذي تجدر الاشارة اليه هو أن المعرض ورد الينا من بلد اشتراكي ، والاعمال التي قدمت تمثل شطحات واسعة نحو الفن الحديث ، فكيف يمكن أن نفسر الاشتراكية في الفن من خلال تجربة فنية حديثة لبلد اشتراكي ؟

ان وجود عدة اتجاهات فنية تعترف بها الدولة البولونية وترسلها لتمثل جانباً من جوانب نشاط الفكر الانساني لديها ، هذه الظاهرة تفسر تفسيراً واحداً لاغير وهو :

— الى اي مدى سمح للفنان البولوني ان يمارس حريته الخاصة في تناول المواضيع ، وفي الحلول التشكيلية التي يطرحها من وجهة نظره هو ؟

هذا هو المكسب الحقيقي الذي استفادت به الدولة ، فاغنت جانباً هاماً من جوانب حضارتها الانسانية وكسبت اكثر من خبرة ، واكثر من تجربة ، واكثر من فنان ، وبالتالي فتحت امام الفنانين افاقاً جديدة ليبحثوا فيها بكل حرية عن انفسهم ، وفي بحثهم عن انفسهم انما يبحثون عن وطنهم ، وعن ارضهم ، وعن تراث امتهم ، لانهم هم انفسهم جزء من هذا التراث ، وهذا الوطن .. وهذه الارض .



الفتاة والتفاح — ليتمون نيشووفسكي

من المعرض البولوني

ولا بد من الوقوف عند بعض الاعمال الفنية التي لها صفة خاصة :

● لوحة « الافق » لتادبوش دومينيك ، لوحة مرعبة بكل مافي هذه الكلمة من معنى ، فقد استخدم الواناً حزينة بين الاسود الفاحم والازرق البروسي ، لسق عليها حجراً طبيعياً بحجم عين الانسان ، في مكان مشحون باللون الداكن ، اعطتنا تأثيراً مخيفاً ، تماماً كنوع من انواع الحيوانات الاسطورية ذي العين الواحدة.

● لوحة (الاخوات) لهلينا كرايفسكا تمثل مرحلة متطورة ايضاً من المدرسة التأثيرية الفرنسية ، بلون خريفي فيه لمسات ماهرة ، ومداعبات شاعرية للاشكال ، والفرق بين هذه اللوحة ولوحات التأثيريين الفرنسيين — التي من هذا النوع — ان الشكل هنا متماسك وفيه نزعة تعبيرية وليست تسجيلية بحتة.

● لوحة « الخيالة الفتم » لاوجينيوش ماركوفسكي تمثل مرحلة متطورة ايضاً من المدرسة التعبيرية ، على طريقة رسوم الاطفال ، حيث عمد الى تحطيم الشكل تحطيما كاملاً ، وابدع اشكالاً جديدة فيها مبالغات طريفة وصلت احياناً الى حد الكاريكاتير .

وهي تبدو لاول وهلة انها عفوية ، ولكنها بالفعل مدروسة دراسة واعية وفيها احساس طفلي بدائي عفوي . والتعبير في اعمال هذا الفنان يعتمد على حركة الشكل واللون ، ولايعتمد على التعبير اللحظي الموقوت المعروف في الفن السينمائي .

● لوحة « العري الراقد » لتيودور بنسيووفسكي : عمل فيه اسلوب الهواة ، حصر الشكل العاري بخط كالسلك المعدني ليؤكده بطريقة مدرسية بحتة . اما الوانه فهي ذات طابع شخصي متميز ، ومرتبط بالواقعية الى أبعد الحدود .

● اما لوحات « الفريد ليفتا » فهي تجريدية ذات طابع خاص ، يعتمد فيها على استعمال آلة حادة كالشفرة مثلاً يمررها فوق سطح اللوحة المفروشة بالالوان ، ويحركها بسرعة في جميع الاتجاهات لتعطي اشكالا طريفة تخدمها الصدفة في كثير من الاحيان .

وتبقى العملية مجرد تكرار للحركة في كل اللوحات التي قدمها .

● اما تجربة رايموند زيمسكي التجريدية فتختلف تماماً عن زميله الفريد ، لانها متنوعة واكثر غنى ، وفيها بحث تشكيلي جاد في كل جزء من اللوحة ، وقد اهتم بالعجينة اللونية ليغني الملمس السطحي في اللوحة ، ويستفيد من تأثير النور عليها ، ولوحاته ملونة ، وكل لوحة لها جوها الخاص — وجميعها تلتقي بالاسلوب الخاص بالفنان .

ان المعرض قد لايمثل تجربة الفن الاشتراكي في بولونيا تمام التمثيل ، ولكنه ليؤكد بما لا مجال للشك فيه تجربة الحرية الفردية لدى الفنان البولوني المعاصر .

طرطوف

تأليف: موليير
اخراج : رفيق الصبان

عرض وتحليل سعد الله ونوس

هنالك بعض النماذج المسرحية التي تملك من الغنى والشمول مايجعل الزمن قاصراً عن نسخها ، أومحو « معاصرتها » المستمرة للواقع الانساني بكل مايتعاقب عليه من تغيرات وتبدلات جذرية أو عرضية .

وهذه النماذج انما تستمد ديمومتها من عمق محتواها الانساني ، ومن ارتباطها بالمشاكل الأساسية التي تجرجرها عبر تاريخها كالدمامل المزمنة تتغير في أعراضها ، لكنها لاتمحي . إن الخلق بهذا المعنى يبلغ أقصى حدود النفاذ والدقة فهو يمتح من الجوهر ، متجاوزاً تضليلات الوقائع الهامشية والظواهر العابرة ، ليتصيد ماهو في القاع عارياً مذهلاً .

وطرطوف واحد من هذه النماذج التي لاتني تحتفظ بكل خصائص الاستمرار والجدة والمعاصرة ، يلتقيها المرء ، فتأخذه الرعدة لأن وجهاً من عالمه يتكشف وينكشف أمامه بقوة واخزة تفزع طمأنينته ، وتبعث مخاوفه .. ولذلك ، فمن التزيد أن نتساءل : « لماذا طرطوف .؟ » . إن السؤال الأهم ، والذي ينبثق على الفور قبالة هذا العمل هو : من هو طرطوف .؟ أي وجه يحمل ؟ وأية حقيقة يمثل ؟

بالرؤية المباشرة ، والهيكلية ، طرطوف رجل منافق يتوسل بطهارة كاذبة ، وتدين زائف ، لخديعة رجل بسيط وساذج ، والسطو على أملاكه ، والظفر بامرأته وابنته .

هذا هو مجمل الحدث ، تماماً كما أن هملت شاب حائر تعصف به الريبة وتأكل عزيمته التردد . هل يثأر لأبيه بقتل أمه وعشيقها أم لا ؟ — طبعاً ليست شخصية طرطوف في أهمية هملت ولكنني أردت التمثيل فحسب — .

إن الرؤية المباشرة ، والحدث في حد ذاته لايعطيان الا قشور العمل ، إذ تظل الأعماق كامنة في تحليل الشخصية ، وتوضيح أبعادها ، وارتباطاتها بكلية الحياة الانسانية .. أي بكلمة أوجز .. تفسيرها ، وتفسيرها « كنموذج » على « وضع انساني معين » . وبالتفسير سنعطي صورة للكاتب ولأنفسنا . للكاتب على اعتبار أن عمله قد أضيء وتقوم ، ولنا ، على اعتبار أننا قد أفدنا من العمل ، واستطعنا تمثله من خلال ضرورات حياتنا الراهنة ومشاكلها ..

وفي حيز المسرح ، الاخراج هو أهم التفسيرات التي يمكن أن تتناول العمل ، ولذلك ، فهو بالضبط عمل المخرج كفنان له رؤياه ، وقدرته على الفهم والربط .. هو يهبنا المعنى ، الصورة التي تكشف امكانات الخلق لديه ، وقابليته لمنح خفايا العمل ، ومغازيه البعيدة ، بنية تركيبها متجسمة على خشبة محدودة المساحة ، وفي تركيبها يقدم موقفه — الخاص — من وضع عصره بالذات لاموقف الكاتب فحسب ..

ولهذا ، فان تناول طرطوف على أنه « حادثة نفاق فحسب » لايشكل فهماً للعمل ، ولا اخراجاً له ، بل لايعدو ترديداً ببغائياً لمعطيات الشخصية المباشرة .. دون محاولة سلخ قشورها ، أو وصلها بقضايا عصر يجاهد فيه « المسرح باعتباره وسيلة تعبيرية مؤثرة » كي يقول كلمته ، ويكون له دوره ...

طرطوف ، أكثر من ذلك ، انه « الخديعة » وانه الكذبة .. تعترض حياة الانسان ، تقلبها وتمزق نظامها بكثير من الاستهجان والقسوة . غير عابئة بكل القيم والنوايا الطيبة . والحدث هنا ينطوي على معنى درامي واخز ؛ فالشرور قوية الى حد أنها تتبرقع بمسوح الخير نفسه ، وتمتزج بالحياة امتزاجا كليا ، يعسر معه فهمها أو غربلتها بالصورة البسيطة التي ترصفها في الجانب الأسود قبالة الجانب الأبيض . كل شيء مختلط ، والانسان معروض دائما لأن يكون ضحية هذا الاختلاط ، وفدية مؤسية له .. ذلك مايعطي طرطوف « كمأساة » سمة ميتافيزيكية ، يعمقها النقد الباطني الذي توجهه المسرحية لكل مكتسبات الفكر الانساني في نضاله لحل مشكلة الشر . اذ تتحول هذه المكتسبات — ومنها الدين — الى وسيلة لابتزاز الأشرار وتكئة لمخططاتهم ، يعتمدون عليها في بلوغ مآربهم ضد الانسان . وأنوه بأن مشكلة الشر أوسع وأصعب من أن تكون كلمات عابرة .

كهنه حداً لوسعها ، وتحليلاً لخفاياها . والمسافات اليها مسرحية موليير التي - فيما أعتقد - لاتطرح النفاق فحسب، ولا العدوان فقط كما أشار المخرج في مقدمته ، وانما تتسع لأكثر من ذلك ببساطة مشكلة أشمل هي «الشر» في تغلغله داخل النسيج الانساني ، وفعاليته في اهتزاز الخير نفسه ، والهزء منه . و « أراغون » لايمثل وضعـــا شخصيا فحسب ، كما ان دفاعه عن ايمانه ومسلماته بتلك الكيفية فيه نموذجية واضحة، ونوع من الاطلاق الرمزي يستوعب وضعا اجتماعيا معينـا بتكوينه الفكري على الأقل .

ولأن الخديعة تتضمن دائماً مع ايلامها ، لمحة هزلية ، فان مسرحية طرطوف صورة غنية لحياة تتداخل فيها المأساة مع الكوميديا . من يستطيع ألا يتزعـــج من مكر طرطوف وحرباويته ؟ ولكن — مع هذا — من الذي سيمنع نفسه من الضحك على سذاجة أراغون وغبائه .

هو ذا الوضـــع يكاد أن يكون عارياً . الشرور متواكبة ، متمازجة مع اللمعات الخيرة . صعب تخلها ، وتفريقها . والحياة أغنية حزينة يشدو بها لسان ضاحك .

ولقد تمكن رفيق الصبـــان من القبض على بواطن الصورة المولييرية بطريقـة ممتازة ، واستطاع أن يستنفد هـــذا التفسير حتى آخر معطياته . ومن ذلك اجتنب عمله الارتجال ، والنقل الحر في المجرد من أية أبعـــاد داخلية تكشف معدن المخرج . ولأول مرة تقريبـــاً نستطيع ان نتحدث عما يسمى « تفسير المخرج للنص » ؛ مع انني لا أتصور اخراجـــاً دون « تفسير » . ذلك لأن تقديم النص المكتوب حياة تتحرك على مسرح ، هو بمعزل عن كل المقتضيات والعمليات التكنيكية ، فهم معين لنص محمل بالامكانات التعبيرية . فهم لابد أن يكون بمثابة الجوهر لأية عملية تحليلية أو تعوعية . إذ يجد الناقد نفسه بادىء ذي بدء امام هذا السؤال؛ أي تفسير أعطاه المخرج للنص ؟

وتلك بديهيات للأسف ، لم نتجاوزها حتى الآن في اغلب مايقدمه مسرحنا النـــاشىء على خشبته ...

ونعود الى عمل رفيق الصبان فنتســاءل بأية أداة استطاع استنفاد بواطن الصورة المولييرية ؟ حين يرتفع الستار ، يباده المتفرجين ديكور صارم التكوين . مساحات من اللون الاسود تخططها لوحات عملاقة لمشاهد دينية شديدة التأثير، جادة الطابع . ان الاحساس العام الذي يطغى على المسرح درامي حتى منابته ، فالالوان السكانية تدفع الى النفس صورا قديمة لعذابات الانسان ، واللوحات تبلور هذه الصور ، وتغلفها بمعاني من تراث ديني موغل في القدم ، الصلب ، والتضحية والهزيمة والاستشهاد .. وتجلب نظرات المتفرج بثقل رصاصي ، وتوقع مأساوي شامل ، لكن، بالتناقض ! حين تدخل اسرة « أراغون» الى الصالون ، وعلى رأسها الجدة الساخطة ، الحادة اللسان ، تتفاجأ النظارة بحياة هازلة .. تتضخم فيها الايماءات ، وتكثر الحركات الضاحكة ، موحية بأن هؤلاء ليسوا الا ممثلين يؤدون

ادوارا . . يمكننا ان ندقق أكثر فنسميه تمثيل التمثيل. ومن غير أن نستطرد الى تعقيد التعريفات نشير الى ان ذلك يختلف عما يسمونه بالـ (فارس). قد يستلهم منه الشكل « حركة واداء » لكنه يغايره مضموناً . . فما يؤديه السياق « الهازل » في مسرحية طرطوف ، ابعد من إشاعة مرح لطيف في النفس ـ بواسطة ـ مبالغة التصوير والموقف . . وانما يثير جو تناقض حاد مع الاطار العام . . بحيث يولد من هذا التناقض النموذجي والمصغر معنى التناقض الكلي والشامل. فالكوميديا تتم داخل جو متجهم كامد ، وتمتزج الدراما بالهزل ، امتزاجا غنيا بالتعبير ، وموحيا الى ابعد حد ، وبذلك ، تكون مسرحية طرطوف ، مأساة في كوميديا . .

لقد كان لجوء الصبان الى التناقض لفتة ذكية يسرت له أن ينفذ تفسيره للنص ، وأن ينبش معاني عميقة من خلف الحركة السطحية ، ربما ظلت خافية لو كان تناول العمل اقل احكاما . .

وماساعد المخرج على ادراك هذا المستوى من الاتقان توفر ممثلين ، اعطوا بالفعل اقصى ماللديهم . . ولاأحسب اننا سننسى بسرعة الروعة التي أدت بها منى واصف شخصية « دورين » فقد كانت متفهمة الى ابعد حد مرامي المخرج والمؤلف معا ، وتقمصتها بحماس الممثل الخلاق الذي يستطيع أن يعطي من عندياته لدور يلعبه . .

وكان هاني الروماني وعصام عبجي قديرين في تأدية دوريهما الصعبين جدا ، ممايدل على تحكم وضبط حاميا من التعثر أو الزلل . وأخطأ المخرج في فهم شخصية « كليانت » الشاب العقـلاني المتزن ، ولذا فشل سليم كلاس في تقديمه ، مؤكدا قلة مرونته في تطويع صوته او حركته لمقتضيات دور « غير خطابي » . .

اما ياسر العظمة فقد استطاع ان يخلق من دوره القصير لوحة رائعة لم يمحـا ايجازها ، ولاتفوق الممثلين الآخرين ، ووفق المخرج في استبدال الضحكة المتهدجة باللهجة « النورماندية » التي يتحدث بها الحارس في النص الاصلي .

ان طرطوف عمل يبشر بالكثير ، ولنا ان نتوقع الكثير بعده . . .



لمناقشة مسرحية (البيت الصاخب) ..

تقديم : ابن ذريل

عقدت في مسرح أبي خليل القباني بدمشق (ندوة) فنية ، أدبية ، لمناقشة مسرحية (البيت الصاخب) ، لوليدمدفعي ، وهي اول مسرحية عربية من نتاج سوري ، علي ، يقدمها المسرح القومي ..



الأب والابن في مسرحية البيت الصاخب

وقد لبى لفيف من النقـاد ، والأدباء ، والصحفيين ، وجمهور الفن والمسرح ، الدعوة الى المناقشة ، وكانت (ندوة) مفيدة ، مثمرة ، لم يبخل الجمهور ، على اختلاف فئاته ، بابداء رأيه بصراحة ، في المسرحية ، او الاخراج ، او التمثيل ، فيها ..

وقد ادار الندوة الدكتور (رفيق الصبان) وحضرها المخرج (سليم صبري) ، والممثلون ، والممثلات فيها ، ولكن أسف الجمهور لاضطرار مؤلف المسرحية (وليد مدفعي) الى التغيب خارج المدينة ، في اعمال ضرورية ..

وسنلخص في هذه الصفحات (الخطوط) العامة التي سارت عليها المناقشة ، مع عرض (النقاط) الهامة التي نوقشت فيها ، او اتفق عليها ، متحاشين ذكر اسماء المناقشين ، والمتحاورين ..

* * *

(الظاهرة) الاولى التي كان الجميع يهتمون بعضهم عليها ، ويشاركون بعضهم فيها ، هي

الاستبشار بتقديم عمل مسرحي علي من تأليف عربي ، سوري ؛ وهو (البيت الصاخب)لوليد مدفعي ، وإخراج (سليم صبري)..

ان هذه المسرحيةاولى المسرحيات السورية، التيقدمها المسرح القومي، رغم انه سبق لفرقنا المسرحية ، الهاوية ، او المحترفة ، ان قدمت نتاجاً محلياً ، متنوعاً .. ولذلك كان (الجمهور) يتطلب المزيد من العناية بالتأليف المحلي ،وتقديمه على اختلاف أنواعه .

وكذلك اجمع (الجمهور) على ان المسرحية جيدة وتستحق ان تقدم؛ولكن اختلفت الآراء في درجات قوتها ، ونجاحها ، او تفسيرهما .. فمن الجمهور من تعرض لموضوعها ، وبالتالي ذهنيتها ؛ ومنه من ارجع نجاحها ليس الى (النص) ، وانما الى (التمثيل)، والممثلين الذين اعطوا من روحهم ، وقدموا هـذا العمل الأدبي باخلاص ، ووعي ، وفن ..

وكان ثمة (فئة) من الجمهور الفني ، والادبي ظلت متحفظة ، وظلت تميل الى ان (المسرحية) لم تحقق (النجاح) المطلوب ، وانهـا رغم ذهنيتها ، ورغم تحليلاتها ظل ينقصها (العنصر الدرامي) ، اي عنصر (العمل المسرحي) ، وأن مؤلفهـا كان بالاحرى (اديباً) ، يهتم بعرض افكاره ، ورصف عباراته ، اكثر من اهتمامه بمتطلبات التمثيل ، والجمهور ..

وفي الحقيقة ، فيما يتعلق بالمؤلف و (النص) فان المسرحية قوية لاشك ، وتستحق ان تعرض وقد سبق ان فازت بالجـائزة الثانيـة في مسابقة وزارة الثقافـة والارشاد القومي ، لأحسن مسرحية في العام الفائت .

انها من (النوع الذهني) ، التحليلي ، الذي يمزج التقرير بالرصـد الواقعي ؛ انهـا مجموعة من (اللوحات) المواقفيـة الاجتماعية ، والنفسية ، توحدها الغاية الكبرى وهي تصوير عائلة دمشقية ، شامية في الظروف الحالية بين عامي ١٩٥٠ – ١٩٦٠ كما ذكر المؤلف ذلك في النسخة التي طبعتها ادارة المسرح القومي ، كمادتها ، وعرضتها للبيع .

ولا غرو ان يثير هذا (النوع الذهني) ، التحليلي من التأليف التساؤلات عند الجمهور على اختلاف فئاته ...

لماذا لاينكب (المؤلف) ، فيؤلف للجمهور والتمثيل ، اكثر مما نجده ينكب للتجويد الأدبي والفني ؟!

ولماذا لاتتعاون ادارة (المسرح القومي) ، مع المؤلفين على انتقاء النصوص ، او العمل معهم على ملاءمتها مع متطلبات التمثيل ،والاخراج؟!.

وقد أجاب (المخرج) ، انه حور مواضع من المسرحية ، بالاتفاق مع المؤلف ومدير الفرقة القومية؛ وأن المسرحية على الشكل الذي عرضت فيه محورة عن أصلها بعض الشيء، لتلائم متطلبات العمل المسرحي ..

وكذلك ، فقـد أثار (النص) موضوع صلاحية هذا النوع من الأدب التمثيلي للتمثيل ؛ في حين الظاهر أنه الى حد ما (جامد)؛ وان

كثيراً من مشاهده على المسرح نفسه (أدب الثاني) ، وخطابي ، وتحليلي ا . وقد ذكر بعض النقاد ايضاً أن الذهنية الوجودية ظاهرة فيه ، وتحتاج الى مزيد من (التبسيط) ، والملاءمة مع العمل المسرحي ، وكان الاحرى الاهتمام بالعرض التمثيلي وتسلسله بدل الاهتمام بالصياغة الأدبية لأفكار ومواقف شاقة . .

وقد أثار (النص) اخيراً موضوع المؤلف المسرحي في سورية اليوم ؛ وأن انتاجه الجيد قليل ، والصالح منه التمثيل قليل ايضاً . .

وعرض أحد (الأدباء) فكرة طريفة ، وهي أنه يمكن (مسرحة) القصص السورية على اختلافها القصيرة ، او المطولة ، او الطويلة . .

فيعمل المسرح (القومي) نفسه على انتقاء الجيد ، والصالح منها ، ومسرحته ، كما يفعلون في البلاد العربية الأخرى ، في مصر ، او العراق ، او غيرهما ؛ وذلك ايضاً بالاتفاق مع مؤلفيها . .

فيما يتعلق بـ (الاخراج) ، والتمثيل :

كان (الجمهور) تقريباً متفقاً على أن الممثلين ساهموا في انجاح المسرحية .

وهذا التقدير من (الجمهور) لجهود المخرج ، والممثلين ، يشرف حقاً (المسرح القومي) ، ويطمئن على عمله ، وعلى جهود أعضائه ، الذين يعطون من انفسهم . .

وقد كان (رأي) واحد ، اتهم (المخرج) بأنه لم يُوفِ* المسرحية كل ما تستحق من (العناية) ؛ وأنها كانت تحتاج الى (تفنن) أكثر في الاضاءة ، او الديكور ، اللذين كانا بسيطين ، ودون دلالة ، او ايضاً بعض جوانب من الحركة على المسرح ، او الأداء . .

وقد رد (المخرج) على الرأي بأنه بذل ما في وسعه ، لعرض هذا العمل المحلي ، الشامي ، ونصب عينيه ، ذهنية النص ، وأبعاده . .

تلك هي الخطوط العامة لسير هذه المناقشة القيمة ، المفيدة ، التي دارت حول عرض مسرحية (البيت الصاخب) لوليد مدفعي ، اخراج سليم صبري ؛ وهي اول مسرحية سورية يقدمها (المسرح القومي) ؛ وتلك أهم الآراء التي وردت فيها ، سواء حول النص ، او الاخراج ، او التمثيل . .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

تقديم : فؤاد الشايب

التخطيط في ظل النظام الديموقراطي البرلماني الغربي — ماهي الافكار الاساسية التي تحتضن مبدأ التخطيط الديموقراطي — حوافزه ، أهدافه ، آليته — نموذج التخطيط الفرنسي ، ومحاولته التزام (الخطة) ، بديلا عن (الاشتراكية) — الديموقراطية بالتخطيط تدافع عن بقائها .

لعل أهم ماتميز به النصف الثاني من القرن العشرين هو طاقتـــه العلمية التطبيقية ، التي غدت تقنياتها على درجة من الضبط والدقة بحيث تمكنه من تحقيق حلم الانسان البعيد : التفوق بالارادة ، وتحكيم الثقـــافة بالطبيعة . وان يكن الانسان قد خرق الناموس بالطواف حول الارض ، عبر الافلاك ، بعد أن فلق الذرة ، وأطلق قوى الطبيعة ضد الطبيعة ، وكان بنصره مزهواً فخوراً ، فانـــه لأدعى الى الزهو والفخر ، وأبعث على العجب والاعجاب ، أن يستطيع هذا الانسان كشف الغيب ، ورصد مجهول المستقبل ، وتقرير حدود المصير .

لقد عرف الانسان ماضيه بشكل أو بآخر ، وأحاط بحاضـــره ، بنظرة أو

بأدنى . ولكنه وقف ابداً أزاء المستقبل وقفة الحائر او المذعور ، أو المستسلم (لأن المستقبل لله) كما قال الشعراء والحكماء . ثم على هذا الموقف الحائر أو العاجز او المستسلم ، قامت الأديان ، تهدي الانسان ، وتصوب خطاه ، وتشد عزيمته ، وتنزل في حدود آماله ومخاوفه، لتطمئنه الى مصيره ، ولتكشف له عن خفقه نور في هذا الغيب المذهل من مطلق الظلام : مستقبله .

على ان الانسان الحديث ، قرر مع (مالتوس) قبل (ماركس) أنه عندما يتحرر من الاستعباد ، والظلم ، والجهل ، يصبح انساناً (ينظر الى الماضي والى المستقبل) بدلاً من أن ينظر الى الحاضر وحده . يعني : ان الوقوف في حدود الحاضر ، عجزاً أو قناعة ، منتهى استسلام الانسان لعبوديته .

وعندما جاء (ماركس) مع منطلق عصر الصناعة والاختراع ، ليعبر عن هذه النظرة الواسعة الشاملة ، تطوي الماضي في الحاضر في المستقبل ، ليرصد بها حركة الانسان عبر التاريخ ... والى الأبد ، جاء بعده ، من يتهمه بأنه وهو الذي رمى الى تحرير الانسان ، بتعليمه كيف كان ماضيه ، وكيف سيكون مستقبله – فكان بذلك في ذروة العلم والادراك – قد وقع في نقيض ما رمى اليه وأراده ، ان كان حقاً ما أراده تحرير الانسان . لأنه قد استطال الى أبعد من حدود المعقول الانساني ، وانتهك بحتمية التاريخ حرية الانسان .

وسواء أكان المستقبل المجهول بيد الله ، أم بيد الحتمية التي تؤول اليها المادة التاريخية – بين القطبين المتباعدين – فان ما لا يمنو له الانسان المعاصر ، أن يقضي عليه بالعجز ، فلا يكون قادراً بحريته ، لا عبر قانون تاريخي ، أو ارادة ميتافيزيقية ، أن يصنع بيده تاريخ جنسه .

واذا كان العلم ، بكل ما أوتي من قدرة ، لا يزال عاجزاً عن تقرير حدود الحتمية والحرية ، وما زال الموضوع معضلة فكرية قائمة ، فماذا يفيد الانسان أن نقرعه كل يوم بقولنا ان (قدره) اقوى من (حريته) ؟! وهل يبتغي القائلون بهذا القول سوى اقعاده عن طموحه ، وايهامه بباطل حريته ؟! واذا لم يكن للانسان من شأن في حتمية ماتؤول اليه الجدلية المادية ، عبر مراحلها ، سوى التسريع في تحقيق اهدافها ، دون

لأن يبدل فيها قليلاً او كثيراً ، فلماذا يمضي سريعاً نحوها ؟!

من هنا تنطلق النظرية الديموقراطية بشكلها الليبرالي ، أو البورجوازي ، كما يقول الاشتراكيون ، لتؤكد أن حرية الانسان ليست غاية فحسب ، بل هي وسيلة وغاية معاً . ومن هنا تنطلق ايضاً الى تجريح الاشتراكية الماركسية ، مرحلة وهدفاً ، سواء في رسمها الخطة الاقتصادية الاجتماعية على غرار الخطة السوفييتية ، أو في تبديلها علاقات الانتاج كاملة واقامتها مؤسسات اجتماعية سياسية ثورية جديدة ، على مستويات القاعدة ، والذروة معاً ، تمكيناً لما تسميه (دكتاتورية البروليتاريا) .

لا بد لنا من حصر الجهات التي تعترض على الاشتراكية الماركسية كلياً اوجزئياً ، لتبدو لنا ، من بعد ، ملامح التكوين التخطيطي الديموقراطي ، موضوع بحثنا .

ويمكن حصر هذه الجهات باثنتين رئيسيتين : الجهة الديموقراطية الليبرالية التي ترفض الاشتراكية مبدأ ، ومآلاً وتلتزم بالتخطيط الاقتصادي في الوقت نفسه . ونموذجها النظام الفرنسي الديموقراطي .

والجهة الثانية وهي الاشتراكية التي تعايش النظام الديموقراطي الليبرالي بركنيه الكبيرين : السوق الحرة ، والبرلمان الحزبي ، وتعيش فيه . ونموذجها النظام البريطاني ، سواء في عهد حزب العمال أو حزب المحافظين .

واذ نحصر البحث في التخطيط الديموقراطي ، دون الاشتراكية في النظام الديموقراطي ، لا بد أن نقف عند هذه الاشتراكية على الطراز البريطاني ، وقفة وجيزة ، من شأنها أن تساعد في التوطئة لما نقصد اليه .

اشتراكية النظام الديموقراطي

في رأي سي . أ . ر كروسلاند ، الباحث البريطاني المشهور في كتابه (مستقبل الاشتراكية) (*) أن اي خطوة جدية نحو الاشتراكيـــة — والاشتراكية في الأصل ، هي

(*) صدر في لندن عام ١٩٥٦ The future of Soeialism

العدل والمساواة - لاتلزم بأن تكون (الملكية الجماعية) للأرض ووسائل الانتاج، أداتها الأولى، أو وسيلتها الوحيدة. مع عدم استبعاد هذه الأداة استبعاداً كلياً، وعدم قصر تحقيق العدل والمساواة، عليها قصراً كلياً.

ويستشهد كروسلاند، بزميل له لايقل عنه شهرة هو (ر. هـ. توني) R. H.TAWNEY حيث يقول في خلاصة بحث طويل ان الاشتراكية، شأنها شأن اي قوة سياسية معقدة، لاتتبدل كل جيل فحسب، بل يصيبها التبديل في وسائلها على الأقل، كل عشر سنوات. لأن وسائل التبديل — كما يعود كروسلاند الى القول — الصالحة العمل في عصر ما، لاتكون صالحة دائماً في عصر آخر.

فالقول بأن التأميم والتخطيط ملازمان للاشتراكية، غير منفصلين عنها، قول قد يدفع الغلو فيه الى الخلط بين الوسائل والغايات. انما توصف الاشتراكية بمثلها الأصلية وبأهدافها المحددة الواضحة، لابوسائلها. في بريطانيا — مثلا، كان التأميم جزئيا، وتراوح التخطيط بين الشدة واللين، وراء الظرف الاقتصادي والسياسي في المقام الأول. وان يكن جزءاً كبيراً من التغيير الاقتصادي والاجتماعي، قد انجز بفضل حزب الاشتراكية العمالي فليس التغيير بمشهده العام، سوى انعكاس لتبدل الذهنية البريطانية، ولتبدل أوضاع القوة الاقتصادية معاً، لاسيما، في الفقرة التي عقبت الحرب العالمية الثانية.

وبعد أن يصف كروسلاند المجتمع البريطاني، بأنه، لم يعد كما كان في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مجتمعاً يؤلف فيه رجال التملك، طبقة حاكمة. وبأنه قد خضع لفروض التضخم الصناعي الذي أحل المديرين، محل المالكين في السيطرة على العمل والانتاج وسياسة السوق. وبأنه — هذا المجتمع — انما يخضع لتأثير الصحافة، والكنيسة، والمنظمات البيروقراطية الكبرى كهيئة الاذاعة البريطانية، وكهيئة الفحم، أو كاتحاد نقابات العمال، أكثر مما يخضع فعلاً لسيطرة أصحاب الأموال. وبعد أن

أكد أن الاقتصـاد ، يتسارع نموه ، وتنعكس ثمرات دخوله على المواطنين ، رخاء متنامياً أيضاً ، بسياسة الدولة وعن طريق الضرائب ، وتوزيع الدخول ، وتوسيع الخدمات الخ .. (*) يخلص الى القول بأن (الملكية الجماعية) ليست بعد شرطـاً عصرياً ، لتحقيق أهداف الاشتراكية . وأن تطورات المجتمعات الديموقراطية ، خـلال قرن مضى على نبوءات ماركس ، وما رافقها من طاقات العلم ، وتطور الأفكار على النطاق الخاص والعام ، قد نفت حتمية الصراع الطبقي ، كما نفت من قبل تزايد انحصار الثروة في القلة من المالكين ، وتزايد الفقر لدى الكثرة من المواطنين . ثم يقترح بديلاً عن (الملكية الجماعية) ، سلطة سياسية ديموقراطية ، تحل (التعـاون وتحديد مسؤوليات الأطراف) محل الصراع ، وتحمل المسؤوليات من طرف واحـد ، تحت قرع الحقيقتين العصريتين : تنامي الاقتصاد السريع ، وتكوين القوة الاقتصادية الجديدة .

اثر هذا ، يعترف كروسلاند بواقعين : أولهما أن تطورات العصر وملازماتهـا الاجتماعية والاقتصادية ، لا يجوز الانطلاق منها ، الى رجم الاشتراكيات الأولى ، والحط من قدرهـا ، أو توهين شأنها وأثرها ، في بيئاتها وظروفها التي نشأت معها ، خلال مئة وخمسين عاماً ، قبل ماركس وبعده .

والثاني أن دعوة (التعاون وتحديد المسؤوليات) لا يمكن أن تحل بسهولة محل دعوة (التنابذ والصراع) التي سـادت زمنا ، وألفها العمال سلاحاً ومبرر بقـاء وتفوق ، برغم زوال كثير من أسبـاب قيامها . لأنهم باتوا يشعرون بالتنازل عنها ،

---

* من ارقام (كروسلاند) أن تسعة اعشار الفقر قد توارت بين اعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٥٠ في بريطانيا . وأن نسبة الفقراء انحدرت من ١٨ ٪ من عـدد السكان الى ١،٦ بالمئة ـ خلال الفترة نفسها ـ وأن اجور العمال الحقيقية تصاعدت حتى بلغت ١٤٩ ٪ قبل عام ١٩٥٠ ويحدد كروسلاند درجة الفقر المقصود بانها دون الحصول على (الشراب والدخان والهدايا ، والكتب ، ووسائل التسلية) وليس المقصد من الفقر هو الجوع أو سوء التغذية المخل بالصحة العامة ، مما تجاوزه المجتمع البريطاني بلا تساؤل .

كأنهم تنازلوا عن (قضيتهم) نفسها ، فغدت مهددة بلا انقطاع .

ولكن السلطة السياسية الديموقراطية بدعوتها الى التعاون والتنظيم المشترك — يستدرك كروسلاند فيقول — لا تحرم العامل من حقين له مقدسين ، حق اختيار نوع عمله ، وحق الاضراب . فلماذا تحرمه اياها دول تحكم باسمه .

ثم يتساءل : اذا كانت الرأسمالية التقليدية ، – قبل تدخل الدولة بسياسة العدل والمساواة – كانت تسرق من العامل (فائض القيمة) ، لتنمي أموالها ، وتزيد العامل ضعفاً وعبودية ، ألا تفعل (الدولة البروليتارية) مثل هذا الفعل ، باستيلائها على (فائض القيمة) دون أن ترده ، كما عدت ترده الدول الديموقراطية بسخاء على الأجور وميزان الخدمات الاجتماعية ؟! وهل يصح الانطلاق اليوم ، من (فائض القيمة) كما صح الانطلاق ذات يوم ، عندما شاهد ماركس مأساة العمل ، تحت وطأة وحوش الربح ، في مستهل المرحلة الأولى من مراحل العصر الصناعي ؟!

وهكذا ، فان الديموقراطية تدافع عن كيانها وبقائها ، واستمرار (نظامها السياسي) بالاشتراكية الاقتصادية ، تارة ، وبالتخطيط العلمي تارة أخرى . وان كنا سنطالع معاً ، في بحوث تلي ، مشاهد من الصراع الفكري والإيديولوجي ، بين الديموقراطية الليبرالية ، والاشتراكية الماركسية ، فان ما اوجزناه الان ، قد يصلح تمهيداً لتناول (التخطيط الديموقراطي) في الدولة غير الاشتراكية ، كسلاح للدفاع عن الكيان ، وقد اخترنا ، كما سبق القول ، التخطيط الفرنسي ، نموذجاً للمحاولات الشاقة التي تنهض بها الديموقراطيات الغربية .

— التخطيط الديموقراطي —

لكي يسهل علينا تناول الموضوع بامتداده ، وتعقده حاولنا حصره في ثلاثة أقسام ، متداخلة ، متشابكة الجذور :

١ - حوافز التخطيط الديموقراطي

٢ - اهدافه العاجلة والآجلة .

٣ - آلية تكوينه وتنفيذه .

مع التنبيه أننا نلح في عرضنا هذا ، شأننا دائما ، على الافكار ، والسياسات ،

والمنطلقات الرئيسية، أكثر مما تهتم بالدقائق والتقنيات، مما يجدر باختصاصيي التخطيط وحدهم تحريه والتعمق فيه.

أ – الحافز السياسي

ليس مثل فرنسا بلد تهزه العوامل السياسية وتفعل فيه، وتقيم أهله وتقعدهم. وليس مثله بلد في العالم تتناوح فيه رياح أقصى اليمين وأقصى اليسار، منذ ثورته الكبيرة حتى اليوم. تداولته خلال مئة وخمسة وسبعين عاماً، عدة جمهوريات، وملكيات، وامبراطوريات. ولم يستتب له نظامه الجمهوري الذي أعلن عام ١٧٩٢ الا عام ١٨٧٠ في عهد جمهوريته الثالثة. وهاهو اليوم في ظل الخامسة، مع الرئيس دوغول، وكاد في أخريات ليالي ١٩٦٥ أن يعلن جمهورية سادسة، ضد الرئيس دوغول، نفسه.

حتى ان الادب الذي منح الحياة الفرنسية طابعها المميز وأطارها المجمل بعيداً عن ضوضاء الشارع وجلبة القراع، اكثر مما فعل أي ادب في اي مجتمع، ما كانت راودته السياسة عن زهده الا ويخف لها خالع العذار، عنيف الهوى مشبوباً. وقلما خلا تاريخ أديب فرنسي من ايام فولتير الى ايام سارتر، من معركة سياسية أثخن فيها وأثخن سواه جراحاً. بل كان الادباء يزيدون المعركة ضراماً، ويشاركون في انشادها، باقلامهم حينا، وبأذرعهم، وأظفارهم أحياناً. وان لم تكن مثاليتهم لتعبيهم، فقد كان يعيب القتال، ان تبدو الخصومة، فوق الفكرة، وقبل العقيدة.

كل فرنسي محارب قديم، بأسلوب ما، وسلاح ما. وعندما قام (أندريه مورو) بعد الحرب العالمية الثانية، ينعي على قومه استهتارهم، ويعدد اسباب هزيمتهم، كان يريد ان يقول: لا يغني كبرياء المحارب عن سلاحه !! وخرجت فرنسا من تلك الحرب، وهي اكثر ماتكون شعوراً بذل الهزيمة، واكثر.. بحقيقة الهزيمة، ماثلة في تفكك مجتمعها، وفي تداعي اقتصادها، وفي تمزق سياستها، وراء حركة جيشها. ومن هنا ركب الجنرال دوغول دفة القيادة.

ومثلما ربط بونابرت جهاد الثورة بمركبة مغامرته الاوروبية الكبرى، لينقذ الثورة من النار التي تأكل نفسها، كذلك جاء دوغول ليربط الهزيمة بمركبة النظام، لينقذ الهزيمة من يأسها. وليس الجنرال نجماً كاذباً، في حياة فرنسا، سواء أتحمل الفرنسيون سطوته الشخصية أم لم يتحملوا. انه شارة انتهاء الطوفان في حياة بلاده. وبلغة السياسة انه سلطة ثورية، تشق طريقها الى الرأي العام، واكثر، الى ضمير الشعب عن غير طريق الاحزاب، ودون الغائها. لقد ربط الجنرال حركة الاحزاب السياسية بمدارات لا تتعداها، في فلك البرلمان. ولم يكن دستوره ليخرق تقاليد البرلمانية السياسية السائدة في الجمهوريتين الثالثة والرابعة، إلا ليرسي دستورية ديموقراطية جديدة حقاً في تاريخ الديموقراطية الحديثة التي وجب عليها ان تقبل التضحية بالجزء لتتمكن من انقاذ الكل. لذلك كان طبيعياً في تقاليد الامة البرلمانية في فرنسا أن تتصدى للرئيس معظم الأحزاب في معركة رئاسته الثانية، لأن الديغولية، استراتيجية ديموقراطية جديدة، تتخطى الأحزاب الى الشعب نفسه. وفي هذا التخطي، محاذير اعلنها الخصوم، شارة خطر على النظام. وسواء بعد، أكان مصير هذه الستراتيجية الجديدة إلى بقاء، أم إلى زوال، بعد ذهاب مؤسسها، فانها مرحلة تمر بها فرنسا. والمرحلة هذه، دشنها الرئيس دوغول، بانشاء سياسة التخطيط الاقتصادي والاجتماعي وهيئة تنفيذ الخطة الفرنسية بمرسوم يحمل توقيعه كرئيس للحكومة الفرنسية الموقتة يوم الرابع من كانون الثاني عام ١٩٤٦. وقد أناط بشخصه رئاسة مجلس التخطيط الذي وضع فعلاً بمدسته أشهر من صدور المرسوم برنامج اول خطة فرنسية (*).

في هذا المشهد العام الذي القينا عليه نظرة شاملة، يقوم حافز سياسي آخر، غير تنظيم البيت الداخلي، واكثر منه تصويباً ودقة، وهو الجمع بين الخطة

(*) نفذت الحكومات الفرنسية اربع خطط حتى الآن: خطة ١٩٤٦ — ١٩٥٢ وخطة ١٩٥٢ — ١٩٥٧ وخطة ١٩٥٧ — ١٩٦١ وخطة ١٩٦١ — ١٩٦٥.

والنظام الديموقراطي في صيغة اجتماعية سياسية جديدة ، تؤكد نظام البيت ، بينما لا تمس سلطته الشرعية ، أو هي بالواقع تدعمها .

فالديموقراطية الليبرالية ، التي تعتمد الحرية الفردية ، والملكية الشخصية أساساً للكيان ، لتشعر اليوم أكثر من أي وقت مضى ، بأن (القضية الاجتماعية) تفرض نفسها فرضاً عنيفاً على نظرية الحرية السياسية والحرية الاقتصادية ، بحيث أنها لو تأبت على هذا الفرض المعاصر ، كان عليها أن تواجه الاحتمال الاسوأ وهو زوال الحرية أو التضحية بها على الأقل .
وقد سبق أن رأينا في فصول سابقة ، كيف غدا رأس المال يلين لتدخل الدولة ، اعترافاً منه بعجز عفوية السوق عن تنظيم الحياة ، وتوزيع الرخاء ، وبخاصة ، رصد المستقبل . بل قد غدت الدولة ، أكثر قدرة على انشاء الاجهزة الضخمة التي تحسب وتسجل وتحلل ، وتربط الماضي بالحاضر بالمستقبل بصلات عقلانية ، وطفق رأس المال ، يطمئن الى خطط الدولة ، على أساس أنها قد تحد من ربحه ومغامرته ، لكنها تضعه ، في المنطلق الصحيح ، وتفتح أمامه مجالات الرؤية الواضحة ، وتجنبه كوارث الأزمات الساحقة . وكانت اللعبة الرأسمالية ، على الأخص ، في كل من الولايات المتحدة ، وفرنسا ، وبريطانيا ، عرضة لازمات التضخم ، والبطالة الواسعة ، والافلاسات ، (والهزات الدائرية) التي زعزعت الثقة بالدولة وبالنظام ، وعفوية الحرية الاقتصادية ، بين الحربين العالميتين . ومن هنا جاءت الاشتراكية ، بصيغها المختلفة ، تقرع أبراج الديموقراطية الليبرالية ، وتهز أركانها ، عبر المئة السنة الاخيرة ، وتضيف الى بلبلتها واضطرابها ، ريح الجماهير العاصفة .

ففي بلد كالولايات المتحدة الامريكية ، قد يخفف من حدة الازمات ، قوة النظام ، واستتبابه ، وولاء شعبي له وقناعة عامة بصلاحه ، برغم وجود بطالة جزئية دائمة فيه ، لاسيما وقد توات ادارته السياسية ، لعبة الحزبين المتكافئين من جهة ، وتوافرت له من جهة ثانية ، ثروات مادية وبشرية فارهة بجانب تقنيات علمية قياسية الطاقة الانتاجية .

وفي بلد كبريطانيا ، قد يخفف من الأزمات ، أو يساعد في تحويلها ، نظام الحزبين ، يتناوبان على الحكم ويعدلان من جموح السياسة ذات الطرفين . وقد تسلم الحكم في أعقاب الهزات الاقتصادية والاجتماعية ، حزب العمال الاشتراكي ، وأفلح بالتأميم والتقنين تارة ، وبتعبئة الخدمات ، وبالضريبة التصاعدية ، وبرفع الأجور تارة أخرى ، أن يلتقي مع حاجات الجماهير العاجلة ، وأن يقلص الفروق الطبقية ، ويكبح ضراوة رأس المال ، ويفرض عليه ضريبة النظام .

وأما في فرنسا فقد يكون الموقف مختلفاً ، لجملة من الأسباب أهمها تعدد الأحزاب، وتوزع آراء المواطنين وضراوة الخصومات السياسية وراءها . يضاف الى هذا ، امتناع الفردية الفرنسية على العقلية الجماعية ، وهي عقلية العصر العلمي ، الذي تسوده الوحدات الصناعية الكبرى ، والطاقات الانتاجية الضخمة ، حيث لا يُقيَّم فيها الفرد ، الا بقدر خضوعه نفسياً وجسدياً لآلية الحركة والنظام . سواء في ظل النظام الفردي ، أو النظام الجماعي .

بل لعل تعدد الأحزاب ، وضراوة الصراع السياسي ، من بعض مظاهر هذه الفردية المغرقة ، التي غالباً ما تعنى بالحرية ، دون النظام ، وبالانتاج الفني ، دون الانتاج الكمي ، أي بالجانب الحرفي من العمل ، دون الجانب الصناعي ، وبمضمونه الابداعي ، دون مؤداه التطبيقي ، فالفلاح والعامل والحرفي ، يحبون عملهم ، ويخلصون لشرف المهنة ، ويتقنون فنونها ، طالما أن عطاياها لهم وأن ثمار عملهم منها تحمل طابع جهدهم وعرقهم ، واتقانهم . وفي وصف دلالي أورده الكاتب الفرنسي (بيغي) ch : peguy الذي مات جندياً ، خلال الحرب العالمية الأولى في كتابه (فرنسا) أن العامل الفرنسي لا يتقن عمله ، ارضاء لصاحب العمل ، أو زلفى لخبير المعمل ، أو لرغبات الزبائن . بل الاتقان سروره وشرف أعظم شرف . انما العمال الفرنسيون كما يقول (بيغي) أيضاً لا يخدمون ، بل يشتغلون ، وباليد الصناع التي تتقن اصلاح كرسي ، بنى هذا الشعب كاندرائياته ..

واذ يعبر الكاتب الفرنسي باصطلاح (لايخدمون) عن كبرياء العامل،وشرف المهنة، في تقاليد المجتمع الفرنسي، فان هذا المديح الشعري الفروسي دون أن يفقدقيمته كفضيلة بحد ذاتها، يغدواليوم في عصر الجماعية الصناعية، وكأنه تمرد على الواقع، وامتنـــاع على روح العصر وتجريد للعمل من وظيفته الاجتماعية اذا ماأريد للعامل أن يتشبث بتقاليد الشرف المهني السائدة في القرن التاسع عشر.

كذلك كان يفاخر (جان كوكتو) بأن الفرنسي، يمشي وجيوبه مملوءة بذوراً، فيتركها بلا اكتراث تسقط خلفه، حيث تأتي الشعوب، فتلتقطها وتنقلها الى بلادها، وتزرعها في تربة كيمائية، تنبت زهوراً كبيرة، ولكن بلا عطر...!!

ينقل كلام (كوكتو) الشاعر، باحث أكاديمي عام ١٩٥٠ هو (اندريه سيغفريد) ويؤكد شوق الفرنسي الى الابداع، والاختراع معاً، ولكنه يتساءل هل يمثل هذه الرؤية يمكن أن توفق فرنسا بين تقاليدها وفروض الأساليب الحديثة في الانتاج الكبير، وماذا يجدي الفرنسي ان يترك جيوبه تنثر البذار، وسواه يزرع ويحصد؟! اذن، فان مثل هذا التفاخر يفسر أنما — كما يقول سيغفريد — أن فرنسا كانت حاضرة في بدء الكثير من المستحدثات، كالسيارة والطائرة ولكنها كانت مفتقدة فيما بعد، عند توزيع المغانم. ثم ينتهي (سيغفريد) إلى التأكيد على صيغـــة أخلاقية جديدة، تواكب عصر التقنيات التطبيقية، تحت طائلة التخلف. أنما المعضلة ليست في القضاء على الفردية الفرنسية، بل في مداراتها وهي تساق الى الجماعية سوقاً رفيقاً حازماً معاً. انها الصيغة التي لم تعثر فرنسا عليها بعد. وكان التخطيط الاقتصادي والاجتماعي، احدى الصيغ المقترحة على المجتمع الفرنسي، وعلى الديموقراطية الاوروبية الغربية كلها.

ورغم ان التخطيط الفرنسي، مكافـــحة حذرة للمعضلة الفرنسية — كما سنرى — ورغم أنها لاتزال في

مرحلة المحاولات كما كانت في عامها الاول، لا يرتقب التخطيطيون وعلماء الاجتماع، أن تنجب معجزة، ولا هم بمستنزلي معجزات. فقد قابلها السياسيون الفرنسيون من اهل اليسار واهل اليمين على السواء، بالعداء او بالتذمر، أو بعدم الاكتراث في أدنى الحالات. فأهل اليسار من الاشتراكيين، يرجمونها على أنها بدعة ليبرالية فاشلة، ومحاولة من محاولات التعمية والهروب من علمانية التخطيط الاشتراكي. فلا هي انتاجية، في البيئة التي يتحكم بها رأس المال، والملكيات الفردية، ولن تبلغ بانتاجيتها الاقتصادية مستويات الكفاية والحاجة الشعبية. ولا هي، من جهة أخرى، عدالية التركيب من حيث طاقاتها المحدودة في توزيع الثروة، وهي لن تمنح العدل والمساواة الا بالقدر الذي تتصدق به الملكية الخاصة، زكاة سلطتها وجاهها واستمرار سيادتها. ومثلما أن التخطيط ملازم للاشتراكية، كما قال لينين، فالتخطيط لا يبلغ غاياته الاقتصادية والاجتماعيـــة إلا في حوض التطبيق الاشتراكي، ونظام تملك الدولة وسائل الانتاج، لمصلحة الشعب العامل.

كذلك فأهل اليمين الفرنسي، لا يخفون جزعهم، من تطور سياسة التخطيط، وزحف أهداف الخطة، شيئاً فشيئاً من القطاع الفردي، الى القطاع الجماعي، بحيث أن كل نجاح لها من الناحية الانتاجية، ومن الناحية الاجتماعية سيضخم حجمها وجمهورها معاً، لتلقي ظلها الاقتصادي على الكيان السياسي، وتدخل الحرية السياسية في تعمية الاقتصاد الموجه، الذي تقنعت به جميع دكتاتوريات العصر، من نازية، الى فاشستية الى شيوعية، بلا تمييز.

وبرغم صيحات الخطر، تصدر عن متزمتي أهل اليمين، فمن المقرر حقاً وفعلاً أن التخطيط الفرنسي، لم ينهض على عداء الفردية، والملكية الخاصة، والحرية السياسية. وليس في طبيعة تكوين الخطة، ما يشير كثيراً او قليلا، الى مآرب أخرى، تسير نحوها الخطة تسللا وغيلة. بل ان جماع فلسفة التخطيط، يقوم على استقطاب الملكية الفردية، المرغبات

الجماعية، بحيث يتيسر باستراتيجية حسابية، توجيه الاقتصاد نحو مطالب العدد الاكبر، دون القاء هذه التبعة على تلقائية الحرية الاقتصادية المطلقة العنان، وهي تلقائية، فشلت — خلافاً لما زعمته لها النظرية الليبرالية — في أن توائم رقم مصلحة الجماعة، من مجموع أرقام مصالح الافراد. وهذا لا يعني الانطلاق من الجماعية، بل من الفردية، سبيلا الى توسع الاستقطاب. وفي اصطلاح فرنسي اطلقه (جماعة البحوث المالية والفلاحية) أن (الخطة) ليست هدفاً مقصوداً بذاته، ان هي الا اداة لبلوغ غايات اساسية جماعها: جعل **الاقتصاد اكثر فعاليـــة، واكثر ديموقراطية**، مما لم يستطع تحقيقه حقاً الاقتصاد الليبرالي، ولا اقتصاد الدولة.

وفي تعبير للباحث التخطيطي بيير بوشيه : P. Bauchet أن الشاغل الاول للخطة، كفاية الحاجات الجماعية وملاحقة أهداف المصلحة العامة، وتولي تحقيقها. أي، بجملة قصيرة: **أن يكون للخطة محتوى ديموقراطي**. وأما الشاغل الثاني فيمس أصول القرار والعمل، حيث يترتب على الخطة أن تكون تعبيراً عن نوع من (الارادة العامة) دون خنق حرية الاختيار الفردية، **أي ان يكون للخطة، نظام ديموقراطي**. » وبذلك فان (حرية الاختيار) لا تتنافى مع (حرية عدم الموت جوعا)، بل تعززها وتنميها ».

ان الجهاز السيـــاسي في الدولة الديموقراطية الحديثـــة، أصبح تحت سطوة التقنيات العلمية، من جهة، وحركة الجماهير، من جهة ثانية اكثر شعوراً بشماته، لاسيما وان بين هاتين الظاهرتين — تخصص العلم وتفتح الجمهور — من التناقض، مايوجب ازالته، أو تخفيف حدته، أو تحويل التلاحم فيه الى تساند وتلازم. وليس بوسع هذا الجهاز السياسي بعد، أن يتجمد على مبدأ (دعه يعمل، دعه يمر) في حدود وظيفة شرطي المرور، ينظم السير، دون أن يفعل فعلا تبديليا كاملا أو جزئيا في حركة العمل والمرور، ودون ان يتطور الى وظيفة سياسيـــة اجتماعية، اكثر تعقيداً وأعمق تفاعلا مع

الحدث الطارىء ، وتناقضات المجتمع.

فالتخطيط الديموقراطي ، بصرف النظر عن أهدافه الاقتصادية والاجتماعية صيغة يحاول النظام الديموقراطي بها ، تجديد ذاته ، كجهاز سياسي قادر على التطور ، لملاقاة الأحداث المعاصرة ، دون أن يفقد مبررات وجوده ، أو تنفصل هذه الأحداث بينه وبين محوره ، فيغدو مضطرب الحركة ، أو فرضية ذهنية دفعتها الحركة الأقوى ، الى حيز التصورات الماورائية. وهو مثلما يردف الاشتراكية الماركسية الى تاريخ التجربة الاشتراكية ويجردها من جداراتها المعاصرة ، فهو يريد أن يردف بعض تقاليد الديموقراطية الليبرالية الى متحف التاريخ أيضاً ، على أنها بالفعل لاتلتقي مع تعقد الاقتصاد المتضخم ، وتدفق وعي الجماهير . وان هذا الجهاز ، الذي يأبى أن يتنازل عن سلطته السياسية ، ليدعو اليه الجماهير الممثلة بجماعاتها ، أي طبقاتها ، وبمنظماتها أي نقاباتها واتحاداتها - ويضيف اليها خبرات رجال الادارة والتقنية العلمية من المستويات العليا ، ويزج الجميع في اطار تنظيم الخطة ، برلماناً غير سياسي ، تحت اشراف البرلمان السياسي ، تحقيقاً للديموقراطية الاقتصادية بجانب الديموقراطية السياسية التي لاتتخلى عن دفة القيادة والتوجيه .

فالخطة ، والحالة هذه ، بدفع **الحافز السياسي ، ليست بديلا عن الديموقراطية ، في فرنسا ، بل هي بالواقع الصيغة البديل عن الاشتراكية بالذات . صيغة الدفاع عن النظام ، وحمايته واستمراره .**

وستغدو الصورة أكثر وضوحاً ، عندما نتناول في الجزء الثاني من البحث الحوافز الاقتصادية والاجتماعية للتخطيط الفرنسي ،